رضا ربيع

الحجّاج

تويا
للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب : الحجاج
المؤلف : رضا ربيع
تصحيح لغوي : مصطفى جوهر
تصميم الغلاف : أسامة علام
إخراج فنى : ibiidi
رقم الإيداع : ٢٧١٧٩ / ٢٠١٨
ردمك : 978-977-6549-95-1
الطبعة الأولى : ديسمبر ٢٠١٨

رئيس مجلس الإدارة: شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
Dar.toya دار تويا للنشر و التوزيع
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01202222098
٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

«التَّاريخُ ليس ما حدث حقًّا.. بل ما نتذكرُه
وكيف نحكيه»

(ماركيز)

«فَمَـا يَكُـنْ فِـي كِتَابِـي هَـذَا مِـنْ خَبَـرٍ ذَكَرْنَـاهُ عَـنْ بَعْـضِ الْمَـاضِينَ، مِمَّـا يَسْـتَنْكِرُهُ قَارِئُـهُ، أَوْ يَسْتَشْـنِعُهُ سَامِعُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّـهُ لَمْ يَعْـرِفْ لَهُ وَجْهًا فِـي الصِّحَّـةِ وَلاَ مَعْنًـى فِـي الْـحَقِيقَةِ، فَلْيَعْلَـمْ أَنَّـهُ لَـمْ يُـؤْتَ ذَلِـكَ مِـنْ قِبَلِنَـا، وَإِنَّمَـا أُتِـىَ مِـنْ قَبَـلِ بَعْـضِ نَاقِلِيـهِ إِلَيْنَـا، وَإِنَّـا إِنَّمَـا أَدَّيْنَا ذَلِـكَ عَلَـى نَحْـوِ مَـا أُدِّيَ إِلَيْنَـا»

(الإمام الطبري.. في مقدمته لتاريخ الطبري)

إهداء:

إلى أبي وأمي..

رغم وفرة مفرداتها لكنها ضنت عليّ بما أصفُ به حقكما عليّ، فما حوته المعاجم من مفردات الشكر والتعظيم يتضاءلُ أمام مقدار ما أحويه لكما، ولعهدي بالحروف أنها تُقتل حين تُكتب فليبقَ ما في القلب واقرًا فيه حتى يصدقه العمل، وعلى قول أهل اللغة الأوائل: إن كفاك الإيجاز فالإكثار عِي. لولاكما ما كنتُ.

إلى صاحبي ورفيقي، وخليلي وخديني، وأنيسي ومؤنسي ومؤانسي، وصفيي ونجيي، ونديمي وسميري، وقبل كل ذلك. شقيقي. وبعد كل ذلك توءمي.

إلى رامي..

لو لم نكن أخوة بالدم فقطعًا نحن أخوة بالمحبة، وتوءم بالمشاركة، فحتى لو لم نتقاسم الرحم فلدينا رصيدٌ وافرٌ من تقاسم الأسرار.

النَّوَاقِيس

رفعتُ يديَّ مُكتفيًا من مطارحاتهم الليلة فصمتوا، وحرَّكتُ راحتي، أي انصرفوا، فعادوا إلى حيث أتوا؛ وقبل أن ينصرفوا تبادلوا ذات النظرات التي أتوا بها، فغضضتُ طرفي عنها لا سيما أني لا أنحاز لأي منهم، بل لخبث نفسي وددت لو أن جمرة الخِلاف استعرت أكثر لتظل تمدنا بمتعةِ الدفء أو دفء المتعة. فجمرةُ خلاف المُبدعين خلاَّقة، كلما احتدمت ألهبت بطون قرائحهم فتجعلها تجودُ بأطايب الحِمَم الإبداعية. وكلما خمدت جمرةُ خلافهم، خبتْ نارُ الحراك، والعراك، والخلاف، والخصام، والاحتدام؛ وغدا إبداعُهم لقيط إبداع، وإمتاعهم شبيه إمتاع، وإصداراتهم ما هي إلا قراطيس وطئها قلم، فأنجبت نغلاً فكريًّا، حاملَ عارٍ، ساقِطَ نسبٍ.

قبل أن أنصرفَ، كحَّلتُ عينيَّ بصورة جدي لأبي، المُعلقة قبالة مقعدي، الذي رحل عنا حين اقترب الأسطولُ من سواحلنا، وإلى أسفل يمين صورة جدي صورة أبي، الذي رحل خلفَ والده بعد الغزو بشهرٍ واحدٍ وكأن قلبه لم يطق فراق والده، وعيناه لم تُطيقا

أن تريا بغداد حزينة، وإلى أسفل يسار صورة جدي صورة رأسين بجسدٍ واحدٍ لأخويَّ التوءم اللذين رحلا في تفجيرات المتنبي.. ولتكون الصور الثلاث شجرة نسبي، وهرم وجعي، ومثلث فقدي.

دعوتُ لهم بالرحمة، وألقيتُ عليهم سلامًا ردوه، وأمرتُ الجميعَ بالسكون، وألا يُفارق أحدٌ مكانه حتى لا يشق عليَّ العثور عليه، وليكفوا عن جلبة نقاشهم، وضوضاء سجالهم. مهددًا المُخالف بالعقاب الذي يعلمونه جميعًا، «المحرقة» فالتزموا بأمري بين الخوف والطاعة، فتركتهم وصعدت.

تزامن صعودي مع صياح الدِّيك الوحيد بعشة أمي، التي أنشأتها في أطلال الطابق الذي أصابه القصف! ودائمًا ما حدثتني نفسي: كيف لأمي أن تبني من أطلال الأسى أسباب العيش؟! أم أن كثرة الأهوال قد أفقدتها شعورها، وما تصرفاتها- التي أستنكرها- إلا اختلاجُ ذبيحةٍ سرقها نصلُ قصَّاب!.. كان صياح الديك تمهيدًا لقرب الفجر فشرعت للتجهز، وبينما أقضي حاجتي متأملاً السقف تسلل من غرفة أمي صوتُ المِذياع الذي لا تُطفئه قبل نومها، إن كان يزوها النوم! وكان الصوتُ حوارًا بين مذيعٍ يقرأ مسائل يدَّعي أنها أُرسلت للبرنامج، وفقيهٍ يستطيع أن يُفتي بمجرد سماع المسألة كأنه حفظ المسألة وفتواها عن ظهر قلب، وكانت المسائل تُصيب ما بين السُّرة والركبتين، من طائفة: ما حكم التغوط في الخلاء؟! ما حكم احتلام المتزوج مع غير زوجاته؟! ما حكم خطيب الجمعة

إذا نقض وضوءه على المنبر؟! هل يجوز الطلاق من عِنِّين؟! ما حُكم السَّبية؟! توقفت أذني عن الانتباه لباقي المسائل بعد السؤال الأخير، ووددتُ لو علمت ماذا يقصد بالسَّبية؟! أهي المرأة أم الخمر أم اللؤلؤة؟! وكيف لي أن أسأل عن معنى السَّبية في بلدٍ وطِئها الغزو؟!

نبهتُ من شرودي والفقيه يُجيب عن مسألة الخطيب، وكعادته يُسهب في الفتوى طرديًّا مع حماقة السؤال، وبدأ إجابته: يُروى في الأثر أن الملعون الثقفي خطب على المنبر يومًا فنقض وضوءه فاحتال على المُصلين..... شردتُ مجددًا في ذلك الفقيه وكيف له أن يلعن مسلمًا مثله لا يعلم حسابه إلا الله؟! وكيف له أن يستشهد بموقف لـ«ملعون» على حد وصفه؟! وما عدتُ من شرودي إلا على طَرَقَاتٍ على الباب وصوت أمي:

- عجِّلْ يا كاظم!

نفضتُ أفكاري، وأحجمت شرودي، ثم أسبغتُ وضوئي وخرجتُ إلى المسجدِ مبتور المئذنة جرَّاء القصف الذي طال حارتنا فأصاب أعاليها. الطابق الأخير من بيتنا قبل أن تستخدمه أمي في تربية الطيور وهي تردد بحرقةِ الأسف:

- ما أطيق يكون سطح بيتنا خرابًا! تعمره الطيور لحين يعمروه أولادك!

تأمل أمي بأن أطلال رجلٍ مثلي قد تُصبح يومًا سكنًا لامرأة! لتحدث المعجزة وينجبان أطفالاً يعمرون هذا الخراب! فمَن ذي الحمقاء التي ترضى أن تسكن في أطلال رجلٍ يعيشُ بين أطلال ذكرياته، تجمعهما مدينة شاخت بعد عنفوان صبا؟!

كما أصاب القصفُ غِية سيدي قَدور، بعدما هجرتها حمائمها منذ بداية القصف فمات حزنًا على حمائمه التي خانته وطارت، وبغداد التي خانته وسقطت! ولم تنجُ من القصف مئذنة مسجدنا التي رُممت قبل الغزو بثلاث سنوات فكانت الأعلى في الناحية.. وكنا نتفاخر بها وظلت قائمةً لسنواتٍ قبل أن تُصيبها دانة فتحوِّلها إلى وضع الركوع وتُكمل عليها معاول الهدم لتسجدَ سجدةً أبديةً لا قيام منها، ويتحوَّل هلالُ شاهدها من شاهدٍ إلى القبلة، إلى شاهدٍ على السقوط.

دخلتُ مع الإقامة، فصليتُ في ميمنة الصف الأوحد، بجوار شيخ حارتنا سنًّا، شديد الملاحظة لا يكف عن التعليق والتعقيب على أي شيء وكل شيء، وقليلٌ من سَلِمَ من لسانه؛ يحضر إلى المسجد في أوائل الحضور ليستقبل المُصلين الخمسة بلسانه حتى تُقام الصلاة، وما انتهت الصلاة حتى أكملَ هوايته في ملاحقة الخَلق وبدأ بالإمام.

- مبدل ثيابك يا عزوز! أي زوجاتك ضاجعت الليلة؟! خميسك أحمر.

فردَّ عليه الإمام دون مراعاةٍ لحُرمة مسجدٍ أو هيبة وقتٍ، وقد التمعت عيناه بنشوةِ الذكورة:

- لولا حزني على الفقيدة لضاجعتُ الثلاثة الليلة، لكن اكتفيت بالرصافية، فكانت ليلة فتى بين الفتيان، يلعب ويلعبون.

فطن الشيخُ لما يرمي له الإمام: تتمثل بقولِ ابن يوسف! لو كنتَ في زمنه لضرب عنقك لتشبُّهك به كالمُتشبهين بذي العِمامة.

قالها وهو ينظرُ ناحيتي ويمسحني بعينيه وأنا أهمُّ بالخروج: ليش عينك حمرا يا كاظم؟! نام يا ولدي نام، ريح حالك ونام! وسلم لي على جدك!

***

تناولتُ فطورًا خفيفًا مع أمي، ولم أصبر على شرب قهوتي المُعتادة معها، فاليوم الجمعة، موعدي الأزلي مع زيارة المتنبي في جمعته، ولا بد لمعدتي أن تزورَ مطاعم سوق السراي، ومشاريب الشابندر.

رغم أن مكتبتي التي ورثتها عن أبي التي ورثها عن جدي، وآلت لي بالتمام بعد استشهاد أخويَّ، عامرة بأمهات الكتب، وربما وجدتُ بها نوادر يشتاق القراء لمس جلدها، فإن زيارة المتنبي كل جمعة أضحت زيارةً مقدسةً حتى إن عدتُ منه صفر اليدين!

فهي عادة ورثتها، كما ورثتُ القراءة، مثل ما ورثتُ الكتب، صنو ما ورثت الحزن!.

شتان بين حارتنا فجرًا وحارتنا الآن، فمنذ ساعتين لم يكن يعلو صوتٌ فوق صوت الصمت والناس نيام إلا القلة التي داومت على الفجر، والآن لا أكاد أسمعُ أفكاري من فرط الصخب والناس كبُعثاء القبور! ولهذا فقد صاحبتُ الليل، ورافقتُ السهر، واعتدتُ السَّمر، وهويت الليل وظلمته التي تستر آثار الحصار، وبقايا الدمار في أطلال الديار، وخاصمت النهار بشمسه التي تفضحني أمام نفسي، وتكشف عورة بغداد أمام عيني، وعقدتُ معه اتفاقًا ألا نلتقي إلا على رأس كل جمعة!.

في الحافلةِ الخربةِ، التي تسيرُ على طرقٍ وعرةٍ، جلستُ بجوار نزار، مثبتًا بصري على ركبتي، فلم أعد أقوى على رؤية بغداد أرملة، مُتشحة بالسواد، مكتحلة عيناها بالحزن! حتى قطع نزار الصمت مُحدثني شِعرُه:

عيناك يا بغداد منذ طفولتي   شمسان نائمتان في أهدابي!

آه يا نزار! ألا ترى بغداد الآن وذبول عينيْها وشمسها التي كُسفت وطال كسوفها؟! ما ظنك بعيني فتاة فضَّ المُغتصب بكارتها؟! هل ترى عنفوان صبا في عينيْها؟! اصمت يا نزار، اصمت فنصْلُ شِعرك لا يُخطئ القلب؛ والقلب دامٍ من طعنِ نصالك! لكنه لم يصمت ونظر إليَّ بعينيْه الزرقاويْن وشَعره الميَّاس يميل على جانب رأسه:

بغداد عشت الحسن في ألوانه لكن حسنك لم يكن بحسابي!

أي حسن تقصده يا نزار وقد غدا الخرابُ السِّمة المميزة لحبيبتي؟! ألا تذكر بغداد جميلتي، منبت الحُسن، ومنبع البهاء؛ ألم ينعتوا الرجل المطرف، رغد العيش، حسن الملبس، طيِّب الطعام، صالح الحال بأنه «يتبغدد» نسبةً إلى أهل بغداد لما كان عليه حال عامة أهلها؟! ألا تذكر أن المُتفرد بالنعيم في البلدان كان الشائع العام في بغداد؟! أهذا حالٌ يفتخر الناس بالانتساب إليه الآن؟! اصمت يا نزار كفاك خرقًا لشغافِ قلبي؛ أو لا تصمت فقد أضحى حالي كما أشعرني صاحبُ مقصدي ذات يوم:

رماني الدَّهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ

فصرتُ إذا أصابتني سهام تكسَّرت النِّصالُ على النِّصالِ!

فقلْ ما بدا لك، فلا يهم الشاة سلخُها بعد ذبحِها.

كاد يُضيف بيتًا جديدًا لولا أن أتى شارعُ الرشيد واضطررتُ أنا للنزول وسمحتُ لنزار أن يرحلَ للقاء محبوبته التي تنتظره في مقهى كليب، ومضيتُ أنا متمهلاً إلى مضيق الثقافة، ممر المعارف، معبر العلوم، مُلتقى الإبداع، شارع المتنبي.

إن كنتَ عباسي الهوى فهو درب زاخا، وإن كنتَ من المُتفائلين فهو دربُ السعادة، وإن كنتَ عثماني الجوى فهو شارع الأكمكخانة، وإن كنتَ ممن يربط الشوارع بالمباني فهو دربُ المُوفقية، وإن رأيتَ صاحبه الذي ينتظرني على مبدئه فهو شارع المتنبي.

كعادتي منذ تفجيراتِ الخامس من آذار التي راح ضحيتها أخواي ولا تطأ قدماي الشارع إلا وتُعاد المشاهد أمام عيني. اليوم الإثنين نأتي للمتنبي على غير عادتنا يوم الجمعة، هما في المكتبة العصرية يبحثان عما ينقصهما، وأنا في القرطاسية أبحث عن ألوانٍ خشبيةٍ علها تستطيع تلوين الظلام الجاثم على كل ما أرى منذ رحيل أبي وجدي وسقوط بغداد! يعرض لي البائعُ بضاعته الشحيحة، منزوعة التنوع، معدومة الخيارات. فأختار ذات الألوان التي لا يوجد غيرها كل مرة، أدفع ثمنها الذي يزدادُ كل يوم، وما أفرغ من عدِّ النقود حتى يأتي صوت الانفجار قريبًا! لا شك أنه بالشارع. فرغم أننا اعتدنا التفجيرات فإن المتنبي كان في منأى عنها فمنذا الذي يُفكر في نسف شارع ثقافي؟! ويا لغباء سؤالي! أليس أول ما ينسفه المُحتل هو ثقافة الشعب الذي احتله؟! ليظل مُحتله حتى وإن رحل عن أرضه! فالأرضُ تُستصلح في ساعات والبذرة تنبت في أيامٍ وتطيب الزرعة في شهور، الطرق تُمهد في ساعاتٍ، المباني تُشيد في أيام، المصانع تُقام في أسابيع، يمكن أن تُعيد الكهرباء، والمياه، والغاز، والاتصالات في شهور. لكن أن تبني ثقافة، أن تُشكل وعيًا، أن تكوِّن هوية، أن تُصلح نفسًا، أن تُقيم فكرًا، أن تُشيد وجدانًا، أن تُنشئ إنسانًا.. فهذا يحتاجُ لسنواتٍ.. من السهل أن تملك وطنًا، لكن أضحى صعبًا أن تملك مواطنًا.

كان صوتُ التفجير آخر ما وعيته قبل أن أفيق بعدها بثلاثة أيام لأواجه فاجعة رحيل أخويَّ ولم يتبق من عائلتي سوى أمي التي

غيَّرتهـا المصائـبُ فباتـت تفـرح بمـن يرحـل وتحـزن علـى مـن عـاش وكأنهـا لا تريـد لنـا أن نتنفس هـواء الخـراب وأن تـرى عيوننـا بغـداد حزينـةً، وكأنهـا تـرى فـي موتنـا شـفاء لنـا مـن حيـاة الانكسـار التـي نحياهـا، فالمـوتُ فـي عـزة أزكـى مـن العيـش فـي ذل.

قطـع شـرودَ ذكرياتـي صـوتُ أبـو الطيـب وهـو يجذبـي مـن ذراعـي لينتحـي بـي جانبًـا بعدمـا كاد حمَّـال كتـب يصدمنـي بعربتـه؛ ومـا أن نظـرت فـي عينيْـه بعدهـا حتـى قـرأ مـا كانـت تُحدثنـي بـه نفسـي، فحدَّثنـي شِـعره: كفـى بـك داء أن تـرى المـوت شـافيًا؛ وحسـبُ المنايـا أن يكـنَّ أمانيـا! هـل تحسـبني حيًّـا يـا أبـا الطيـب؟! أنـا مـتُّ يـوم مـات جـدي، مـتُّ يـوم مـات أبـي، مـتُّ يـوم استُشـهد أخـواي، مـتُّ يـوم سـقطت بغـداد.

سرتُ وسـار جـواري والصمـت ثالثنـا، اليـوم يـوم الجمعـة والشـارع مكتـظ بمريديـه، وجلبـة القـراء تقطعهـا أصـواتُ الباعـة بيـن الحيـن والآخـر لتلفـت انتبـاه المـارة إلـى مكتباتهـم مبقـورة البطـن التـي افترشـت الأرصفـة، والكتـب عانقـت الأرض، ولا عـزاء لوطـنٍ يصـون الأحذيـة ويُهيـن الكتـب! حكـى لـي أبـي ذات يـومٍ أن أحـد كبـار مؤرخـي العـراق علـم أن أحـد كتبـه يُعـرض فـي المتنبـي علـى الأرض فسـارع فـي شـراء كل النسـخ المُتاحـة منهـا! معلـلاً أن مثلـه لا تُبـاع كتبـه فـي بسـطاتٍ علـى الأرض!

لكزني أبو الطيب حين سمع أحد الباعة يتمثل بشعره ليجذب المارة إلى معروضاته، فسمعتُ شطر البيت: وخير جليس في الزمان كتاب. فتبسمتُ لأبي الطيب بعدما رأيتُ لمحة الزهو في عينيه وكأنه في حاجة لمزيدٍ من الشهرة! ألا يكفيه بيته المنقوش على قوس مدخل شارعه: الخيل والليل والبيداء تعرفني؛ والسيف والرمح والقرطاس والقلم. ألا يكيفك أن كل هؤلاء يعرفونك يا أبا الطيب حتى تختال لذكر أبو جاسم لشعرك؟!

اتجهنا لبسطة أبو جاسم لنرى ما عنده فما إن اقتربت منه حتى حيَّاني باسمي؛ فكثرت ترددي على الشارع وحادثة التفجيرات قد أكسبتني صيتًا لا يُستهان به في الشارع، ومعرفة لا بأس بها مع الباعة تجعلهم يوفرون لي ما أحتاج من نوادر ويحتفظون لي بجديد الإصدارات قبل نفادها.

- حيَّا الله من جانا.

- حيَّاك الله، يا سيدي، أيش لونك؟!

- نحمد الله، إلك عندي مفاجأة، إن شاء الله تسرك؟

- هات لشوف!

أخرج من تحت البسطة رزمة من الكتب، ملفوفة بدوبارة، تبدو بحالةٍ جيدةٍ وكأن مَن باعها لم يقرأها يومًا! ففطن سيدي أبو جاسم لنظرتي وكعادة البائعين استرسل:

- الله يرحم صاحبها، أخذها مني من ثلاثة شهور، وما أمهله القدر حتى يقرأها، ومن يومين جابوها لي الورثة مع باقي مكتبته تنفيذًا لوصية المرحوم، قال لهم وصلوها لأبي جاسم وهو هيصرفها، وزعت كل كتبها على البسطات جواري وحجزت لك السبعة أعمال هدول.

فكَّ الدوبارة، وبحركةٍ مهنيةٍ صفَّ الروايات أمامه على البسطة، مستعرضًا إياها، فكانت كلها من أعمال الراحل جرجي زيدان، منها رواياتٌ تحمل أسماء شخصيات مثل: عبد الرحمن الناصر، أبو مسلم الخراساني، الحجاج بن يوسف، أحمد بن طولون؛ والباقي روايات تليق ببلدٍ مثل العراق منها: غادة كربلاء، العباسة أخت الرشيد، الأمين والمأمون. فحملتها ورحلتُ بعدما رفض أن يأخذ ثمنًا لها لأنها- على حد تعبيره- صدقة.

في الشارع الفاصل بين بناياتٍ متشابهة الطراز، متساوية الارتفاع الذي لا يزيد على ثلاثة طوابق، متماثلة اللون، أصفر مائل للبياض كان يومًا دليل بهجة قبل أن يصبح دليل مرض! أكملنا مسيرنا على أرضيةٍ ممهدةٍ ببلاطٍ متراصٍّ يحمل نفس لون البنايات، في محاولةٍ بائسةٍ لتفادي الاصطدام بالمارة، لأن أبو الطيب ما زال محتفظًا بعادته في السير في منتصف نهر الشارع، كمالكٍ يتفقد ضيعاته يصرُّ على السير فوق الخط الممتد في وسط الشارع المُكون من بلاطتين متجاورتين داكنتي اللون، مما يجعلني أتحمل

الاصطدام وحدي حتى يشق عليَّ الأمر فأخرج من نهر الشارع منحدرًا نحو الأعمدة الدائرية البيضاء المتراصة على جانبيْه أسفل البنايات، متسللاً خلف ظهر بسطات الباعة أستطيع السير فيها دون جهدٍ حتى نصل إلى الجهة المقابلة لمقهى الشابندر بحلقٍ جاف ومعدةٍ خاويةٍ، فأعبر الشارع إلى عربة العصائر الطبيعية الرابضة أمام المقهى فيعصر لي البائع برتقالة أرتوي بها، ثم أدلفُ إلى سوق السراي لأخرس تغريد عصافير بطني ثم أعود لأجلس على الشابندر أو مقهى الشهداء! بعدما كانت بغداد النخيل أضحت بغداد الشهداء، لم يعد فيها بيتٌ يخلو من شهيدٍ حتى أصبحت الشوارع والمعالم بأسمائهم وهم أحياء عند ربهم ونحن موتى بين ذكراهم، حتى الشابندر أصبح مقهى الشهداء! بعدما كان مقهى كبار المحامين لقربه من المحاكم، وكبار المثقفين لوجوده في المتنبي أصبح الآن مكانًا مثاليًّا لتسجيل الأفلام الوثائقية! والحديث عن بغداد يوم أن كانت بغداد،

ما أقسى الماضي حين يفوق الحاضر، وما أحزن الأماكن حين تكون الشاهد الوحيد على حضارة مرَّت من هنا يومًا ما.

جلستُ في مقعدي المُعتاد، فلم يعد العثور على مقعدٍ خالٍ بالأمر الصعب، وأشرتُ للمتنبي أن يجلس فرفض بعزة مُضيف يقف على خدمة ضيوفه، حتى جاءتني قهوتي فشربتها على الطريقة الجبرانية، وأنا أستمع لمسئولٍ شابَ شَعره يتحدث عن خطط

الإعمار! هل تعود الثيب بكرًا؟! تحدَّث المسئول بتلك العبارات المحفوظة عن الخطط الطموحة، والوحدة الوطنية، والعراق الجديد، والقيادة للشباب! إذا كانت القيادة للشباب فلمَ يضع الشيوخ الخطط؟! أهكذا يكون الشباب قادةً أم دُمى خشبية يُحركها الشيوخ بفكرهم الذي شاخ؟!

من ركنٍ قصي في الشابندر صاح أحدهم ذو عاهة تبدو أنها إصابة حرب:

- لا إعمار والعراق منقسمٌ والأمان مُنعدم.

قالها كأن المسئول يستمعُ له رغم المسافات التي تفصلهما، مسافات من الفكر، فالمسئولُ رجل أعمال سابق والصائح مثقفٌ من مرتادي المتنبي؛ مسافات من الرؤية، فالمسئول يرى المشروعات والصائح يرى العراق؛ مسافاتٌ من الأهداف، فالمسئول يرى الأرباح والصائح يرى الإنسان؛ مسافاتٌ من الوطنية والشرف، فالمسئول تحوم حوله الشبهات والصائح لا شك أن عاهته إصابة حرب؛ مسافاتٌ من الأرض فالمسئول في مكتبه والصائح في الشابندر.

حين لم يلتفت له المسئول، دفن وجهه في الكتاب الذي كان يقرأه قبل أن يُجيبه أحدُ رواد المقهى رفعًا للحرج وإن خالفه! فعلى كل حال الخلاف أفضل من التهميش:

- لا إعمار ولا أمان بعد أبو عدي، زمن العراق قد ولى من بعده ولن تقوم لنا قائمة.

فردَّ عليه وقد انتفخت أوداجه:

- أمان! أي أمان مع البطش والقمع وتكميم الأفواه ونسف المعارضة؟! الأمان أن أصيح للذئب في وجهه، يا ذئب عواؤك يزعجني، لا أن أكن في بيتي والذئب يعوي تحت نافذتي! صدام هذا كان حجَّاج زماننا، وكأن لكل زمنٍ في العراق حجَّاجًا!

- وما عاب صدام أن يكون الحجاج؟! ألم يكن الحجاج يتمثل بزياد بن سمية؟! ألم يكن زياد بن سمية يتمثل بعمر بن الخطاب؟! ألم يكن عمر بن الخطاب فاروق هذه الأمة الذي قال: لو عثرت بغلة في العراق لسألني الله عنها؟! انظر كيف كان يخشى أن تتعثر بغلة هنا وهو مُقيم في الحجاز، وانظر لحالك الآن وقد بُترت إحدى ساقيك ولم يسأل فيك أحد، وأنت والرئيس في ذات المدينة!

صمت الصائغُ وتحسس ساقه المبتورة، ودفن وجهه في الكتاب مجددًا، فيما كنتُ أنهيت قهوتي وخرجتُ أنا والمتنبي لنُلقي السلام على دجلة، خرجنا من المقهى وخطونا عشرات الخطوات حتى التقينا بدجلة الحزين، وقد خرج المتنبي عن صمته مُحدثني بذات شِعره كل مرة نرى فيها دجلة معًا:

يا روح دجلة للأرواح مالكة تبكي عليك عيون قل ما تنم
تبكي عليك عيون غاب بؤبؤها وذي سيوف لطعم الطعن تلتهم

كل مرة أواجه فيها دجلة كأني أواجه قبر عائلتي، وكأن سلامنا أصبح يلقي دمعًا، تنحدر العَبرة على خدِّي، فيرد النهر السلام بدموعٍ تجري، يراها الناس ماء وأراها أنا دموعًا!

ربت المتنبي على كتفي وهو يجرني للعودة إلى الشارع، مخبرًا إياي بما أخبرني به مرارًا: أنا رحلت عن بغداد مُكرهًا، وبغداد التي تعرفها رحلت عنك مكرهة. ومضينا لداخل الشارع حتى وصلت إلى القرطاسية فاخترت أقلام فحم، ولوحات رسم بدلاً لتلك التي نفدت، وودَّعت المتنبي الذي عاد ليثبت مكانه بعدما تبادلنا سلامنا الخاص.

أبلى الهوى بدني أبلى الغزاة وطني

وودَّعت الشارع وداع المُفارق العائد إليه بعد حين، وأرجو أن أعودَ له وهو باقٍ على حاله وعُدت لحارتي والجمعة قد حان وقتها فشرعت في التجهز للصلاة.

***

الجمعة هي الفرضُ الذي يؤديه أغلبُ رجال حارتنا على مدار الأسبوع، أما باقي الأيام فالمسجدُ مُحرَّم عليهم حُرمة المسجد الحرام على الكفار، وكأنهم دخلوا الإسلام باستثناء ركن الصلاة إلا الجمعة! اكتظ المسجدُ بالمُصلين واعتلى الشيخ عزوز المنبر وبعد ديباجته التي حفظها أهل الحارة، لأظن أن جنود الاحتلال حفظوها عنه من فرط تكرارها! دخل في موضوع خطبته وكان عنوانها يليق بمن مثله وهو رجل تحته أربع نساء، ماتت عنه زوجته الرابعة بالأمس القريب ويبحث عن عروسٍ جديدةٍ وكأنه سيارة لا تسير إلا على أربع!

ما إن علمت أن خُطبته عن «حُسن معاملة الزوجة» إلا واستعرت انتباهي الذي كنتُ قد أعرته له، فلا حاجة لي في معرفة قانون لا أنوي أن أستخدمه! بيد أنه يستخدم هذه الخطبة كطعم لاصطياد عروسٍ جديدةٍ، فأنا أذكر جيدًا أن هذه الخُطبة تحديدًا سبقت كل زواجاته الماضية، وخطبة بعد الزَّفات لا بد أن تكون عن «حقوق الزوج» وأضحى مسجدنا منصة إعلامية يروج فيها الشيخ عزوز لنفسه ويُدير منها شئون بيوته! وبقيت شاردًا حتى مرَّ من جانبي متخط للرقاب فانتبهت على صوت الشيخ عزوز وهو يزعق: والله يا إخوة حتى الطاغية المُبير ابن يوسف رغم جبروته وقوة بطشه وتعطشه للدماء كان يُداعب زوجته حتى يُقبل أخمص قدمها! مَن أنتم حتى تتعالوا على زوجاتكم!

رمى طُعمًا شهيًّا وما بقي للفريسة إلا أن تقترب، وما بقي له إلا أن يدعو آملاً أن تكون ساعة إجابة، ولم ينس نفسه من الدعاء ليحظى بتأمين كل المُصلين، وفي غالب ظني أن فريسة ما ستُزف له بعد ليلةٍ أو ليلتين ليخطبنا الجمعة القادمة عن حقه كزوج، ولم ينس في صلاته أن يقرأ بنا مطلع سورة النساء ويُكبر قبل أن يصل ﴿وإن أردتم أن تعدلوا فواحدة﴾، وفي الركعة الثانية قرأ بنا ﴿يا نساء النبي﴾.

***

رغم لقائنا اليومي فإني عهدت بزيارتهم كل جمعة، أخرج من المسجد إليهم رأسًا، أجلسُ على رأس قبورهم لأقص عليهم ما جرى لي خلال الأسبوع رغم أنهم يعرفونه وعاشوه معي! لكن متعة الحديث معهم تجعل من ذات الحديث حديثًا، ومن نفس الكلام كلامًا، ولمعنى القول أقوالاً، ولو حدثتهم حديثي ألف مرة ما ملوه، ولو عادوا عليَّ ما أحفظه لسمعته كأني أسمعه أول مرة!

مكثتُ أحدثهم بما في نفسي حتى حان العصر، فصليته في الزاوية المُجاورة لحوش المقابر وعُدت إليهم وقرأت الكهف أمام قبرهم، وودعتهم وداعًا لا فراق فيه، فإن كانت أجسادهم في بطون الدود فما غاب عني أثرهم، وإن كانت القبورُ تُخفي الأثر لما بقي أثر الحجاج رغم أن الماء أُجريت على قبره!

***

الحَجَّاج

-1-

ما زلتُ أذكر يوم خروجنا إلى مكة، كأن الرحلة بالأمس القريب وتفاصيلها لا تزال راسخةً في خلدي، فرغم قرب المكان فإن طقسها مختلفٌ تمامًا عن الطائف، لم نركب الصحراء سوى ليلةٍ واحدةٍ لكنني أشعر أني انتقلت من الربيع إلى الصيف بغتة! فشمس مكة وغرة، وهواؤها راكدٌ يلبد على الصدر كريم البئار. هل حقًّا ما قصته لي أمي عن نشأة الطائف والسر وراء جوِّها الرهيف وأن جوَّها نفحة إلهية من الرحمن، وأنها قرية من قرى الشام والأمين جبريل اقتلعها وحملها على جناحيْه الكبيريْن وطاف بها حول الكعبة لذلك سُميت الطائف وفي جوِّها أقرب إلى جوِّ الشام؟ فما الغرابة من تشبه الابنة بأمها؟! أليست الطائف بعضًا من الشام؟! ما الشام وأين تقع؟ أسمعُ كثيرًا ذكرها وأتمنى لو زرتها. لكنها على

مسيرة أيامٍ وليالٍ نحو الشمال، يقضي أبي في رحلاته إليها ما يقرب من الشهر ذهابًا ومكوثًا وإيابًا. تقول أمي إن بها بيتًا كبيرًا يقطنه الخليفة يُسمونه قصرًا وبها معسكراتُ الجند التي يتدربون فيها على القتال والفروسية ومنها تنطلقُ الحملاتُ لفتح البلاد ومناهضة الخارجين عن الطاعة، كما يردد أبي أن من شق عصا الطاعة وجب قتله وأن طاعة الخليفة وولاة الخليفة هي طاعة لله.

لكني أميلُ لتصديق رواية أبي عن الطائف وأنها سُميت بهذا الاسم لأن جدودنا الأوائل طافوا حولها بسورٍ عالٍ من الأحجار الضخام ليُحصنوها من غارات الأعداء، وأظن أطلال الخرائب التي كنا نلعب عندها ونتمثل بالفرسان الشجعان الذين نسمع عن فتوحاتهم هي أقرب إلى أطلال ذلك السور المزعوم!

كنتُ أعتلي حجرًا ضخمًا من أنقاض هذا السور وأنادي في الصبيان الذين يلعبون بصحبتي متمثلاً بالقائد السفاك بُسر بن أرطأة الذي أرهب الحجاز بكامله حتى فرَّ منه صحابة رسول الله! كنتُ أصهلُ فيهم كما صهل بُسر: «يا دينار، ويا نجار، ويا زريق، شيخي شيخي! عهدي به بالأمس، فأين هو؟! يا أهل المدينة، والله لولا ما عهد إليَّ معاوية ما تركت بها محتلمًا إلا قتلته». فكان الصبية يمتثلون لي ويرددون معًا: «السمع والطاعة لأمير المؤمنين»، وكنتُ أستقبل بيعتهم في شموخٍ من على الحجر العالي مدققًا فيهم النظر ولأرهبهم حتى لا يخرجوا على طاعة أولي الأمر أصيح فيهم بصوتٍ

جهيرٍ: «والله لو بلغني أن أحدكم خاطره خاطر بالخروج عن الطاعة لنحرته كما نحر بُسر بن أرطأة الطفلين في اليمن».

يا حيرتي! ما لي أسهب في ذكرياتٍ لا حصر لها؟! ولم أستقر لروايةٍ بعد! فطبيعة الجو وعيون الماء وطعم الثمار وعليل الهواء يُرجح رواية أمي؛ وطبيعة الآثار وبقايا الأطلال تُرجح رواية أبي. على كل حالٍ هي الطائف وموطني ومنشئي سواء طافت هي أم طافوا حولها.

ما تلك الخواطر يا نفسي؟!

أنا أتيتُ إلى هنا لطلب العلم والتفقه في الدين، ولن يشغلني عنهما شاغلٌ. زعم أبي أن مكة بها صحابة رسول الله وهم أعلم الناس بحديثه وأفقههم في الدين، عليَّ الآن بعدما أتممت حفظ كتاب الله على يد والدي أن ألزم حلقات العلماء لمعرفة تفسيره وأسباب نزوله، وأن أسمع عنهم أحاديث رسول الله، وقد تركني أبي هنا في بيتٍ قريبٍ لنا وعاد للطائف بعدما وعدني أنه سيعودُ كل بضعة أهلة ليطمئن عليَّ.

***

ما أطولها من ليلةٍ كانت ليلتي الأولى في مكة بعدما تركني أبي وعاد، تململتُ في الفراش كثيرًا وغزال النعاس شاردٌ عني فلم

يقترب مني قط، فقمتُ متحسسًا موضع السراج الصغير المتواجد بغرفتي لأضيئه من جذوة الجمر التي كانت في طريقها للخبوت فنفخت فيها حتى استعرت وأضأت ذبالة السراج منها وجلستُ بالقرب منه أراجع في مصحفي الذي جلبته معي من الطائف حتى فُتح عليَّ الباب وهلة:

- ألم تنم يا حجاج؟ أظن روحك لم تألف المكان بعد، ستعتاد يا بني.

- زارني الأرقُ فنهضتُ أراجعُ قرآني حتى يرحل.

- أو لا يرحل. نحن في الهجيع الأخير من الليل وقد دنا الفجر فلتتجهز للصلاة، وبعد الصلاة تُرابط أمام بيت شيخك.

- ومن هو؟

- الحبر.

***

صليتُ الفجر مع مَن صلى في الحرم، وصحبني قريبي هذا وخرجنا من بابٍ يُسمونه باب بني جُمح، مشينا مثلما مشى معظم المُصلين في محاذاة الحرم قاصدين بيت الحَبْر، أذكر أني كنتُ أصغر القاصدين سنًّا وجسمًا، فالغالبُ على سيماهم أنهم في

العشرينيات من العمر، أما أنا فكنتُ في العاشرة حينئذ. كانت أمام البيت ساحة واسعة تفصله عن الحرم بها بعضُ الذين سبقونا وما قرَّ العدد أن تزايد أضعافًا حتى ملأنا الساحة والطرقات المؤدية من وإلى المنزل وكأن كل من بالمسجد قصد مقصدنا!

تركني قريبي ورحل على وعدٍ باللقاء في المسجد وقت الصلاة التالية، وقتها أدركتُ أن عليَّ تدبير أمري، فأيام الطائف برغدها وغضارتها قد ولت، فاستخدمتُ نحولة جسدي وصغر حجمي في التسلل بين الصفوف حتى اقتربتُ من الباب واحتفظتُ بمكاني هذا لأكون أول الداخلين حين يفتح.

طال الانتظار وبدت أشعة شمس مكة في الظهور ولم يُفتح الباب بعد! وكل من حولي مشغولٌ بنفسه. ففيهم من يُصدر طنينًا كدويِّ النحل أظنه يقرأ القرآن، وفيهم مَن يُحرك شفتيْه بصمتٍ أظنه يُردد الأذكار، وعلى مقربةٍ مني شابان يراجعان سند حديث، وجماعة مختلفون في مُعضلة إرث. لكن يبدو عليهم جميعًا ألفة الانتظار وكأنهم عادوا الأمر فاعتادوه.

قطع هذا الانتظارَ الثقيلَ على قلبي، المُعتاد على من حولي، صوتُ منادٍ من غير الطريق الذي جئتُ منه يُنادي أن أفسحوا الطريق فالإمام قادمٌ. كان هذا النداء كبوق الحرب فكل من كان جالسًا على حَجر أو جذع نخلة قد هبَّ واقفًا، وكل من كان مُسدلاً

لعمامته هندمها، وكل من كان متراخيًا انتصب، وكل من كان مستظلاً بجدار الحرم اقترب، وبطريقةٍ مُتمرسة تحرَّك الشباب حتى فتحوا ممرًّا يصل بين بداية الطريق والباب الذي أقف عنده فوجدتُ نفسي في نهاية هذا الممر ويد ما تجذبي كي أخليه، لكني تشبثت بجذعٍ بارزٍ من الجدار وعدَّلت من مكاني يسيرًا محتفظًا بقربي من الباب.

قدم الحبر ماشيًا من بابٍ يُسمونه باب بني هاشم بسكينةٍ ووقارٍ، هيبته تسبقه بحق، كان طويلاً مهيبًا وجهه أبيض مستدير مُشرَب بحُمرة، حين مرَّ من أمامي شممتُ رائحته الزكية الهادئة التي لم أشم مثلها من قبل رغم كل الروائح التي كانت في بيتنا والتي كانت تأتي لأبي من مصر والشام وفارس والحبشة والهند.

دخل الحَبْر وأغلق الباب من خلفه وعُدنا للانتظار من جديدٍ وملامح مَن حولي تُوحي بأن الانتظار سيدوم طويلاً، وقد كان. حتى فُتح الباب على مصراعيْه فكنتُ أول الناظرين إلى داخل البيت، فكان الحبرُ جالسًا في صدر الدار على مقعدٍ مُغطى بمفرشٍ منسوجٍ من الصوف وعلى وجهه آثار الوضوء وكأن ما سمعتُ عنه صحيح أنه يتوضأ قبل كل مجلس علم.

وقف رجلٌ ضخمٌ على الباب حتى سدَّ أحد مصراعيه ونادى في الناس: مَن يريد أن يسأل عن القرآن وتأويله فليدخل. فبدأ

يأتـي مـن كل اتجـاهٍ شـاب أو شـابان ودخلـوا تباعًـا حتـى مـلأوا البيـت ولـم أعـد أرى الحبرَ مـن أجسـامهم المُتلاحمـة لكـن صوتـه لـم ينقطـع عنـي وبـدأتُ أسـتمع لمـا يسـألونه وأسـتمع لإجابتـه، فـكان كلمـا سـأله أحدهـم سـؤالاً أجابـه وزاد وأفـاض كأنـه بحـرٌ لا ينضـب. وظلـوا هكـذا حتـى اسـتوقفهم مُسـتكفيًا إياهـم بهـذا القـدر. فخرجـوا تباعًـا وظـل جالسًـا علـى حالتـه. فنـادى المُنـادي مـن جديـد: مَـن يريـد أن يسـأل عـن الحـلال والحـرام فليدخـل. فدخـل بعـضُ الشـباب كمـن قبلهـم وأنـا اسـتمع لأسـئلتهم وأجوبتـه حتـى اسـتوقفهم وخرجـوا. ونـاى المُنـادي مـن جديـدٍ: مَـن يريـد أن يسـأل عـن الفرائـض فليدخـل. ثـم نـادى عمـن يريـد أن يسـأل فـي اللغـة والشـعر. وأنـا واقـفٌ بالبـاب مكتـفٍ بـدور المُسـتمع الصمـوت، مشـدوهًا بهـذا الحَبـر البحـر الـذي جمـع العلـوم ولـم يُرهقـه سـؤالٌ قـط، فلـم أجـرؤ علـى الدخـول عليـه ولـم تطاوعنـي قدمـاي فـي المغـادرة حتـى انفـضَّ كل مَـن بالسـاحة ولـم يبـقَ سـوى متسـمرًا بالبـاب، فسـألني الرجـلُ الـذي قـام بـدور الحاجـب لمَّـا لاحـظ حالتـي:

- هيـه يـا غـلام، لقـد انفـضَّ المجلـسُ ولـم تدخـل ولـم ترحـل، ألـك حاجـةٌ غيـر ذلـك؟

- أنا غريبٌ ولم أعتد هذا النوع من مجالس العلم بعدُ.

يبـدو أن الحَبْـر سـمع حديثـي فسـمعتُ صوتـه مـن خلفـي يريدنـي،

فتشبثت قدمي بالأرض كأنها شُلت من هول المفاجأةِ فجاهدتُ حتى حركتها سيرًا في اتجاهه حتى وقفتُ على مقربةٍ منه مرتعشًا من هيبته الطاغية رغم وجهه البشوش الحاني، حتى تذكرتُ الأطفال الصغار في كُتاب أبي في الطائف وهو يستمع لحفظهم وهم يتلعثمون من فرط الخوف:

- من أي البلاد أيها الغلام الغريب؟

- من الطائف.

- هه، وما الطائف ومكة إلا بلدٌ واحدٌ على طرفيْ الكرا. ما اسمك؟

- الحجاج بن يوسف الثقفي.

- مُعلم الصبيان؟

- بل وسيد ثقيف، ومن سادات الطائف.

- مِن قبيلتكم رجلٌ من القريتين عظيم.

- بل هو جدي، فأمي الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي.

- إنك لمُلسن رغم حداثتك، فلماذا لم تسأل في العلوم مثل من سبقوك؟

- اكتفيت بوعي ما سأل السابقون، وبقي لي سؤال: كيف أصبت هـذا العلم؟

- بلسانٍ سؤول وقلبٍ عقول.

***

خرجتُ من مجلسه كما لو وضعتُ يدي على سر العلوم، فلا فائدة من تساؤلات النفس إن لم تجد مَن يُجيبها، فتبيت حيرى بين ظمأ السؤال وارتواء الإجابة! ولا فائدة للإجابة إن لم يلمسها قلبٌ ويُدركها عقلٌ، فقد تكون لتساؤلات كل منا إجابات مشرقة. لكن فجر عقله لم يبزغ بعد! فيبيت ضال الإجابة وهي بين يديْه! حتى يفتح الله عليه مغاليق الاستنباط.

كان هذا منهجي الذي اتبعته من بعدها، فلم أجد فرصة لسؤالٍ إلا سألتُ ولا مجلس حوار إلا حاورت، حتى الجدال خضتُ فيه كي أكسب نفسي براعة المحاجة والجدال وأمرن لساني على الطلاقة. فتبًّا لصمتٍ منع علمًا، وتبًّا لخوفٍ حصر لسانًا. ألا لعنة الله على طالبٍ خجولٍ وعالمٍ ضنينٍ.

في طريقي عائدًا إلى المسجد وجدتُ جماعة من الناس يقفون وفيهم ممن كان في مجلس الحبرِ فحسبتهم ينتظرون مجلس عالم آخر لم أسمع به، وكان هذا أول تطبيق لمنهجي. فدخلت وسألتهم

أي عالمٍ ينتظرون، فأخبرني أحدهم أن هذا بيت عبيد الله بن عباس وهم ليسوا طلاب علم بل طلاب طعام وصَدَقات. فعبد الله يُجيب طلاب العقل وعبيد الله يُجيب طلاب البطن، لكن أليس هذا بيت عبيد الله الذي كان واليًا على اليمن سنة مولدي حين داهمها بُسر بن أرطاة ووجد طفليْه فذبحهما؟! ألم تحبسه الفجيعة عن الجود؟! آه آه.. لله در أبنائك يا ابن عبد المطلب، لإن آتاني الله المُلك لأصنعن موائد ما سبقني إليها أحد.

***

حين وصلتُ الحرم كان وضوئي قد نُقض كعادتي دائمًا، فكما أخبرني أبي أني وُلدت لا مخرج لي فذهب بي لابنٍ للحارث بن كلدة طبيب العرب في عصره الذي درس علومه الطبية الأولى في جنديسابور، وكان قد أخذ بعض علم والده ولديه المتن الأصلي الوحيد لكتاب «المحاورة في الطب» الذي خطه والده من محاوراتٍ بينه وبين كسرى؛ ففتق لي مخرجًا باستخدام مبضعٍ حادٍّ حُمي في النار، وسلك شرجي بفتيلٍ مغموسٍ في الدهن حتى أخرج ما في جوفي، ثم وصف له بعض الأعشاب المُثبطة لحركة الأمعاء لمدة يوميْن حتى يلتئم الجرح. فيبدو أن أثر الجراحة أصاب عصب الشرج القابض، فكنتُ لا أتحكم في فساء ولا ضراط وأجدد الوضوء كل صلاة. لذلك دخلت إلى ميضأة المسجد وجددتُ وضوئي من ماء زمزم المُبارك ومكثت أنتظر صلاة الظهر وحتى يأتي مضيفي

لنعـود معًـا إلـى بيتـه، فأنـا مـا زلـتُ حديـث عهـدٍ بطرقـات مكـة ولـم آلفهـا بعـد.

مـن قبـل وقـت الصـلاة بـدأ توافـد المصليـن فـرادى للحـرم، فيهـم مـن طـاف وفيهـم مـن جلـس يذكـر اللـه، وجلسـتُ أنـا أملـي النظـر فـي الكعبـة، حكـى لـي أبـي أن هـذا ليـس بناءهـا الفعلـي وأن القرشـيين الأوائـل أعـادوا بناءهـا ورفعوهـا ثمانيـة عشـر ذراعًـا، لكـن قصـرت بهـم النفقـة فنقصـوا مـن طولهـا عـدة أذرع! ولا أعلـم لمـاذا لـم يُعيدهـا علـى أصلهـا أي مـن الخلفـاء حتـى الآن رغـم مـا فتـح اللـه عليهـم مـن بـركات الأرض؟! ألـم يكـن إعمـار مقدسـات الديـن أولـى مـن قصـور الدنيـا؟! لإن أضحـى الأمرُ بيـدي لأعيدهـا علـى حالهـا الأول. فـلا خيـر فـي كمـال الجـاه والمـال وبيـت اللـه منقـوص.

حيـن أذَّن المُـؤذن للصـلاة توافـد المصلـون جماعـاتٍ، وكانـت عينـي مُعلقـة بالبـاب الـذي دخلنـا منـه فـي صـلاة الفجـر لأنـه مـن الراجـح أن يأتـي منـه قريبـي هـذا، وبالفعـل لـم يخـب ظنـي، فقـد أتـى منـه وسـرعان مـا ذهبـتُ إليـه والتقيـتُ بـه.

صلينـا معًـا وخرجنـا، أخبرنـي أننـا لـن نعـود للبيـت مباشـرةً وأننـا سـنمر علـى بعـض الحوانيـت لشـراء بعـض حاجـات البيـت؛ فمشـينا هوينـى نجـوبُ الطرقـات حتـى تفتـح الحوانيـت بعـد الصـلاة، وليُعرفنـي علـى أرجـاء مكـة؛ كانـت الطـرقُ ممهـدةً وخاليـةً مـن الزحـام لأن أكثـر

أهل الجوار يُصلون في الحرم فما شعرنا إلا بمرورنا أمام دار الولاية على طرف مكة، فسمعنا صليل جرس قادمًا من بعيدٍ فنظرنا فإذ بالأفق جَملٌ أبيض عليه راية زرقاء يعدو في اتجاه دار الولاية، قال لي قريبي الراية الزرقاء هي راية ديوان البريد وأن هذا جمل البريد ولا بد أنه أتى بجديدٍ! فلننتظر لنعرفَ ما قدم به، لكن الانتظار طال دون خبرٍ. فمضينا إلى باحة الحوانيت لنشتري ما يلزم وفي المساء سيجتمع الرجال في نادي الشِّعر وسيكون الخبر قد أتى. هكذا أخبرني قريبي وهكذا صبَّرتُ شغفَ نفسي.

عُدنا إلى البيت وتناولتُ طعامًا يسيرًا ودخلتُ غرفتي، وبقي قريبي وزوجته في الخارج. فلا يوجد سوانا في البيت، فقريبي هذا شيخٌ كبيرٌ وزوجته عجوزٌ عقيمٌ وكان سكني معهما بمثابة الولد الذي لم يُنجباه.

كنتُ مُنهك البدن، خائر العضد، رأسي تصدَّع وعظامي تضبح من قلة نومي ليلة أمس ووقوفي منذ الفجر حتى الظهيرة في مجلس ابن عباس لا سيما تجوالي في طرقات مكة من بعد الصلاة. فبدا الفِراش الذي مللته وضجرته بالأمس مغريًا ومريحًا، في العادة النوم لذيذٌ، لكن عن بُغية يكون ألذ. كما سمعتُ ذلك الهُذيلي ذات مرة وهو يقول: لِتُصيبَ أطايب اللذات لا تأتها إلا على بُغية، ولا تنهلها منهل المُفارق أبدًا. فلا تأتِ امرأتك إلا حين يُلهبك الشبق، ولا تُجامع إلا إذا انتصب ولا تحثه على الانتصاب، وانزل عنها وفي نفسِك شهوة إليها؛ ولا تأكل حتى يقتلك الجوع، وكل أكلة المبطون؛

ولا تشرب إلا وقد أيبسك الغليل، واشرب شربة المكلوب؛ ولا تنم إلا إذا غلبتك عينك، ونمْ نومة المُطارَد.. وهكذا فعلت.

ألقيتُ بجسدي على الفِراش وغبتُ في سُباتٍ لذيذٍ حتى قُرب غروب الشمس، ولولا أنهم أيقظوني ما استيقظت قط. وكأني أخذتُ بشطر قول الهُذيلي. جمعت العصر بالمغرب للمرة الأولى منذ ثلاث سنواتٍ، ولهذا استمهلتُ قريبي أن أمكث بالمسجد حتى العشاء فتركني وعاد وبقيتُ وحيدًا أقيم النوافل حتى تجدد قدوم الناس للصلاة فعلمتُ أن وقت العشاء قد اقترب.

***

كان قريبي قد عاد للمسجد وصلينا معًا ثم أخبرني أننا سنذهبُ لدار رجلٍ يُسمى عثمان بن عُيي. وهو رجلٌ مضيافٌ يقصده العامة للسَّمر وتبادل الأخبار والاستماع للأشعار، فأي شاعر من مكة أو مارٍّ بها لا بد أن ينزل عليه ليلة أو ليلتين ليُسمع أو يَسمع. كان بيته بعيدًا في طرف المدينة ولتباطؤ خُطانا وصلنا بعدما وصل الناس لكن كان لقريبي من المكانة بينهم ما جعل الناس يُفسحون لنا حتى جلسنا في ميمنة صدر المجلس، ولم يكن الحالُ كما تصورت. فلم أر ارتياح وجوه أو انشراح صدور! ولا تُوجد دلالة على أن هذا مجلس شعر وسَمر، فالكل مُتجهم مطأطئ الرأس صموتٌ، كأن حلَّ بهم نبأ ما. هكذا توقعتُ وقد أصاب توقعي.

فمن مكانٍ ما صدر صوتٌ قطع سكونهم «فليرحمه الله»، وتبادرت الردودُ من أطراف المسجد «كان صحابيًّا جليلاً»؛ «أدهى الدهاة»؛ «لله درُّه شهد اليمامة واليرموك والقادسية. وفقد إحدى عينيه»... كأن كل مَن بالمجلس يعرفه سوانا حتى سأل قريبي في حكمة المُتريث حتى لا يبدو عليه الجهل: «ومن بعده للناس؟»، فأجابه أقرب رجل له أن البريد الذي جاء مخطوط فيه النعي فقط، لكن عامل البريد حين خلا بعمال دار الإمارة أخبرهم أن البصرة والكوفة جُمعتا لزياد بن سمية. فمال عليَّ وقد أصاب الغرض وأبلغني أن المُغيرة بن شعبة هو من مات.

ما إن سمعتُ الاسم حتى تذكرتُ أمي، فقد حكت لي صغيرًا أنها قبل أن تتزوج أبي كانت تزوجت برجالٍ آخرين وقد ذكرت لي هذا الاسم فيمن تزوجتهم. لكنه كان أكثر من حكت عنهم من أزواجها السابقين، فقد قالت إنه كان نكاحًا مطلاقًا، شغوفًا بالنساء، تزوج كثيراتٍ ونزل عن كثيراتٍ، ولم تعلق بقلبه امرأة؛ فذات ضحى وجدها تستاك من شظايا سواك علقت بين أسنانها، فظن بها الشراهة أو القذارة فطلقها لحظتها وخطبها لأبي! يبدو أنه حقًّا لا تعلق بقلبه امرأة! فكيف لرجلٍ أن يشير على رجلٍ أن يتزوج امرأته أو من كانت امرأته؟! لذلك كان في قلب أمي منه شيء، فالمرأة تزهدُ مَن هواها وتهوى مَن زهدها، وتظل تتحرشُ بذكره ولو ذمًّا، فقد كانت دائمة الذكر لحادثة اتهامه بفاحشة الزنا وأن ثلاثة رجال شهدوا عليه بذلك لكن رابع مَن رأى الواقعة لم يقر بصراحة الزنا

فبرأه الفاروق! ألم يكن هذا الرابع هو زياد بن سُمية الذين ذكروا أنه تولى البصرة والكوفة الآن؟! ما لي كلما تذكرتُ نفرًا من الماضي يقفز إليَّ في الحاضر؟! قطع استرسالَ ذاكرتي صوتُ أحدهم مناديًا في القوم: «من ذكر له أمرًا فليرثه به!»، ومن بعده تبارى الحضور في ذكر مناقب المغيرة. منها ما قد سمعته من قبل وأعجبني وتمنيتُ لو كنتُ مثله أو فعلتُ مثلما فعل، فقد علمتُ أنه كان في وفدٍ مع ثلاثة عشر نفرًا من قبيلةٍ واحدةٍ لكنهم انتقصوا منه أمام الوافدين عليه فأسرَّها في نفسه حتى وهم في طريق العودة احتال عليهم بمكيدةٍ وصبَّ لهم الخمر حتى أسكرهم ثم أعمل فيهم سيفه وقتلهم جميعًا وأخذ أموالهم! كان حُرَّ الدم بحق، لله درُّ ثقيف وما أنجبت من رجال.

ومنها ما لم أسمعه من قبل؛ فقد قال أحدهم إنه كان داهية، ولو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بخدعةٍ ومكيدةٍ لخرج المُغيرة من أبوابها الثمانية! ألهذا الحد كان داهية؟! فرد عليه آخر أنه لم يخدعه أحدٌ طوال حياته سوى فتى من فتيان الطائف ذهب إليه ونصحه أن ينزل عن امرأةٍ قد خطبها، فسأله المغيرة عن السبب، فشهد الفتى أنه رأى رجلاً يُقبلها. فتركها المغيرة فضلاً وتنزهًا ولم يخطبها وما إن فعل حتى خطبها الفتى لنفسه، فعلم المُغيرة بالأمر فبعث إليه يسأله عن زعمه أنه رأى رجلاً يُقبلها! فرد عليه الفتى أن الرجل الذي كان يُقبلها هو والدها ولا يضر المرأة إن قبَّلها أبوها! حتى تحدث قريبي- وكأن وجب عليه

الحديث والمشاركة- فذكر أنه جلس مع المغيرة بن شعبة ويوسف الثقفي والدي وأشار إليَّ حين ذكر اسم والدي، وجمْعٍ من رجالات مكة في ليلة سَمر في حضرة خالد بن العاص بن هشام والي مكة وتذاكروا أخبار النساء وصفاتهن، فقال المُغيرة ناصحًا لنا لما له من باع وذراع في مضارب النساء، أن صاحب المرأة الواحدة يحيض معها، ويمرض معها، وصاحب المرأتين بين نارَيْن يشتعلان، وصاحب الأربعة قرير العين. لا أعلم غرض قريبي من ذكر قولٍ مثل ذاك في موقفٍ مثل هذا! فالحديثُ لا يُناسب الحادثة! وعلى قول أبي: لسان الرجل مَخبره. فقد علمتُ مَخبر قريبي ولماذا يجلس هنا الآن وليس في دار الإمارة كما اعتاد أبي أن يذهب. انتهى الجُلاس من سرد المناقب، فترحموا عليه جميعًا وانفرط عِقد المجلس وانصرفنا تباعًا دون أن نسمع شعرًا أو نعرف خبرًا خلا ذلك النبأ المشئوم.

***

توالت الأيام رتيبةً متشابهةً تشابه السماء الصافية، يوم ينتر يومًا وشهر يجر شهرًا فمن الفجر حتى الظهيرة أقفُ بباب الحَبْر عبد الله بن عباس لأستمع لأسئلة الطلاب وردود الترجمان، ومع مطلع شهر رمضان قد كان نظم مجالس علمه حيث خصص يومي الخميس والجمعة لطلاب القرآن وتأويله، ويوم الأحد لطلاب حديث رسول الله وتفسيره، ويوم الإثنين لطلاب الفقه، والثلاثاء لطلاب الفرائض، والأربعاء للغة والشعر وأخبار العرب، وكان هذا أحب الأيام

إلـيَّ لمـا كان يُتحفنـا فيـه مـن بحـر علمـه وواسـع إدراكـه للغـة واتقـاد ذهنـه فـي ذكـر الأشـعار والخطـب وأخبـار القبائـل والمفاضلـة بيـن الشـعراء والخطبـاء، وقـد كنـت حريصًـا علـى المشـاركة فـي هـذا اليـوم سواء بسؤالٍ أو تعقيبٍ أو طلب إفاضة رغـم أنـه كان يزيـد ويفيـض مـن نفسـه حتـى لاحـظ ذلـك منـي فسـألني:

- ألا ينبت لك لسانٌ إلا يوم الأربعاء؟

- لذة حديثك مَن تُنبته يا سيدي.

تبسـم الحَبْـر لجوابـي فبـدا وجهـه كصفحـة الرغيـف السـاخن، وأخبرنـي أنـه يـرى فـيَّ خطيبًـا طلقًـا، مطـوع اللسـان، متقـد البيـان، تنحـدرُ علـى لسـاني العبـاراتُ كانحـدار الصخـور مـن قمـم الجبـال. وهو نفس تطلعي لنفسي فلستُ أرى نفسي فقيهًا أو عالمـًا، ففي كل منزلٍ في مكة فقيه، وفي كل مسجدٍ علماء بعـدد صواري المسجد، لكـن القـادة والخطبـاء فقليـلٌ هـم.

ومـن بعـد الظهـر حتـى العصـر أرتـاح مـن مشـقة طلـب العلـم، ومـن العصر حتى الغـروب أجوب طرقات مكة على حصانٍ هزيلٍ يُرهقنـي امتطاؤه قـد اشـتراه لـي أبـي قبـل أن يعـودَ إلـى الطائـف لأتـدرب علـى فنـون الفروسـية. أعلـى مثـل هـذا الحصـان يكـون فـارس؟! ألا إن الخيـل سُميت خيلاً لاختيالها! فكيـف يختـال وهـو لا يقـوى علـى السير؟! ألـم يصـف الأجـداد النـزه مـن الخيـل أنـه إن تركتـه نعـس وإن حركتـه طـار؟

ما لي أراه إن تركته نعس وإن حركته أنعسني معه؟! إنه يتحرك أبطأ من الشمس ولم أسمعه يصهل قط! لكنه يفي بالغرض على أي حال. فهو يحملني لأرى معالم مكة. ففي يوم ذهبتُ به إلى سفح جبل يُسمونه النور الذي به غار حراء استغرق المسيرُ الأصيلَ كله! فماذا لو أردتُ الذهاب إلى جبل عرفة الذي يقولون إنه يقع شرقيْ مكة على مسيرة أصيلٍ بجواد ضابح فأنَّى لي هذا؟!

وفي المساء نذهبُ إلى دار السَّمر والشعر، لنسمع الأشعار ونتبادل الأخبار وأصغي للخطباء والمتكلمين وآخذ بنات لسانهم وأحفظ تعبيراتهم واستشهادهم بآيات الله وتمثلهم بأمثال الغابرين وأشعار السابقين، تعلمت منهم كيف يجذب المتحدث الحضور لحديثه ويسلب آذانهم، وكيف ينشط حديثه أثناء الحديث حتى لا يمله سامعوه، كان لكل خطيب طريقة خاصة به في الأداء. فمنهم من كان يعتمد على نبرة صوته ومنهم من يعتمد على حركة جسده، ومنهم من كان صوته يرعد ويبرق ومنهم من كان صوته يربو وينضح. فحاولت أن أقطف من كل خطيبٍ محاسنه وأتجاوز عن حصراته وعثراته. فشعرتُ بأني ملكتُ لساني وأصبح طوع بناني وأن الكلمات والعبارات والكنايات تسيل على لساني كسيل الماء العذب على الصخر الصلب.

***

هكذا بتُّ أقلب الأيام بالأيام حتى اقترب العيد ولم يعد أبي! هو أخبرني أنه سيعودُ إليَّ كل بضعة أهلة ليطمئن عليَّ، لكن هل يتركني أعيد وحدي هنا؟ لم أجرب هذا من قبل. حتى عندما كان يُرسلني للبادية حيث قبيلة هُذيل ليصح لساني ويجود نطقي وألمَّ بمدارك اللغة وخباياها لم يكن يدعني سوى شهرين متتابعين ثم يُعيدني للبيت لأقضي شهرًا أو شهرين معهم وأعود مجددًا لهذيل.

وإن كنتُ لا أرى فيه شيئًا فقد اعتدتُ العيش هنا وذهبتْ عني الوحشة ولم أعد صغيرًا، فأنا الآن ابن عشر حجج وقد تآنست بمجلس الحَبْر وبمجالس السَّمر والشعر، وأيضًا اعتدت جو مكة ولم يؤذني مثل البداية، كما أن مكة أكبر من الطائف ووجدتُ بها سلوتي وما يعزيني عن فراق الدار والأهل. فسواء أتى أبي أو لم يأت فعليَّ أن أعتاد على الوحدة.

***

مرَّ عليَّ العيد وحيدًا ولم يأت أبي، لكنه قد أرسل مولى له يُخبرني أنه مشغولٌ بموسم حصاد الكرْم وتجفيفه وسيأتي في موسم الحج القادم، وأرسل معه هدايا لي منها دراهم رومية حديثة الصك تلمع على ضي السراج وثياب للعيد مطرزة قال لي المولى إنها حيكت في الشام، لكن لم ينطلي عليَّ العذر ولم أنخدع بالهدايا! فلدينا من العمال الثقات من يقوم مقام أبي وقد جربهم أكثر

من مرةٍ حينما كان يُسافر للشام أو المدينة ليُجالس الولاة والأمراء ويغيب بالأسابيع، كما أن أملاكنا بمكة يرعاها قريبي الذي أسكن معه وأبي لا يُشرف عليه إلا نادرًا، فالمانع الذي منع أبي من القدوم عليَّ كل هذه المدة أعظم من هذا العذر الواهي الذي ساقه إليَّ مع هذا الرجل الذي معالم وجهه تفضحه.

- علموني في البادية أن وجه المرء أصدق من لسانه! فلماذا لسانك يقول شيئًا ووجهك شيئًا آخر؟!

- هذا ما أخبرني سيدي أن أخبرك به.

- دعك مما قاله لك، وأخبرني ما وراءك، وإلا..

- وإلا ماذا يا سيدي؟!

- حين ألقى أبي سأخبره أنك لم تُعطني أي نقود مما أرسلها لي وأظنك تعلم حد السرقة.

- لكني لم أسرق شيئًا! هذا كذب يا مولاي! وأنت أعف من أن تكذب.

- وأنت لم تُخبرني بالحقيقة وهذا يُعد كذبًا أيضًا، إما أن تخبرني أو أخبر أنا أبي.

تبًّا لرجلٍ يخدعه صبي، لكني لستُ أي صبي فأنا الحجاج؛ فقد انطلت الحيلة على الرجل وصدَّق تهديدي له بالافتراء عليه وأخبرني أن أبي قد أعد عدة الرحيل وحزم أمره للقدوم عليَّ لولا أن أخي محمد ذو السبع حجج سقط من على صهوة جواد المران وشُج رأسه وغشيه الإغماء منذئذ ولم يفق بعد.

- ألم تحضروا له الطبيب؟

- بلى، استقدم سيدي أطباء من المدينة ومن مكة ومن نجد.

- وماذا قالوا؟ ألم يفلحوا في مداواته؟

- أخاطوا جرحه وضمدوه وأوصوا له بمنقوع بعض الأعشاب ومعصور بعض الفواكه إلى أن يشاء الله.

- وكيف يأكل وهو غير واعٍ؟

- بأنبوب ذي قمعٍ يُدخلونه في الحلق ويصبون له السائل فيه.

آه يا أخي، يا وجعي، ليت ما أصابك أصابني ولا تذوق التعب قط، ماذا يا نفسي؟ أبكي مثل النساء أم أنتحب مثل الثكالى؟! لا بد أن أساعد أخي في مرقده هذا.

ظللتُ أتقلب طوال الليل في مضجعي وتملكني السهاد ولساني لا يفتر من الدعاء لمحمد بالشفاء حتى قرب الفجر فخرجت وحدي للحرم بعدما اعتدت المكان وأصبحت من أهله ولم يلزمني قريبي بملازمته في الخروج والولوج، توضأت من ماء زمزم المُبارك وصليت لله أن يشفي أخي وأن يبرأ من مرضه وأن يعود للوعي سالمًا دون علةٍ ولا عجزٍ.

بعد الفجر لم أجد في نفسي ميلاً لحضور مجلس الحَبْر، فلا العقل مُتقد لاستماع ولا الجسد مُستعد للمناهضة، فجلستُ في الحرم أردد الأذكار وألح على الله بالدعاء حتى خطر لي خاطر. أليس محمد لا يدخل جوفه سوى السوائل؟ وهل يوجد سائل مبارك أكثر من ماء زمزم؟ جريت على البيت وأتيت بقِربة كبيرةٍ من جلد الماعز وغسلتها جيدًا وسميت الله وملأتها من ماء زمزم وحملتها على عاتقي وطفت بها حول الكعبة سبعة أشواط وأنا أدعو الله أن يشفي أخي ولا أعلم لصحة ما أفعله هذا أصلاً في السنة ولكنه تقرب إلى الله، وأثناء خروجي من الحرم لمحت الفتيان الوقوف بباب ابن عباس فخطر لي أن أجعله يدعو لأخي فأحسبه أقرب إلى الله من أكثرنا، فما شعرتُ إلا وقدماي تسيران في اتجاهه والقِربة لا تزال على كتفي تتساقط منها بعض القطرات حتى بللتُ قميصي.

انتظرتُ حتى خرج مَن عنده ودخلتُ له وقصصت عليه ما بي وما بأخي فدعا له بالشفاء وأمر بعض من بجواره فأتوا له بإناء فيه

عسل فقرأ عليه الفاتحة وأعطاه لي وأخبرني أنه عسلٌ جبلي من جبال اليمامة ويرجو من الله أن يجعل فيه الشفاء.

عدتُ إلى البيت ووضعتُ العسل في قارورةٍ مُحكمة الغلق حتى لا ينسكب أثناء السفر وقد أعددتُ نفسي للعودة للطائف لرؤية أخي، لكن قريبي حلف عليَّ ألا أفعل لأن أبي سيعرف أنه أخبرني وسيكون عقابه أليمًا، وطمأنني أنه سيوصل الماء والعسل لأمي لتجرعهما لمحمد، وسوف يُرسل لي رسالة كل يومين مع حمامةٍ زاجلةٍ يُطمئنني فيها على حال أخي كل حين، لكن ليس لدينا حمام زاجل، فجمعت كل ما معي من دنانير وذهبتُ إلى السوق لأشتري حمامًا لكن لم أحسب أن الحمام الزاجل طير نادر إلى هذا الحد، كما أنه لا يُباع هكذا في العلن وإنما خلسة في السر لندرة مَن يمتلكها ويخشون عليها من تداخل أنسابها وامتزاجها بحمام العامة، ولم يرض بائع الطيور أن يعترف لي هل عنده حمام أما لا، ولم يدلني على غيره لأشتري منه، وبعد بحثٍ مريرٍ علمت بموضع رجلٍ يعمل دباغًا على أطراف مكة عنده هذا الحمام لكن أسعاره باهظة، فذهبت إليه ولم أجد مشقة في معرفة عنوانه، فرائحة دباغة الجلود العفنة كانت لي خير دليل، وجدته رجلاً سمين الجسم مترهل الشحم، في عينيه انكسار الجبناء، هكذا تعلمت في البادية كيف أتفرس الرجل من قسماته.

ماطلني ولم يبح لي بسر امتلاكه للحمام لكن عينيْه تفضحانه وتشيان به، حتى اضطررت أن أحتال عليه:

- إن لم تعطني الحمام سأشكوك إلى الوالي، فهو صديقٌ لأبي وسيُحرك قائد شرطته لأجلي.

- هه يا غلام، وبأي شيء ستشكوني يا صغير؟!

- بأني ابتعت منك زاجلة لكنها لا تقوى على الطيران، وحين رددتها لك لم تُعطني نقودي.

- لكني لم أفعل ذلك، وكلانا يعلم ذلك.

- الوالي وقائد شرطته لا يعلمان ذلك، وبعد تفتيش دارك ومدبغتك سيجدون الحمام ولا بد أن فيه فرخًا صغيرًا لا يقوى على الطيران سأدعي أنها هي الحمامة التي اشتريتها منك وسيعرفون أينا صادق وأينا كاذب.

- كم عمرك يا غلام؟

- عشر سنوات.

- هذا وربي ليس عمر عقلك.

- ما اسمك؟

- لا يهم كلينا أن يعرف اسم الآخر، فلننجز ما اجتمعنا له!

بعدما رأى الرجل جدية قولي ورأى الحزم مني وافق أخيرًا أن يبيع لي، لكن لم يجُد عليَّ سوى بحمامتين فقط. وأخذ كل ما معي من دنانير بما فيها الدنانير اللامعة التي أرسلها لي أبي، فحمدتُ الله على ما جنيتُ واستغفرته على ما اقترفتُ من كذبٍ وافتراء.

رجعتُ البيت سريعًا وأطعمت الحمامتين حتى تألفا المنزل وتعلما أنه بيتهما الجديد، فقد أخبرني البائع أنهم غشيمتان ولم يسبق لهما التراسل من قبل، ومن السهل أن تعتادا على بيتهما الجديد، بعد ذلك صعدتُ إلى السطح ووضعتُ راية بيضاء كبيرة وأجبرت الحمامتين على النظر لها لتميزاها حين العودة ولا تعودا لبيت البائع. وجهزتُ الخادم للسفر بعدما أوصيته أن يبلغ سلامي لكل أهلي وألا يرسل رسالة إلا إذا جدَّ جديدٌ يستحق المراسلة، فعددُ الحمام لا يسمح سوى برسالتين.

***

مرَّ يوم واثنان وأنا مُتعكرُ المزاج مُتخبط النفس مشغول البال قلق الخاطر، توقفت عن حضور مجالس العلم واكتفيت بالجلوس في الحرم بين الصلوات أقرأ القرآن وأدعو الله لأخي بالشفاء وفي انتظار الرسالة التي ستُثلج صدري إن شاء الله، لكنها لم تأت بعد.

مضى يومان آخران ولم يجدَّ جديدٌ في حالي ولم أفتر من تفقد السطح كل مدةٍ لأرى إن كانت أي رسالة قد وصلت لكن في كل مرةٍ لم أجد سوى الراية البيضاء ترفرف وحيدة، حتى السماء خلت من الطيور سوى من حمامات الحرم التي لا تبرح الحرم كثيرًا ولا ترتفع في الطيران.

بعدما مضى أسبوع لم يطق فؤادي الصبر ولم يكف خاطري عن تداعي الخواطر السوداء، حتى لاحت لي فكرة أن أمرَّ على البائع الذي اشتريت منه الحمامتين، فربما تكون قد وصلته إحداهما لأنها لم تعتد بيتنا، أو تكون لديه طريقة لأرسل رسالة للطائف.

صليتُ الظهر وامتطيت حصاني الهزيل وذهبتُ له، وما إن طرقتُ الباب وفتح لي حتى قابلني بغير الوجه الذي قابلني به أول مرة، ليس مقابلة المألوف بل مقابلة الملهوف:

- لقد قلبتُ عليك مكة.

- مكة على حالها، لم أر حجرًا مقلوبًا عن موضعه.

- كفَّ عن هذه الردود، لو كنت أخبرتني باسمك ما تكبدت عناء البحث عنك، لقد عادت حمامة من اللتين بعتهما لك.

- هل معها رسالة؟

- نعم.

- أرني إياها!

رفض أن يريني إياها إلا بعد أن يأخذ مقابلاً، لا أعلم مقابلاً على أي شيء سوى أن الحمامة هبطت عند الموقع الذي اعتادته، ولم

تكن معي أي نقود، حتى خاتمي الفضي لم أكن ألبسه حينئذ، وبعد مماطلةٍ أعطيته حصاني الهزيل الذي أركبه شارطًا عليه أن يُخبرني إن أتته الحمامة الأخرى.

- وكيف أخبرك وأنا لا أعلم لك اسمًا؟

- اسأل عن الحجاج!

- في أي جهةٍ تسكن؟

- في بيت يعقوب الثقفي، بجوار حوانيت الحرم.

أخذت منه الرسالة وقرأت ما بها فكان فيها:

«من الفارعة بنت همام إلى ابني الحجاج..

حكى لي الخادمُ ما صنعته لأجل أخيك محمد وما احتلت به على الناس لتنول مرادك، وهذا عهدي بك. نحمد الله جميعًا فقد برأ أخوك من كل سوء وعاد إلى سابق عهده وصحته، بعدما شرب من ماء زمزم المُبارك والعسل الذي أرسلته، فليحفظك الله وليبارك لي فيكما.

والسلام».

***

عـدتُ إلـى سـابق عهـدي والتزمـت مجلـس الحَبْـر، وأصبحـت أتجـوَّل حـول مكـة سـيرًا علـى قدمـيَّ بعدمـا ذهـب حصانـي الهزيـل فـداء الرسـالة، كمـا أن عمـي يعقـوب رفـض رفضًـا باتًّـا أن يُعطينـي أيًّـا مـن حصـن الإسطبل التـي لديـه محتجًّـا بـأن أبـي لـم يسـمح بذلـك، ويكفـي مـا حـدث لأخـي محمـد.

وذات قيلولـةٍ وجـدتُ مَـن يُنـادي بالبـاب، فـإذ ببائـع الحمـام قـد أتتـه الحمامـة الأخـرى وحمـل لـي الرسـالة، فشـكرته وانصـرف وفتحـت الرسـالة فـإذ فحواهـا:

«من الفارعة بنت همام إلى ابني الحجاج..

حمدًا لله فقد التأم شج أخيك محمد تمام الالتئام، وعاد يمتطي صهوات الجياد من جديدٍ، وقد نوى والدك الحج بعدما علم أن أمير المؤمنين معاوية هو القائم على الناس بالحج هذا العام.. والسلام».

***

هـا أبـي سـيأتي وعلـيَّ أن أكـون مسـتعدًّا لاسـتقباله، وبالطبـع سيسـأل عمـي يعقـوب عمـا كنـتُ أفعلـه طـوال الفتـرة التـي قضيتهـا معـه، حمـدًا للـه أنـي كنـتُ يقظًـا لحالـي ولـم أغـب عـن مجالـس العلـم خـلا الأيـام الكئيبـات التـي مـرض فيهـا أخـي محمـد، وكنـتُ متعهـدًا بمراجعـة القـرآن حتـى لا أنسـاه أو تتداخـل علـيَّ المتشـابهات مـن الآيـات فقـد

كنت أختمه في كل جمعة ختمة، ما سيسوؤني حقًّا لو تحدث عمي يعقوب عن جولاتي الاستكشافية خارج مكة والأيام التي كنتُ أتأخر فيها لبعد الغروب وتفوتني الصلاة في الحرم. لكن العيبَ لم يكن في بُعد المكان وإنما في ذلك الحصان المتلكئ الذي كنتُ أمتطيه. حقًّا بماذا سأخبر أبي حين يسألني عنه؟ هل سأقول له إني وهبته مقابل رسالة تطمئنني على أخي؟! والله لو حلفت على أحجار الكعبة حجرًا حجرًا لن يُصدق ادعائي قط، ولن يجرؤ عمي يعقوب أن يُخبره بصحة قولي لأنه سيضع نفسه موضع المساءلة. فكيف له أن يتركني أجوب طرقات مكة وحدي وأتعامل مع الباعة والتجار، وكيف يعلم أن بائعًا ابتزني وأخذ حصاني ولا يدافع عني ويسترد لي حصاني؟!

لا بد أن أتصرف.

في اليوم التالي ذهبتُ للبائع وما أن رآني إلا وتهلل وجهه ظنًّا منه أني قد أتيتُ لمكافأته على حُسن صنيعه معي! لكن فوجئ بالضد. فقد سألته عن الحمامتين اللتين لم يعطهما لي واحتفظ بهما لنفسه ظنًّا منه أنني قد نسيتهما:

- ظننتُ ألا حاجة لك فيهما يا غلام.

- وما شأنك أنت؟ ربما أردتُ ذبحهما، فأنا مشتاقٌ لحساء الحمام الحام.

تغير وجهه من المفاجأة فقد صدَّق أني أنوي ذبحهما حقًّا، لكنه اعترض على الفكرة وزل لسانه بالثغرة التي أتيت من أجلها، فقد تعجب من أني سأذبح حمامتين زاجلتين ثمنهما يشتري لي ثمانية أزواج من حمام العوام، فقد كنتُ أعلم ثمن الحمام العادي منذ أن وقفتُ عند بائع الطيور وبالحساب البسيط عرفتُ أن هذا الملعون قد باع لي الحمامة الواحدة بثلاثة أضعاف ثمنها الحقيقي.

- آه يا لص، لقد شهدت على نفسك، إما أن ترد عليَّ دنانيري والحصان وتحتفظ بالحمامتين وإلا..

- وإلا ماذا يا غلام؟! ماذا في جعبتك هذه المرة؟

- ما سوف ترى وليس ما تسمع.

الباطلُ ضعيفٌ أينما حل، والمخطئ جبانٌ ضعيفُ النفس لا يقوى على التفاوض، وللحق رجالٌ يأتون به ويُظهرونه، بعدما رأى البائعُ ثباتي على حقي وعلم ألا مفر مني بدأ التفاوض معي، وما إن

بدأ التفاوض وقد علمت أني انتصرتُ عليه وإن لم أحصل على كل شيء، فلا أنسى ما كنت فيه والمعروف الذي صنعه لي:

- سأرد لك الحصان وأحتفظ بالحمامتين والدنانير.

- بل كلهم جميعًا يا مخادع.

- الحصان ودينارين.

- لا وقت لديَّ، رُد عليَّ كل حاجتي.

- الحصان وعشرة دنانير.

- بل الحصان وكل الدنانير وكأننا لم نلتق ألبتة.

- وأين جزائي على حُسن صنيعي معك يا غلام؟! ألم أعطك الحمامتين وقد منعك كل التجار؟ ألم أحتفظ لك بالرسائل وأوصلها لك؟ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

- حُسن صنيعك معي ذهب مع قبيح فعلك إليَّ، لا يستوي الخبيث والطيب.

- تثكلني أمي إن عاملت غلمان بعد اليوم، يبدو أنك تُجازيني جزاء سنمَّار.

أعاد لي الحصان والدراهم، وما إن امتطيتُ حصاني وهممت بالرحيل حتى فتحت صرة الدنانير وألقيت له بعشرة منها مُبلغًا إياه إن سنمار فعل صالحًا فقتلوه لكنه فعل معي قبيحًا وكافأته، ولكزت حصاني حتى يجدَّ السير لكنه خذلني كالعادة وتهادى في سيره أبطأ من السحاب.

***

جاء موسمُ الحج واستعدت مكة لاستقبال ضيوف الرحمن، وكان الاستعداد الأمني على قدمٍ وساقٍ فهذا العام سيحج بالناس أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، والحاقدون عليه كثر والمضادون له أكثر والخارجون على طاعته أكثر عددًا، فربما أظهر الرجل الطاعة وهو خارج في قلبه وما يلبث أن تلوح له فرصة حتى يغتال الخليفة. وقد حدث هذا عدة مراتٍ فقد حكت لي أمي عن ثلاثة من الخوارج تواعدوا على قتل علي الخليفة حينئذ، ومعاوية الأمير، وابن العاص الوالي؛ فقُتل علي بضربة سيف مسمومٍ شُحذ أربعين صباحًا، أسالت الدماء من الرأس حتى خضبت لحيته كما وصفتها النبوءة؛ وأصيب معاوية في فخذه وتداوى بشرابٍ أفقده القدرة على الإنجاب؛ وأرادوا عَمْرًا وأراد الله خارجة.

وما أن قُتل علي وطُويت صفحة الراشدين الذين انتهت حياة ثلاثة منهم بالقتل الغدر، وحزن كل فريق على فقيدهم، وراجت أشعار الرثاء التي حفظتها ما إن سمعتها، فقد أنشد المرادي واصفًا الاتفاق الذي عقدته قطام بنت الشجنة، المليحة، بالغة الحُسن، فائقة الجمال، التي خطفت قلب عبد الرحمن بن ملجم حين رآها، فخطبها فأبت، ومنعته نفسها حتى يكون دم علي من مهرها؛ فتلاقت الأهواء مع الأهواء؛ فابن ملجم كان قد بيَّت النية على قتل علي وقدم إلى الكوفة طالبًا رأس الخليفة؛ فقال المُرادي في ذلك:

فلم أر مهرًا ساقه ذو سماحةٍ كمهر قطام بين عربٍ ومعجم

ثلاثة آلاف وعبدٌ وقيْنةٌ وضربُ علي بالحُسام المُصمم

فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن مُلجم

***

ومن بعد قتل علي نقلت عُهدة الخلافة للحسن في بيعة حرة لم يأمر بها ولم يرفضها علي قبل وفاته وما لبث الحسن حتى شرع في القصاص لأبيه كما أوصى وقتل قاتله؛ وبدأ النظر في أمر الخلافة واستكمال تجهيز الجيش الذي كان يُجهزه والده قبل وفاته حتى رصدت المراصد تحرُّك معاوية لقتالهم، فخرج الحسن من الكوفة لملاقاته حتى عسكر بقريةٍ يقالُ لها المدائن، وما فك الجنود مناطقهم ووضعوا سيوفهم واستراحوا من ترحالهم حتى نادى منادٍ كاذبٍ بأن قائد مقدمة الطلائع قد قُتل! فعم الهرجُ المُعسكر وسادت الغوغاء وتحوَّل بعضُ العسكر إلى لصوصٍ ونهبوا فسطاط الحسن حتى نازعوه بساطًا كان يقفُ عليه وحاول أحد الخوارج طعنه بخنجرٍ لكنه لم يقتله وتواثب الناسُ على الخارجي فقتلوه؛ واحتمى الحسن بالمقصورة البيضاء ومن لحظتها فقد ثقته في أهل العراق وراسل معاوية في الصلح

الـذى أفضـى لمعاويـة بخلافـة المسـلمين قاطبـةً وأصبـح أميـرًا لـكل المؤمنيـن؛ فـإذا كان عمـر وعثمـان وعلـي قُتلـوا والحسـن ومعاويـة تعرضـوا للاغتيـال فـلا ضيـر للخليفـة أن يكـون حـذرًا ويقـي نفسـه الهـلاك ويقـي البـلاد الفرقـة والشـتات مـن بعـده. فاجتمـاعُ الأمـة علـى حاكـمٍ ظالـمٍ، خيـرٌ مـن تفرقهـا بحثًـا عـن حاكـمٍ عـادلٍ.

توافـد الحجيـجُ وحضـر أبـي علـى رأس وفـد حجيـج الطائـف، وكان عمـي يعقـوب قـد أعـد لهـم منـازل ينزلونهـا ونـزل أبـي معـي فـي بيـت عمـي يعقـوب الـذي هـو فـي الأسـاس بيـت أبـي، حكـى لـي أبـي عـن أخبـار الأهـل والوطـن وعـن أخـي محمـد ومـا جـرى لـه وكيـف أنهـم كانـوا قـد يئسـوا مـن شـفاه حتـى شـرب مـن مـاء زمـزم والعسـل الـذي أعطانيـه الحَبْـر، فقـد قصـت لـه أمـي مـا حـدث بعـد أن بـرأ محمـد.

- لمـاذا كل هـذا الحـرس يـا والـدي؟! أهـذا موسـم حـج أم موسـم حـرب؟

- يـا بنـي، الخليفـة سـيحج بالنـاس هـذا العـام، والبـلاد لا تخلـو مـن المكائـد. الخليفـة وولاتـه لـم ينجـوا مـن سـهام الاغتيـال، ألا تذكـر أن مـروان بـن الحكـم والـي المدينـة

تعـرَّض للقتـل وهـو فـي المسـجد أثنـاء صلاتـه؟ فمـا بالـك بالحـرم واتسـاعه والرعيـة أشـتاتٌ مـن كل فـجٍّ؟!

- قالـت لـي أمـي إنـك أشـرت عليـه أن يبنـي مقصـورة فـي المسـجد يُصلي فيها، لتمنـع عنـه الكائديـن.

- نعـم يـا ولـدي، فالمقصـورة فـي هـذا العصـر مـن معالـم المسـاجد، فقـد اتخذهـا الخليفـة فـي الشـام، ومـروان بـن الحكـم فـي المدينـة، حتـى زيـاد بـن سـمية حديـث العهـد بالولايـة أتـت الأخبـار أنـه اتخذهـا فـي العـراق أيضًـا.

- حقًّـا يـا أبـي، لقـد سـمعتهم يُلحقـون زيـادًا هـذا باسـم والدتـه، ألـم يكـن لـه أب؟

- آه يـا حجـاج، لا تُفسـد علينـا حجتنـا، دعنـا لا نخـوض فـي عِـرض أحـد!

- هل ستُخبرني بعد فراغك من الحج؟

- في طريقنا للمدينة إن شاء الله.

قـرَّر أبـي أن سـبعة أشـهر فـي مكـة وملازمـة مجلـس الحَبْـر ابـن عبـاس بهـم مـن الكفايـة وعلـيَّ أن أرتحـل إلـى المدينـة لطلـب العلـم مـن علمـاء آخريـن، فالمدينـة أيضًـا

بها صحابة رسول الله ولا بأس أن أقطف من كل بستان زهرة، فهنا قد غرفت من بحر الحَبْر وسمعت منه، لا سيما أنه أوقف مجالس العلم حتى يفرغ موسم الحج وقد سمعت بعض الفتيان الذين يحضرون له بعزمهم على العودة لوطنهم بعد الحج، مما يعني أن المجلس لن يعود قريبًا ولا علم لديَّ بوقت عودته مجددًا. كما استمتعت بمجالس السَّمر والشِّعر التي صحبني لها قريبي عم يعقوب، فلا ضير من الترحال إلى المدينة لنرى ما بها من وجوهٍ جديدةٍ وأحداثٍ وأخبار أحدث، وهي خطوة أقرب في اتجاه الشام حيث حاضرة الخلافة ولؤلوتها، دمشق.

حج أبي في من حج وكان الخليفة قد قرر لقاء رؤوس الوفود من أطراف الخلافة ليعرف منهم أحوال البلاد والعباد بعيدًا عن الأخبار التي تصله من ولاته على البلدان، فكما أن أهل مكة أدرى بشعابها والخيل تعرفُ فرسانها فخير من يتحدث عن أحوال البلاد سكانها.

تحدث أبي عن الطائف وأحوال الرعية وما بها وما تحتاج له، خاصة السد الذي يرجون بناءه في مجرى الوادي ليقي مزارع الطائف خطر السيل.

تحدث رؤوس الوفود كلٌّ عن قومه ما بين شاكٍ وباكٍ ومادحٍ وذامٍّ، لكن الشكوى التي جلجلت المجلس وانطلقت على الألسنة شكوى أهل العراق من زياد بن سُمية على لسان رجلٍ منهم يُقال له عامر الشعبي فقد شكا للخليفة أن بعدما جُمعت لزياد البصرة والكوفة نادى في الناس وصعد المنبر ليخطب وبينما هو في الخطبة إذ رماه نفرٌ من الحضور بالحصى لكن أحدًا لم يعلمه، فنزل من على المنبر وأغلق المسجد وقعد على بابه وحلفَ كل من بالمسجد على أنهم لم يحصبوه فمن حلف أخلى سبيله ومن رفض استبقاه حتى خلص إلى ثلاثين رجلاً أبوا القسم فأعمل فيهم السيف وقطع أيديهم! سألت أبي عن هذا الذي سمعته فأكده لي:

- هذا أقل ما قيل عنه يا بُني.

- أفعل شيئًا آخر؟

- الشعبي قال أكثر من ذلك، يا ولدي أهل العراق أهل شقاق ونفاق، كعادتهم دائمًا، ما يلبثون أن يُطيعوا حتى يخرجوا، وما يعاهدوا حتى يغدروا وما يقطع لهم ذنب حتى ينبت لهم أذناب، كأنهم رضعوا الشقاق والخروج والعصيان؛ فكما وصفهم الحسن: «ليس أحد منهم

يوافق آخر في رأي ولا هوى، مختلفين لا نية لهم في خير ولا شر». فتوالى ظهور الخوارج منهم حينًا بعد حينٍ وبقائد يخلف قائدًا حتى أخرجوا معهم النساء أحيانًا ولا بد لهم من عين الحزم وتجريد السيف.

- وكيف ضبطهم ابن سمية؟

- بعدما أصبحت له الكوفة والبصرة كان لازمًا عليه أن يتابع المدينتين، فكان يمضي في الكوفة بضعة أشهر تاركًا خلفه أحد قواده على البصرة، ثم يمضي إلى البصرة تاركًا خلفه أحد قواده على الكوفة، وكان لا يراجع قواده في دم سفكوه أو قتيلٍ قتلوه!

- وما قول الخليفة في ما صنع؟

- لو علم زياد أن شَعرة في فروة نفرٍ من أهل العراق تهم الخليفة ما مسَّها.

آه يا أهل العراق، ما سمعتُ عنكم خيرًا قط، هل الرافدان يجريان بالماء أم بشقاقٍ وخلافٍ وفسوقٍ وخروجٍ، يبدو أن العراق ليس لها سوى السيف، هكذا يرى أبي والخليفة وزياد، وهكذا أرى أنا أيضًا، فبعض الشعوب لا تهدأ إلا والسيوف على رقابها وبعض البلاد

تُـدار بالظلـم لا بالعـدل، وبالخـوف لا بالأمـن، وبالمنـع لا بالمنـح، فهـم كالخِـراف، إن جاعـت انشـغلت بالـكلأ، وإن شـبعت ناطحـت الراعـي. فلا خير في قـومٍ ليس لهم عهـدٌ ولا ميثـاقٌ.

***

عَبد الملك
-2-

لا أدري ماذا يريد الخليفة من أبي! يوليه ثم يعزله! يسخو عليه بأعطياته ثم يستردها منه! ثم يوليه مجددًا! ثم يعزله! ثم يأمر بمصادرة أموالنا وضياعنا! حتى دارنا التي نسكنها بالمدينة بعث لعامل المدينة أن يهدمها! لولا أن عامل المدينة كان أحفظ للرحم والدم وراجع الخليفة في الأمر!

لكن معاوية عاد وأمره من جديدٍ بهدم دارنا ومُصادرة أموالنا! لكنه لم يعبأ به ولم يُنفذ أوامره فعزله وللعجب ولى أبي!

أي ضغينةٍ يريد أن يصنعها معاوية بين أبناء الأب الواحد؟! فما لبث أن ولى أبي حتى أمره بهدم دار الوالي المعزول! أهكذا تُدار

الخلافة؟! أهم ولاةٌ أم دُمى يتلاعبُ بها معاوية؟ والله لولا معرفتي بحنكته وحِلمه لظننتُ به الجنون! أين شَعرته التي سئمنا من حديثه عنها!

ثم إذا كان يكره أبي فلمَ يُوليه؟ وإن كان يُحبه فلماذا يعزله؟ وإن كان لا يثق به فلمَ يُعيد عليه العمل؟ هل يخشى أن يُفكر أبي في الخلافة فلذلك يُقصيه ويُدنيه حتى يصغر في نظر العامة، وتقل هيبته، ولا تكون له شيعة تُنادي به خليفة؟! رغم أني لا أرى للخلافة أصلح من أبي بعد معاوية فإن الخلافة أضحت حُرة الآن فلتختار الرعية مَن تراه فلا توريث ولا بيعة.

مهلاً يا نفسي، لا تغرنك الأوهام. هل نسيت ما سعى به المُغيرة بن شعبة وأطمع الخليفة بأخذ البيعة لابنه يزيد من بعده! حقًّا الأمرُ كان في طور الشورى مغلقًا بالكتمان لكني رأيت بأم عينيَّ الوفد الذي بعثه المُغيرة إلى قصر الخلافة ليُزين للخليفة الجد في أمر البيعة!

ما لي أنا والحكم والخلافة، يتولى من يتولى ما لهم عليَّ سوى السمع والطاعة، أما عني فمُهجتي في مُصحفي، وراحتي في جلوسي في مسجد الرسول. ولا شأن لي ببلاط الحكم فما دامت الخلافة في بيت بني أمية فنحن الخلفاء بالدم والخليفة الفعلي له الإصْر والإثم، حتى إني لا أطيق استخلاف أبي لي على المدينة وذهابه للحج. فمتى يعود لأعود لخلوتي؟!

***

انقلب العام وحدث ما كنا نتوقعه نحن بني أمية، فقد لبس معاوية للرعية ثوب الواصي والناصح والخائف على مستقبل الأمة! ويخشى الاختلاف من بعده! هل حقًّا خائفٌ على مستقبلهم، أم على مستقبل ابنه يزيد؟

فقد أرسل لأبي أن يعرض على الناس أمر الاستخلاف وليبعث له برأيهم. فقام أبي وخطبهم وأخبرهم أن الخليفة كبرت سِنُّه ودقَّ عظمه ويخشى على الأمة الخلاف من بعده، ورأى أن يتخير لهم رجلاً من بعده يقوم عليهم بالخلافة.

لا أنسى ذلك اليوم ما حييت! حين صعد أبي المنبر وخطب في الناس بما أملاه معاوية، وما أن انتهى حتى قام رجالُ بني أمية- كيفما اتفق- يثنون على معاوية ورجاحة عقله وبُعد فكره، فلم يجد بقية من كان بالمسجد إلا أن يُسايروهم وتبعوهم في الثناء، وكأننا في قطيع نعاجٍ، ثغت نعجة فتبعتها الأخريات!

بعدها أرسل أبي لمعاوية بأن المدينة تطير طربًا بالاستخلاف، وليرَ الخليفة مَن الرجل وليُرسل لهم ليُبايعوه، هكذا وثقت الأمة في رأي رجلٍ واحدٍ واستغنوا برأيه عن رأيهم وليصبح اختياره اختيارهم وهواه هواهم!. فما وصلت رسالة أبي حتى أتى الرد بأن الخليفة استخلف يزيد ابنه وفي حاشية الرسالة «أمر» لأبي بمدح يزيد ووصفه بمحامد الصفات وحميد السجايا وأنه خير من استخلف الخليفة وأن يُرسل عليه وفدًا من المدينة ليحملوا له البيعة!

رغم توقع أبي أن معاوية لن يستخلف سوى يزيد فإن التوقع على جناح طائر قد يحدث أو لا، فلما تيقن أبي بأن يزيد هو الخليفة اكفهرَّ وجهه وكتم غيظًا لم يستطع أن يُبديه، فإبداؤه في غير محله! أيوافق الرعية وتختلف عائلة الخلافة!

على مضضٍ قام أبي في الناس خطيبًا، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسول الله وترحم على خلفائه لا سيما الخليفة المظلوم عثمان.

ذكر الناس بحق الخليفة ووجوب السمع والطاعة له، ثم تعرض ليزيد فذكر فيه من الصفات ما لم يجمعها قط حتى ظننت أبي يتحدث عن شخصٍ لا أعرفه!

ألست أنا ويزيد وُلدنا في عامٍ واحدٍ ونشأنا في بيتٍ واحدٍ تحت كنف عمي معاوية؟ ألستُ أنا من أقرب الناس له وأعلم بسره أكثر من علانيته!

أما هذا الذي تحدث عنه أبي فرجلٌ لا أعرفه وليس لي عهد به، وإن كان كذلك فأنا أول المُبايعين له! أما يزيد الذي أعرفه فليت بينه وبين ولاية أمور الناس بُعد المشرقين.

بعدما انتهى أبي من هذا الوصف المزعوم ليزيد قال لهم: إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد بعده.

لا أعلم أهي زلة لسان أم قصدها أبي؟ فما الغاية من توضيح أن يزيد بن معاوية؟ لو قال إنه استخلف يزيد الذي ذكرته لكم لبايعه حصى المسجد! لكن إضافة أن يزيد بن معاوية والتلميح بصفتيْ الأبوة والبنوة أظن أبي يرمي بها ليجس نبض الأمة.

وكما توقعت وتوقع أبي، كان نبضُ الأمة مضطربًا كحمامة خرقها نصلُ قناص، فقد قام عبد الرحمن بن أبي بكر صائحًا في المسجد:

- كذبت والله يا مروان وكذب معاوية ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل.

من على المنبر وبثباتٍ يُحسد عليه نظر أبي حتى استبين مصدر الصوت، وشخص القائل، ما عرفه حتى توجه له بعينيْن تنضحان شررًا وعلى طريقة سَفِّه مِن صاحب الرأي يسفه رأيه، قائلاً له: هذا الذي أنزل الله فيه ﴿والذي قال لوالديه أفٍّ لكما﴾، فراج المسجد بالهمهمات وانفرط عقد الصمت حتى سمعنا صوت أم المؤمنين عائشة من خلف حجاب المسجد تُنادي على أبي، فعم المسجد الصمتُ حتى سمعناها تنفي هذا التأويل عن عبد الرحمن وتصف أبي بالكذب!

هنا انزلق عنان الأمر من يد أبي، وجمح جواد الخلاف حتى قام الحسين بن علي وفعل مثلما فعل ابن أبي بكر وتبعهما ابن

عمر وابن الزبير وانفض الناس على هذا، فبعدما كانت البيعة قاب قوسين ليزيد أو أدنى أضحت في طلبها أعسر من جمل يمر في ثقب المخيط.

***

تحركت الدسائس في المدينة بل قل في الحجاز قاطبة، ما خلا رجلٌ برجلٍ حتى حدثه في أمر البيعة! حتى أولئك الذين أظهروا المباركة في أول الأمر تغيرت ألسنتهم ونضح منها التلميح بالهرقلية كما زعم ابن أبي بكر، كأن الناس كانوا في حاجةٍ لمُخالفٍ ليُخالفوا معه! مثلما ثغت نعجة الأمس ثغت نعجة اليوم وظني أنه ثغاء لن تسكته صيحاتُ الراعي بل عصاه.

كان الأمرُ يقتضي مجيء معاوية بنفسه للحجاز. فإن لم تبايع المدينة ومكة فكأن بيعة لم تكن، وكأن أمرًا لن يتم. وحينها لن يصبح لمعاوية حكم على الرعية فليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه الرعية إلا حزمٌ أو توانٍ. والأمر لا يستغني عن الحزم ولا يقبل التواني فبعدما وعدوه بالموافقة على رأيه عادوا وعارضوه!

هذا ما توقعته وهذا ما حدث. فقدم إلينا عمي معاوية في ركبٍ هائلٍ من وجوه أهل الشام وفرسانهم فعلمت أن الأربعة الشاردين عن البيعة خرجوا للقائه.

فإذا كان أمر الخلافة يترشح له الكل ولا يقتنصه إلا من كان له سيفٌ مسلولٌ، ومالٌ مبذولٌ، وعدلٌ تطمئن له القلوب، فعهدي بعمي معاوية كل ما سبق وزيادة عليه حنكة المفاوضة وبراعة المحاججة وإن كان الأربعة الشاردين أمنع ما يكون عن سيفه، وأغنى ما يكون عن ماله، وأبعد ما يكون عن جوره! فما بقي له إلا التفاوض ولندع الأيام ترينا بعضًا من دهاء الخليفة.

***

اعتزل أبي مجلس الوالي بعدما نقل إليه سُعاة الشر ما قاله الوالي فيه، وبحنكته التي عهدتها عليه لم يُعاتب أبي الوالي ولم يخطب وده، فإن كان هو الوليد بن عتبة والي المدينة من قِبل معاوية بن أبي سفيان، فأبي مروان بن الحكم رئيس ديوان الخليفة المظلوم عثمان ووالي المدينة مراتٍ سابقاتٍ والرجل الثاني في بني أمية.

انعزل أبي عن المجلس حفظًا لهيبته ومكانته، فكيف بعدما أساء الوالي في حقه- ولو سرًّا- أن يُجالسه مجددًا وكأنه يستجدي عطاءه، وكان تبعًا لانعزال أبي عن معمعة الحكم ومجلس الولاية انعزالنا نحن بني مروان خلف أبي.

فتركنا دارنا التي في وسط المدينة، ورحلنا إلى ضيعة لنا على خد الطريق الواصل بين المدينة والكوفة، كان أبي يستعملها كمتنزهٍ

له من أعباء الحكم، يأتي إليها كل أسبوع أو أسبوعين ليقضي نصف نهار أو نهارًا بأكمله، لكنه حينما آثر الانعزال أخذني أنا وأخي عبد العزيز معه.

لضيق دار الإقامة بالضيعة، فقد اكتفيت بواحدةٍ من زوجاتي وهي ولادة بنت العباس، واكتفيت من البنين بولدي الوليد وسليمان، فيما اكتفى أخي عبد العزيز بزوجةٍ من زوجاته وولده الأصبغ.

مكثنا نتابع أعمالنا وضياعنا ونتسمَّع الأخبار التي تنقلها لنا عيوننا في المدينة ودمشق، حتى جاءنا ذات يوم قبيل الغروب رسولٌ من الوالي يطلب من أبي الحضور على وجه السرعة للتشاور في أمرٍ مهم!

- مجلس الوالي فيه مَن يكفيه مشورته!

تلك مقولتي التي رددتُ بها على الرسول، لينقلها إلى الوالي حتى يعلم أن مروان بن الحكم ليس سيفًا مغمدًا في جانبه يستله متى شاء.

نظر لي أبي نظرة موافقة على ردي على الرسول، وأضاف:

- غدًا آتيه.

لكن الرسول لم يقبل بهذا الرد، وأضاف بنبرة المُتوسل:

- سيدي، الوالي يطلبك على عجلٍ، وأظن الأمر بالغ الخطر.

- فلتخبرنا ما الأمر إذن؟

- كل ما أعلمه، أن بريدًا جاء من دمشق، ولا أظنه بريد خير.

***

رحل أبي مع الرسول، وبقيتُ وحدي في الضيعة بعدما رحل أخي عبد العزيز أيضًا إلى المدينة بعدما جاءه البشيرُ أن زوجته أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب قد وضعت له عمرًا.

قبيل الفجر جاء أبي جهم الوجه، قاطب الجبين والحزن كسا ملامحه فعلمت أن الحدث جلل.

- ما الأمر يا أبي؟

- مات الخليفة.

- وهل طلبك الوالي ليُخبرك الأمر سرًّا؟!

- البيعة لم تكتمل بعد، وهناك مَن يُنازع يزيد الخلافة.

- وما مشورتك على الوالي؟!

- يا بني، الأمر جد خطير، فقد جاء البريد بخطابين- أو بالأحرى خطاب وأقصوصة- من يزيد في دمشق بعدما نصَّب نفسه خليفة طبقًا للبيعة التي بايعها الناس له في حياة أبيه.

- وما فيهما؟!

- أطلعني الوليد بن عتبة على البريد، فالخطاب الرسمي كان فيه النعي:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة:

إن معاوية كان عبدًا من عباد الله، أكرمه الله واستخلفه وخوَّله ومكَّن له، فعاش بقدر ومات بأجل، فرحمه الله فقد عاش محمودًا ومات بارًّا تقيًّا.

والسلام ».

وأما الأقصوصة فكانت في حجم أذن الفأرة وفيها:

«خذ حُسينًا وابن عمر وابن الزبير بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رُخصة حتى يُبايعوا».

- وبمَ أشرت عليه يا أبي؟!

- ولو كنت مكاني فما سيكون رأيك؟!

- الحدث جللٌ، والوقتُ عصيبٌ، فليبقَ الأمرُ طي الكتمان حتى يُرسل الوليد بن عتبة إلى أولئك النفر طالبًا بيعتهم مجددًا كما

طلبها سابقًا وكأن معاوية هو من أرسل في طلبها، فإن رضوا فقد أحسنوا لأنفسهم وللمسلمين وكفوهم شر الفرقة، وإن أبوا فسجن الولاية يسعهم حتى يستقر الأمر ليزيد وينسى الناسُ أمرهم.

كان هذا رأيي الذي وقع على رأي أبي، لكن أبي كان أجرأ مني على الدم، وأشار على الوليد بدعوتهم بالحُسنى ولتكن دعوته الناهية، فإما البيعة وإما رقابهم!

***

أخذ الوالي بشطر رأي أبي، وجبن عن الشطر الثاني، فقد بعث إليهم ليحضروا له في الحال فتباطأوا في القدوم عليه! أليس الحاكم هو ولي الأمر ويجب طاعته؟! أم أنهم يرون أن أولي الأمر هم العلماء وليس الحكام!

حين علم ابن الزبير بوفاة معاوية ترك المدينة ورحل إلى مكة ونادى بنفسه خليفة يُباري يزيد في سلطانه، والتف حوله أهلُ مكة وأصبح للمسلمين خليفتان، أحدهما في دمشق والآخر في مكة! هذا بالطبع قبل أن يُمارس أهل العراق عادتهم المعهودة ويخرجوا على الحاكم ويخلعوا الوالي وينادوا بالحُسين خليفة! وكذا أضحى

للمسلمين ثلاثة خلفاء في آنٍ واحدٍ، وكل في مقره بين دمشق ومكة والكوفة! وكل يرى نفسه الأحق بالخلافة! فكيف يكون أحدهم خليفة للمسلمين ولم يجتمع عليه أمر المسلمين بل الأمر يزدادُ

تفرقًا وإن كان اليوم الأمر بين ثلاثة فالله يعلم في كم سيكون غدًا، ولولا أن ابن عمر قد أعطى عهدًا مخادعًا واكتفى بحمل الميزان من بين كفتيه وقال: إن بايع الناسُ بايعت! لظننتُ أنه سيُنادي بنفسه خليفة هو الآخر.

بقينا نتابع التطورات عن كثب، وإن كان الحل العسكري هو الأقرب! فالنزاع القائم بين الثلاثة ليس مجرد نزاع على ضيعة أو بستان أو حتى امرأة! النزاع نزاع مُلك وسلطان.

كما توقعت كان الحل العسكري هو الأقرب، وكذا قرر يزيد أن يبدأ بالمُنافس الأقرب له، وسيَّر الجيوش نحو العراق حيث الحسين، ودارت بينهم رحى القتال، فيما درات مناوشاتٌ حثيثةٌ بين المدينة ومكة وكل طرف يريد أن يُسيطر على المدينة الأخرى.

انتصر جيشُ يزيد على الحُسين وطُويت صفحة منافس من منافسيْن، وإن ذهب المنافس ولم تسترد الأرض التي كان عليها بكاملها، لكن على أية حال ليس الوقت وقت بحث عن أرض خلافة بقدر الخلاص من منافسي الخليفة.

بعدما قُتل الحُسين وصل الخبر إلينا في المدينة كما وصل النبأ إلى مكة، فأعظم الناس مقتل الحُسين واستغل ابن الزبير الحدث أفضل استغلال وأرسل دسائسه بين رجال المدينة ونادى في أهل

المدينة بخلع يزيد ذلك السفاح الباطش الظالم- على حد وصفه- الذي قتل الحُسين من أجل عرش خلافة وسلطان دنيا!

كما سمى نفسه العائذ بالحرم ليضفي على شخصه حُرمة المكان المُتواجد به، ويكون ابن الزبير ممنوعًا من القتل كما مكة ممنوعة من القتال.

ثارت الرعية في المدينة حسبما خطط ابن الزبير، ونادى الناس بخلع يزيد والبيعة لابن الزبير- العائذ بالحرم- وطردوا الوالي من دار الإمارة واستولوا عليها وعلى ديوان الجند، ولم يكتفوا بذلك بل حاصروا أهل بيت الخلافة- بني أمية- في دارنا في المدينة ومنعوا عنهم الزاد والماء وحتى الاتصال بدمشق طلبًا للنجدة.

حينها كنتُ في ضيعتنا التي اعتزلنا بها قبل أن يموت معاوية ويصالح الوالي أبي فيعود إلى مجلسه ويستقر بالمدينة فيما بقيتُ أنا في الضيعة طلبًا لسكينة النفس التي اضطربت مع تزاحم النوائب عليها.

تواترت الأخبار بأن الجيش الذي قضى على الحُسين قد أمره يزيد بالتوجه إلى المدينة لضبط أمرها، ونجدة أهله بها، فخاف أهلُ المدينة على أنفسهم وتفاوضوا مع أبي على إخلاء سبيل بني أمية في مقابل أن يأخذوا عليهم العهد والميثاق ألا يبغوهم غائلة ولا يدلوا لهم على عورة ولا يُظاهروا عليهم عدوًّا!

لا أدري لماذا تعجَّل أبي في إعطائهم هذا العهد؟! فجيش الخلافة على بُعد يومٍ من المدينة وحينها سيخرج كل بني أمية مرفوعي الرأس بشموخ الكبار، ولا يخرجون هكذا بعهد الضعفاء!

بعدما خرج بنو أمية من الحصار قرر أبي الرحيل بهم من المدينة، لا سيما أن الحال مضطربٌ والجيش على الأبواب والحرب قائمة لا محالة، فخرج بهم إلى ضيعتنا التي كنتُ بها ومن ثم أكملنا سيرنا حتى قابلنا الجيش القادم من العراق، فاجتمع قائدُ الجيش ببعض رجال بني أمية طالبًا منهم الرأي والمشورة على ما هو مُقدم عليه في المدينة فالتزموا الصمت حفظًا للعهد، حتى قدَّمني أبي عليه بصفتي لم أُحاصر ولم يُؤخذ عليَّ عهد! وكأن العهد أُخذ على بني أمية أفرادًا وليس جماعة!

دخلتُ على القائد وكان يُدعى مسلم بن عقبة فسألني رأيي، فأخبرته بخطة المسير، وهيئة الدخول وتوقيت القتال بكل دقةٍ وحنكةٍ، مراعيًا كل العوامل النفسية لأهل المدينة والعوامل الجغرافية لطبيعة الأرض والمكان.

فأعجب بدقة وصفي، وقوة حدسي الحربي وعلمي بمكامن القوة والضعف، كما أن طريقة القتال التي اقترحتها لاقت منه ثناءً جمًّا.

- لله أبوك، أي امرئ ولد إذ ولدك، لقد رأى بك خلفًا.

لما سمع أبي هذه الكلمات علم أني وفيت مقصده فدخل علينا فسطاط القائد، وسلم عليه سلام الواصل، فسأله القائد عن رأيه وكأن رأيي لم يكفه:

- أليس قد دخل عليك عبد الملك؟!

قالها أبي مُستنكرًا إعادة السؤال، ليعلم القائد أن رأينا واحدٌ، وليحفظ نفسه من الحنث بالعهد والميثاق، فجاء الاستنكار بصيغة السؤال، ففطن القائد لمقصد أبي وعالج الموقف.

- بلى، وأي رجل عبد الملك، قلما كلمت من رجال قريش رجلاً شبيهًا.

حينها ردَّ عليه أبي بردٍّ دامغٍ، ليؤكد موافقته على رأيي وليُعلي من قدري وسط جنود الجيش ورجال بني أمية.

- إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني.

***

الحَجّاج

-3-

عُدنا إلى الطائف لأرى أمي وإخوتي وأطمئن عليهم، فهي المرة الأولي لي التي أغيب عنهم كل تلك المدة، وعُدت لرغد الحياة وعيشها فطوال فترتي في المدينة لم تنضج لنا زوجة عمي يعقوب طبخة أذكر طعمها، فكل طهيها مُتشابه. ففي المساء إما لحم مسلوق في ماء وملح وثريد مُفتت في مرق هذا اللحم، أو لحم مشوي وخبز سميد، وفي الصباح ثريد مفتت في لبن الإبل وتمر، والحلوى كانت إما سكرًا أو عسلاً.

لكن هنا وفي بيتنا لدينا أمهرُ الطهاة، فاللحم يُسلق في الماء وتُضاف إليه التوابل لتُكسبه نكهة وطعمًا شهيًّا وتُزيل رائحة حياة الحيوان منه، ثم يُضيفون للحم الخل والتوابل ويصنعون السكباج،

أو يصنعون لنا الخزيرة من اللحم والحليب. أما الحلوى فيصنعون لنا الصناب واللوزينج والفواليذ. وللطعام هنا نكهة ورائحة ومذاق، أما الطعام في بيت عمي يعقوب كان وسيلة لسد الجوع وإقامة الصُّلب، على أية حال يجب عليَّ ألا أعتاد على دعة العيش فسوف نرحل الأسبوع القادم إلى المدينة ولا أدري ما ستؤول إليه حالي.

***

ضمتني أمي كما لو أنها لن تضمني بعدها أبدًا، وتحسستْ رأسي بين كفيها كما لو أنها لن تلمسها ثانيةً، وأشبعت رئتيها بأنفاسي وملت عينيْها مني كما لو أنها نظرة الوداع، وبدموع الفراق ودَّعتني قبل أن تشد الرحال إلى المدينة.

خرجت القافلة فجرًا في سربٍ من الأينق يقودها حادٍ بديعُ الصوت، صوته ينطلق في الفلوات عذبًا حتى يصطدم بالأكَمات المتناثرات على جانبي الطريق الواصل بين الطائف والمدينة فيعود أكثر صفاءً وأعذب ترددًا؛ ومن خلفه تسير النياق في تناغمٍ مع هذا الصوت الندي، وكأنها تشعرُ بموسيقى اللفظ وعذوبة الأبيات، وعلى هذا النهج استمر المسيرُ حتى أصابت الشمس كبد السماء وكنا قد اقتربنا من جبل الكرا حين لمحوا راعيًا أصابه الكبر يهش على

غنمـاتٍ شـارداتٍ وكلابـه تعاونـه فـي تحجيـم شـرود القطيـع، فآثـروا الاستئناس بـه وبعثـوا للإذن في الاسـتراحة بجـواره فـأذن لهـم، فحطـوا رحالهـم بالقـرب منـه تفاديًـا لوهـج الظهيـرة.

قـرَّت الرواحـلُ وتسـارع الخـدمُ فـي نصـب خيـامٍ مؤقتـةٍ لحجـب الشـمس عـن الـرؤوس؛ وترجَّـل أبـي إلـى الراعـي وسـلم عليـه وأنـا مـن خلفـه، انتسـب لـه فرحَّـب بـه الراعـي أشـد ترحيـب لما سـمع عـن مكانتـه فـي قومـه، وكذلـك انتسـب الراعـي لنفسـه فظننـت أن أبـي قـد عرفـه، تبسـط معـه أبـي وتحدثـا عـن الرعـي ومشـقته وأنـه ترحـالٌ لا اسـتقرار، وبقـاء فـي الفضـاء، ويخلـو مـن دفء الديـار، وألفـة السُّـمار! فحاججـه الراعـي بمـا يجـده فـي نفسـه وأضـاف أنـه يُخيـم فـي هـذا الموضـع منـذ مـا يقـرب مـن عقـدٍ ونيِّـف، وأن الرعـي بـراح بـلا قيـدٍ، ومرعـى بـلا حـدٍّ، وسـياحةٌ دون شـرطٍ.

كلاهمـا يعلـم أنـه حديـثٌ لدفـع الشـمس نحـو المغيـب، وحيـن هممنـا بالرحيـل نظـر أبـي علـى الـكلاب وهـى تتهـارجُ ونظـر لـي وتبسـم.

***

عـاد الركـب للمسـير وانسـربت النيـاق فـي سـربٍ متـوالٍ لكنـي حازيـتُ ركـب أبـي، وكسـرًا للملـل قـصَّ علـيَّ أبـي قصـة مولـدي وأنـي أبيـتُ الرضاعـة مـن ثـدي أمـي ورفضـتُ أثـداء المُرضعـات، وأشـرفتُ علـى المـوت جوعًـا، فأشـار أهـل الشـورى أن يبحثـوا عـن كلبـةٍ مطموسـة

السواد لا يشوبها بياض ويُذبح أحد جراوها، ويلطخ وجهي بدم هذا الجرو؛ فأضناهم البحث عن كلبةٍ حديثة الولادة بتلك النعوت، فأرسل أبي فرسان ثقيف في شتى الجهات حتى وجدوها لراعي ضأن نصب خيمته في بطن الكرا على خد الطريق الواصل بين الطائف والمدينة، وفعلوا كما انتصحوا فرضعتُ حتى الشباع؛ وكان أول ما ذاق لساني ودخل جوفي الدم! ألهذا لا أخشى الدماء وأنتشي بأحاديث القتل والسفك؟! ألهذا أنا ملتاعٌ بأخبار المغازي والحروب وقتل الرجال؟!

وحين ضربت فيَّ عروق الحياة سمَّتني أمي (كُليب) تيمنًا بالجرو الذي أنقذ حياتي وحلَّ صومي عن الرضاعة، كما أنها أرسلت في أثر الراعي وكافأته بقلادةٍ من حُليها تملأ الكفين من ذهب بلاد فارس عرفانًا بمعروفه.

- ولماذا تنادونني بالحجَّاج؟!

- أترضى أن تكون كُليبًا؟

- لا.

- وكذلك نحن، فبعدما كبرت وظهرت عليك أماراتُ الشقاء منذ حبوك، توسمنا أن تكون سيدًا في قومك، كما توسمت هند في معاوية وهو الآن خليفة مشارق البلاد ومغاربها، ولا يتماشى اسمك مع أسماء السادة.

- ولماذا الحجاج؟

- لندع الدهر يُفسر ذلك، فإما أن تكون كثير الحج، وإما أن تكون كثير الجدال والمحاجة، وإما أن تكون مُحطم عظام الخلائق.

هي المرة الأولى التي يُحدثني فيها أحدٌ بهذا الخبر، ولولا أن الخبر ثقة من والدي ما تجاوز أذنيَّ، ألهذا كانت أمي حين تُدللني تدعوني كُليبًا؟! كنتُ أظنه من قبيل التدليل المُعتاد للصغار دون دلالةٍ على شيء من ماضيهم.

تذكرتُ نظرة أبي لي وتبسمه حين عرف اسم الراعي، فعرفتُ أنه المقصود وصاحب الجراء فحاولت الالتفات لألقي نظرةً على الراعي وكلابه، لكن غبار المسير حال دون ذلك، فأسررت ما في نفسي من اشمئزاز وتطلعت إلى الأفق القادم وليبقَ هذا التاريخ المُشين في أعمق أعماق الأسرار.

***

بعد مسير يوميْن لم يبق من أشعة الشمس سوى الشفق حين لاحت نخلاتٌ باسقاتٌ منثوراتٌ على مدخل المدينة الجنوبي، تهلل الناس ونشطت الإبل، حينها أدركتُ أن المدينة في مرمى البصر ولكن قد حل المساء وتحرجنا في النزول على أهلنا في مثل هذا الوقت، فأنخنا الإبل وحططنا الرحال وضُربت خيام المبيت حتى مطلع الفجر، وبعدها ندخل إلى المدينة حين يصدر الناس ضحى.

في المساء جلستُ إلى والدي وذكَّرته أنه لم يفِ بما وعدني به:

- ألسنا في طريقنا إلى المدينة؟!

- أجل.

- وها قد أصبحت المدينة على مرمى سهم أو ضبحة جواد ولم تُحدثني بما وعدتني به! إني سمعتُ في مجلس سمر عثمان بن عُيي رجلاً يقول: «الوعد سحابٌ والإنجاز مطره»، فما لك تجدبُ عليَّ يا أبي.

- أي حديث يا حجاج؟

- من هو زياد بن سُمية؟

- ألا تنسى أبدًا؟!

- لو كنتُ أنسى ما حفظت القرآن وأنا دون العشر وحفظت الأشعار والأمثال والخطب، إني رافقتُ الحَبْر سبعة أشهر ما ذهبتُ له مرةً بقرطاسٍ ولا قلم.

- احمد الله على ما وهبك من نعمة الحفظ وسخِّرها في رضاه.

- الحمد لله دائمًا وأبدًا، هلا قصصت عليَّ ما تُماطلني فيه؟

- يا ولدي، زياد بن سُمية هو أخو الخليفة معاوية بن أبي سفيان من أبيه.

- ولماذا لا يقولون زياد بن أبي سفيان؟

- لأنه ابن حرام، فقد كان أبوه عندنا بالطائف واشتاق النساء فأتوا له ببغي تُدعى سُمية، فوطئها فحملت منه، وحين وضعته رفض أبو سفيان أن يقر به، فسَّمته أمه زيادًا ولقبه الناس بابن سُمية.

- وكيف لابن الحرام هذا أن يصل إلى ما وصل إليه؟

- زياد! آه من زياد! ليتك تكن مثله في قادم الأيام، فهو ما إن شبَّ حتى ظهرت عليه أماراتُ الدهاء والذكاء فولاه الحكام بعض أعمالهم فأجادها وضبطها، فكانوا يولونه كل عَسِرٍ من أمرهم وكل عصاة من رعيتهم فكان رجل حربٍ وحزمٍ وسياسةٍ ومكرٍ.

- ألهذا اعترف به معاوية كأخ له؟

- ما ضر معاوية أن يكون له أخ مثله، وكما سمعت بأذنيك كيف حزم له أمر العراق وأرهب الرعية وقطع ذَنَب خارجهم.

- ما دام الخليفة اعترف به، لماذا يُصر الناس بتسميته ابن سمية؟

- كنت أظنك أفطن من ذلك!

- لمَ؟

- الناس تبحثُ عن مثالبِ الناس لا مناقبهم، لو أن بك ألف شميلة وخصلة سوء واحدة لتركوا الألف شميلة ونعتوك بخصلة السوء. وهم بين معتادٍ على ما مضى وقد اعتادوا الاسم وعرفوه، وبين حاقدٍ يريد أن يحلق العار بقائدٍ نابغةٍ مثله، وأعماله في أهل العراق أخرجت له حاقدين بعدد نجوم السماء.

***

كان الليل بهيمًا لا سيما مع احتجاب القمر، ونباح كلاب أهل المدينة- التي أصبحتُ أنتبه لها دون سائر الحيوانات- بالكاد يصل إلينا، مع ضوءٍ خافتٍ لشعلاتٍ خافتاتٍ أرهقها بُعد المسافة بين مربطنا والمدينة، حين تحلق بعض رجالات القافلة حول جذاء نار تُذكيها تيارات الهواء الجبلي الجافة الخانقة وبأيديهم أقداحٌ من النعناع الساخن المُحلاة بالعسل، فيما خلد باقي القافلة للنوم وكنت منهم. حتى طلعت الشمس وكشفت لنا المُحيط، فبدت المدينة أقرب مما كانت عليه في الأمس، لا أدري أبسبب غمش الغروب تبدو الأماكن أبعد، أم من تعب المسير يبدو الفرسخ فراسخ!

شـددنا الرحـال وركـب كلٌّ منـا ناقتـه ومضينـا ومـا برحـت النيـاق أن تشـد السـير وإلا كنـا علـى أعتـاب المدينـة. وحيـن اقتربـت منهـا اتضحـت معالمهـا أكثـر. فجوهـا أكثـر حـرًّا مـن مكـة، قـال أبـي إنهـا فـي عمـق الصحـراء وبعيـدة عـن البحـار والبسـاتين فجوهـا جـاف لافـح يكاد يسلخ الوجوه، لكن المنازل أكثر عمارةً وأبدع منظرًا من بيوت مكـة والطائـف، ويبـدو عليهـا التطـور والحداثـة لأنهـا يسـكنها الأغنيـاء والمُـلاك بمـن فيهـم بنـو أميـة عائلـة الخلافـة.

***

نزلنـا علـى بيـت قريـبٍ لنـا يُدعـى همـام بـن نعمـان الثقفـي! يبـدو أن قبيلتـي لهـا فـي كل أرض رجالهـا، يقـول أبـي إن ثقيـف كالثـوب المنسـوج، ورجالهـا خيوطـه، وكل خيـط مربـوط بالآخـر يشـد عليـه ويشـتد بـه.

ظل أبي معي يومين عرَّفني على قريبي وأهله وبقية رجال ثقيف فـي المدينـة وأوصاهـم بـي وأوصانـي لهـم بالسـمع والطاعـة وألا أحيـد عمـا أتيـت إليـه، ثـم ذهـب إلـى دار الإمـارة ليصلَ الوالـي ومـن بعدهـا عـرَّج علـى بيـت صديقـه القديـم مـروان بـن الحكـم والـي المدينـة المعـزول، ثـم تركنـي وقفـل راجعًـا إلـى الطائـف.

في يومي الثالث خرجتُ للمسجد النبوي، وكانت المرة الأولى التي أدخله فيها، كان الوقت ضُحى والمسجد خاليًا من العُباد إلا بضعة نفر،

أظن أن أكثرهم من خدام المسجد والقائمين عليه، مما أتاح لي أن أستكشفه، فمن داخل المسجد غربًا تظهر المقصورة التي سمعتُ أن من بناها هو مروان بن الحكم منذ عدة سنواتٍ، وهي عبارة عن غرفةٍ صغيرةٍ مختصرة البناء لها أربع شرفات وأربعة أبواب.

وفي الأمام يظهر محرابُ المسجد وقبو المحراب، وتحت القبو حائط صغير من رُخام يُقال إن فيه عصا الرسول ﷺ التي كان يستند عليها عند قيامه من السجود! لكني لم أرها، فقد سمعتُ من قبل أنها عند سعد القرظ! على يمين المحراب منبر الرسول ﷺ مُحاط حوله بالألواح أظنها وُضعت لئلا يجلس أحدٌ مجلس رسول الله ﷺ ومن أمام المنبر الجذع.

وعلى يسار المحراب سربٌ صغيرٌ يُفضي إلى درجٍ منحدرٍ يُقال إنه ينتهي بدار الفاروق! والقبر الشريف في أقصى شرقي المسجد كان أول ما ذهبت له وسلمت على رسول الله ﷺ وجلستُ، فلفت ناظريَّ على مقربةٍ من المحراب فتى يجلس كأن على رأسه الطير، تبدو عليه أماراتُ النعيم وسمْت الصلاح، ونظرات الجالسين المُختلسة تجاهه يغلفها الإجلال له، مصحفه أمامه يدوي منه كدوي النحل.

اقتربتُ منه على مسافةٍ ليست بالبعيدة فبدت ملامح وجهه، فكان مُشرق الوجه، أبيض اللحية، مقرون الحاجبين، كبير العينيْن،

يُخالط سواد عينيه زرقة، لكن فمه شديد الاتساع حتى رأيت أسنانه فوجدتها مشبكة بالذهب وبجواره منديل يمسح به دمًا يسيرًا ينزف من فمه ويهش به الذباب الذي يتجمَّع على جانبيْ فمه الواسع حول أثر الدم.

حان وقتُ الصلاة فقام من على مصحفه ووضعه في جانب المسجد وعاد راجعًا أظنه يقصد الميضأة، وحين قام اتضح لي أنه فتى رَبْعة أقرب إلى القِصر ليس بالنحيف ولا البادن، وحين مرَّ من أمامي شممتُ رائحة فمه فكان أبخر.

أذَّن المُؤذن للصلاة فسعى الناس إلى ذكر الله وذروا البيع وتوافدوا إلى المسجد، وحين أقيمت الصلاة اصطففنا خلف الإمام، ولأني كنتُ من أوائل المتواجدين بالمسجد فكنت في الصف الأول، على يميني رجلٌ في ملابسه رائحة زيت، لكنها غير محسوسةٍ بشدةٍ كان ممن وجدته في المسجد حين دخلتُ، وما إن انفلت من صلاتي حتى وجدتُ هذا الرجل ممسكًا بطرفِ ردائي حتى كاد أن يقطعه ولم أستطع الخلاص منه.

- ما الأمر، دع ردائي!

لكنه لم يُجبني ولاحظت شفتيْه تتحركان كما لو كان يتلو أذكار الصلاة، فانتظرتُ ضجرًا حتى خلص من ذكره ونظر إليَّ فوجدته أعور العين وعينه السليمة تُحدق بي، وصاح بي صياح مكتوم:

- يا سارق يا خائن!

- أي سرقة يا عم؟! والله لو أباح الله السرقة ما سرقتُ، ولو أباح الخيانة ما خُنتُ، أنا ابن يوسف الثقفي، تُضرب بنا الأمثال في الشمائل، فلمَ تنعتني بتلك النقائص؟!

- تُصلي صلاة مَن يلقي حملاً عن ظهره، فترفع قبل الإمام وتسجد قبله، وإن كان أهلك علموك حُسن الأدب مع الناس فما علموك حُسن الأدب مع الله.

فعلمتُ أنه يقصدُ أني أسرقُ الصلاة، فأعدتُ صلاتي مجددًا وما أن انتهيتُ حتى رأيت ذلك الفتى الأبخر يصلي منفردًا، فسمعتُ ذات الرجل الأعور يقولُ وهو ينظر إلى الأبخر بطريقة مَن يُحادث زيدًا وهو يعني عَمْرًا: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم إنما العبادة التفكر في أمر الله والورع عن محارم الله.

عدتُ لبيت عمي همام وحدي فقد كان قريبًا من المسجد، وعمي همام ليس كمثل عمي يعقوب المكي، فهو لديه أولاد مشغولٌ بهم، وتجارةٌ يُراعيها، وأربع زوجات كأنهن شياطين، متحداتٌ على عصيانه متفرقاتٌ على طاعته، لا يُلبين له طلبًا ولا يُنفذن له أمرًا ولا يسمعن له كلمة، متمردات، ناشزات! لذا كان عمي همام لا يجلس لهن في بيتٍ ولا يجتمع معهن على طعام، وكان دائم الترديد: اعص النساء وهواك وافعل ما شئت!! وكذلك فعلتُ أنا فيما بعدُ فكنت

لا أمكثُ في البيت إلا نائمًا وأمضي النهار في المسجد أو أجوب طرقات المدينة وربوعها أو مع عمي همام في حوانيته.

***

سألتُ عن الرجل الأعور الذي نازعني طرف ثيابي فأخبرني عمي أن هذا سيد التابعين سعيد بن المُسيب، كنت قد سمعتُ الاسم كثيرًا لكن كانت المرة الأولى التي أراه وقد كان فيها ما كان. وعلمتُ أيضًا أنه يُتاجر في الزيت فرجحت أن هذا سبب مس رائحة الزيت التي أتتني منه، ونصحني عمي أن أداوم على حلقته، فهو يجلسُ للتحديث من العصر إلى الغروب في مسجد الرسول.

وحين استخبرتُ عن الفتى الأبخر ذي الفم الدامي، أخبروني أن هذا ابن والي المدينة المعزول مروان بن الحكم، ويُدعى عبد الملك. وأنه من العُباد الزُّهاد حتى إن بعض مُحبيه لقبوه بحمامة المسجد لكثرة مكوثه في المسجد وتعبده فيه، وبعض كارهيه والحاقدين عليه لقبوه أبو ذباب لأنه أفوه والذباب يدخل إلى فمه!

- ولماذا يحقد الناس على عابدٍ زاهدٍ؟

- يا ابن أخي، عبد الملك في العبادة علم وفي السياسة طود.

- ألمثل هذا في السياسة درب؟

- أجل، إنه عاصر مقتل الخليفة المظلوم عثمان، وتولى عمالة بلدةٍ صغيرةٍ في أرجاء اليمن تُدعى هجر، وهو ابن ست عشرة سنة خرج للجهاد في بلاد الروم، ثم عاد وولاه معاوية ديوان المدينة، ثم خرج للجهاد في إفريقية وعاد بالأمس القريب.

***

مجالسُ العلم في المدينة مختلفة عن مكة، ففي مكة كنا نذهب للحَبْر في بيته ويروينا من فيض علمه في شتى العلوم والوقائع، لكن المدينة العلماء يجلسون في أرجاء المسجد النبوي ولكل عالمٍ حلقةٌ وتخصصٌ ووقتٌ محددٌ، ومقتصرةٌ شروحُهم وأحاديثهم على الموضوعات الدينية، كالتفسير والفقه والحديث والرجال.

جاهدتُ أن ألتزم حلقات العلماء بعد تعودي على مجلسٍ واحدٍ للحَبْر فليس لي في الاختلاف إيلاف ولا ائتلاف، حتى ذلك اليوم الغائم الذي أتى فيه جندُ الخلافة ومعهم جند الإمارة وطوَّقوا المسجد النبوي ثم دخل جماعة منهم وفضُّوا من بالمسجد من حلقات علم وأخرجوا العلماء والطلاب، قالوا لنا إن هناك قرارًا من الخليفة بنقل منبر رسول الله وعَصَاته إلى الشام!

هاج أهلُ المدينة وتجمَّعوا حتى طوَّقوا الجند المُطوق للمسجد، فأصبح المسجدُ تحت حصاريْن، لكن الجند لم يتهيبوا لتجمُّع الأهالي العُزل من السلاح بل وجرَّدوا عليهم السلاح حتى ينفضُّوا،

وكعادتـي اسـتخدمت نحولـة جسـدي فـي التموضـع بحيـث أرى مـا يحـدث داخـل المسجد، فرأيتُ حـدادًا قـد جلبـوه معهـم فـي يـده أجنـة ومطرقـة غليظـة وأخـذ يطـرق علـى السـياج الحديـدي المُحيـط بالمنبـر ليخلعـه عـن موضعـه ليتمكنـوا مـن حمـل المنبـر.

أخـذ الحـداد يعمـلُ فـي طرقاتـه وأخـذت الشـمس تغيـبُ بالتزامـن مـع كل طرقـةٍ حتـى كُسـفت الشـمس وأظلـم النهـار واسـتحالت السـماء سـوداء كالحـة، حتـى إنـي رأيـت النجـوم مـن ظلمتهـا!

فكبَّـر النـاسُ وتهللـوا لهـذه البشـارة وأنهـم علـى حـق وأن مـا دونهـم علـى باطـل، فتوقـف الحـداد عـن طرقـه فانجلـت الشـمس وعـادت تبـث أشـعتها وعـمَّ نورهـا المدينـة، فكبـر النـاس مجـددًا وهتفـوا وهتفـت معهـم «للمنبـر رب يحميـه؛ للمنبـر رب يحميـه».

حـاول رجـالُ الشـرطة تفريقنـا مجـددًا لمـا عـاد للنهـار نـوره لكـن العزيمـة أصبحـت مضاعفـة والتشـبث بلـغ ذؤابتـه، ولمـا كُسـفت الشـمس خـاف كل مـن فـي البيـوت علـى أنفسـهم فعـاذوا بالمسـجد، فأصبـح عددنـا مضاعفًـا لأنـه انضـم لنـا الشـيوخ والنسـاء مـن شـتى أطـراف المدينـة.

رأيـتُ قائـد الشـرطة وهـو يأمـر الحـداد بمعـاودة العمـل لكنـه حـرن كفيـلِ أبرهـة، فصـرخ فيـه حتـى دوى صوتـه بالمسـجد ومـن حولـه: أي لعنـة يـا أخـرق! مـا هـي إلا سـحابة حجبـت نـور الشـمس ومـا لبثـت أن

مرت! لكن الحداد بقى على حرونهِ وألقى بالأجنة والمطرقة إلى قائد الشرطة وصرخ فيه وكأنه لا يخشى أن تفارق رأسه جسده: افعلها بنفسك إذا أردت! لو كنت مكان القائد لم تهاونت في أن أسلب هذا الحداد كلتا ذراعيْه! لكن القائد كان أريث من ذلك فلم يجد بدًّا من سحب جنوده والعودة لدار الولاية حتى يرى رأي قصر الخلافة.

لما رأى الناس تجرؤ الحداد وتهاون الشرطي معه ثارت فيهم غريزة العصيان، فهكذا تشتعل الثورات، أحد الرعية يتجرأ، ولي أمر يتهاون، كل الرعية تثور! وهكذا يشرد القطيع، نجعة تنحرفُ، يتركها الراعي، تتبعها أخرى وهكذا يتشتت القطيع! لكن لو قطع لسان كل من علا صوته لنزلت الرضع من أرحام أمهاتهم دون صراخٍ وبقيت على ذلك إلى أن احتوتها القبور.

بعدما اشتعلت حماسة التمرد، دخلنا إلى المسجد حتى لم يعد فيه موضع نملة، لو نثرت السُّكر لمَّا استقر أرضًا، وبقي خارج المسجد أضعاف من بداخله. خطب أحد العلماء الذي لم أتبين من هو من شدة الزحام، فوصلني صوته دون أن أرى جسده أو أميز صوته من كثرة اللغط حوله.

تحدث عن حُرمة المسجد النبوي ووجوب بقائه كما هو، وأنه ليس إرثًا ولا متاعًا حتى يستأثر به شخصٌ لنفسه، أو تختص به حكومة لنفسها وظل يسأل الناس ليستثير حماسهم للدفاع عن منبر الرسول:

- أليس هذا منبر الرسول؟!

فيردد كل من بالمسجد وخارجه:

- أجل أجل.

- أليس هذا مسجد الرسول؟!

- أجل أجل.

- أيفارق الجسد فؤاده؟!

- كلا كلا.

-أيفارق البؤبؤ محجره؟!

- كلا كلا.

وظل هذا الحماس مستعرًا والحمية صائفة ولا أحد يبرحُ المسجد ولا يبتعد عنه، ومن مكانٍ ما سمعنا النداء: الرباط الرباط! وردد بعض واحد من أماكن شتى:

- لن نبرح الأرض حتى يحكم الله.

- لن نرحل حتى يرحل جند الشام.

- أهذا معاوية القرشي أم أبرهة الحبشي؟!

هبَّ كل نفر يتخذ موضعه للرباط، وأصحاب المنازل القريبة مدُّونا بالحصائر لنفترشها ورتب الناس مواضعهم في المسجد، وخرج من كان بالمسجد ليخفوا الزحام لا سيما أن عمارة المسجد لا تتحمل هذا التدافع والتزاحم.

دام الرباط ليلتين، علمنا مما تسرَّب لنا من أخبار أن والي المدينة بعث على إبل البريد- وهي أسرع وسيلة للسفر وأكثر تحملاً لمشقته- كلاًّ من جابر بن عبد الله وأبا هريرة إلى قصر الخلافة في دمشق ليُراجعا معاوية فيما قرَّر وينقلا له غضب الناس ورباطهم حول المسجد ويصفا له الكسوف الذي حدث حين همَّ جنوده بالاقتراب من المنبر. فعادا بقرار سحب جنود الشام وعودتهم إلى بلادهم وليبقى منبر الرسول في مسجد الرسول.

لا أدري ذلك التضارب الذي اختلجني، فبينما أنا أهتفُ لبقاء المنبر كنتُ حانقًا من عصيان ولي الأمر، فكيف يقرر خليفة المسلمين أمرًا ويُجابهه الناس، ألم يُبايعوه على السمع والطاعة؟! بعدما انفض الرباط وعاد جند الشام وعادت الحياة للمدينة كما كانت عليه تحدثت مع عمي همام في ما بي من تساؤلات:

- الحاكم بشرٌ، والبشر خطاء يا ابن أخي.

- إن أحسن فله الأجرُ وعلينا الشكر، وإن أساء فعليه الإصْرُ وعلينا الصبرُ، هكذا أُمِرنا يا عماه.

- وإن تيقنت الرعية من خطأ الحاكم؟

- زمرة على خطأ خيرٌ من أفذاذٍ على صواب، فاليوم نخطئ ونحن جماعة، غدًا نُصيب ونحن جماعة، ولا يتفرق الرأي بالأهواء.

- قبَّح الله رأيك، ما اجتمعت جماعة على خطيئةٍ إلا كانوا أشر أهل الأرض.

- هذا كلام من خلع عباءة الطاعة.

- أترى أن كل أهل المدينة خلعوا عباءة الطاعة، أتقول إن صحابة الرسول وتابعيه عصوا ولي أمرهم؟! الرحم التي أنجبتك!

- لم أرَ رأي هوى ولكني حفظت كلام الله ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

- ألم تحفظ أيضًا ﴿وأمرُهُم شُورى بينهم﴾؟ ألم يذهب صحابة رسول الله لولي الأمر ليشاوروه فيما قرر؟

- يشاورونه أم يُخوفونه؟ ثم هل شورى من بعدها قرار أم قرار من بعده شورى؟

- يُخوفونه بالحق.

- بل خوفوه برباط الناس، وتمردهم.

- لو كنت مكان معاوية ما أنت بصانع أيها الغلام المُجادل؟

- سلطان تخافه الرعية خيرٌ من سلطان يخافها. والله لو طارت أول عنق اشرأبت للعصيان لطاع كل من رآها.

- وماذا عن كسوف الشمس؟

- الشمس تكسف والقمر يخسف، تلك آيات الله.

***

رحلتي للمدينة كانت أخصب، وأكثر إثارةً وتجددًا، لأنها أقرب للشام والعراق وتتوسط الحجاز فكانت أكثر حراكًا وتطورًا من مكة، وإن كنت شغلت نفسي بمشاغل أخرى مع طلب العلم، فاتجهت إلى تعلم الفروسية وساعدني في ذلك أبناء عمي همام وانشغاله عنا بتجارته وزوجاته المُنغصات عليه حياته فكان لا يوليني اهتمامًا كبيرًا أو يضيق عليَّ المُتابعة والملاحظة.

كنا ندخل إلى الإسطبل خلسةً ونفك الجياد ونخرج بها إلى الصحراء نتسابق، وإن قابلنا أي من رجال الشرطة الذين كثر تواجدهم في الطرقات تقيدًا لأي انفلاتٍ وسألنا عن وجهتنا، كنا نخبره أننا ذاهبون بها إلى البيطار أو العَلاف أو للترويض، كانت

جيادًا عادياتٍ، ليست مثل حصاني الهزيل الذي تركته في مكة، في البدء كنتُ لا أجيد ركوب الخيل حتى اعتدتُ السباق فكنتُ أسبق أبناء عمومتي.

ثم تطلعتْ نفسي لتعلم حمل السيف والمبارزة، لكن أنَّى لي بسيف؟ حتى وإن احتلتُ وانتهزتُ فرصة خروج عمي همام وانشغال زوجاته بالشجار فيما بينهن وحصلت على سيفه الذي يُخبئه تحت فراشه، فكيف لي أن أخرج به إلى طرقات المدينة وخيَّالة الشرطة لا تكل من تفقد الشوارع والنظر لما في أيدي المارة!

جاءتني فكرة أن أحاكي السيف الحقيقي بسيف خشبي، فتسلقت نخلة من النخلات المنثورات حول البيت واقتلعت ثلاث جرائد سميكة تفي بالغرض، وألقيتها من علٍ ثم هبطتُ خلفها فساعدني أبناء عمي في تهذيبها وتقطيعها حتى تُحاكي شكل السيف، لكن كان فرق الوزن واضحًا، فأذكر في المرات التي كنتُ أحاول أن أحمل فيها السيف الحقيقي لم أكن أستطيع ذلك، لكن في الجرائد فقد حملت الثلاثة بيدٍ واحدةٍ! حتى اقترحت عليهم أن نعلق في مقبط كل سيف حجرًا يُثقل من وزنه ويكل يد مَن يحمله.

وقد كان؛ فكنا نخرجُ نتبارز وكل منا سيفه معقودٌ به حجرٌ حتى شدت سواعدنا واعتدنا الأحمال، ثم تعلمت الرماية وصنعت لها

قوسًا وسهامًا، وكذا قد ألممتُ بركوب الخيل والرماية وبقيت لي السباحة، لكن أنَّى لي بالبحر!

***

استمرَّت أيامي في المدينة على حالها، بين حلقات العلم، ومسابقات الجياد، المبارزة، كانت تدورُ رحى ساعات يومي حتى غلبني الحنينُ إلى الطائف، فقد مكثتُ في المدينة ثلاث سنوات أو أربعًا لا أذكر تحديدًا فالأيام بدت متشابهةً من بعد عامي الأول هنا، سوى من الخبر الذي زلزل المدينة، فقد راجت شائعاتٌ أن زياد بن أبي سفيان يُراسل الخليفة في دمشق ليستميله ليُعطيه العهد على الحجاز أيضًا! أيكون زيادًا هو أول من جُمعت له البصرة والكوفة ومكة والمدينة؟! أيبحث عن خلافةٍ داخل الخلافة؟! فإذا قام زياد بالولاية على الشرق الأموي والعراق والحجاز، فما بقي في الخلافة إذن؟ الشام وإفريقية؟ هلا طلبهما أيضًا!

لكن لماذا يخشى الناسُ زيادًا إلى هذا الحد؟ ما لبثوا رعيةً مطيعةً تنزل على أوامره وترتفع عن نواهيه فلا يضيرهم مَن تولى أمرهم لو كان إبليس ذاته! ألا إن الذئب لا يأكُل إلا الشاردة؟ فليس لزيادٍ سبيلٌ إلا للعصاة!

احتدمت المدينة غيظًا وفاحت رائحة الكراهية لزياد، حين تسرَّب لهم النبأ اليقين بأن زيادًا أرسل لمعاوية معرضًا بمكانته

وكفاءته وأن ما فعله بالعراق أقل ما لديه وبقي عنده الكثير ليقدمه للخلافة، فقد بعث له خطابًا مفاده «إني قد ضبطت العراق بشمالي ويميني فارغة فأشغلها بالحجاز»، فكتب له معاوية عهده على الحجاز ليضبطها مثلما فعل بالعراق لا سيما أن ما حدث يوم المنبر لا ينذر بخير، فإذا عصى الرعية مرة، فالعصيان شيمتهم، ألم يُقتل الخليفة المظلوم وهو بينهم! فلا بد لهم من سيفٍ صارمٍ ووالٍ حازمٍ.

كعادتهم دائمًا لجأوا لعلمائهم وأهل الفضل فيهم، فذهبوا لابن عمر ونعوا له النبأ فأمرهم بالدعاء عليه، ودعا أمامهم فأمَّنوا عليه، وأصبح الجهر بالدعاء بألا يتولى زياد أمرهم كالتلبية للحج، وكل مَن سار في الطرقات يُردد دعاء ابن عمر على زياد: «اللهم اكفنا شر زياد». حتى إن الرجل إذا قابل صاحبه ألقى عليه السلام فيرده عليه، ثم يردد الرجل هذا الدعاء فيؤمِّن عليه صاحبه! حتى عمي همَّام جعل هذا الدعاء ملازم لسانه حتى في تجارته فكان إذا باع بضاعة لزبون دعا له بالبركة فيها وأن يكفيه الله شر زياد!

لكني لم أردد الدعاء قط، بل كنتُ أدعو الله أن يتولى زياد الحجاز، كنتُ مبهورًا به وما سمعتُ عنه، مشدوهًا بسيرته وأفعاله، وددت لو رأيته رأي العين، وعاصرته عن قُرب، ولمستُ عزمه وحزمه، آملت في نفسي أن أكون مثله يومًا ما، فما أشهى أن ترى الرهبة منك في عيون الناس، أن تسبقك هيبتك من على بُعد أميالٍ،

أن يخشاك القاصي والداني والعاصي والمُطيع والبار والفاجر والعالم والجاهل والشيوخ والأطفال حتى الأجنة في الأرحام.

كثيرًا ما يرجو المرء ما لن يناله، وما رجوتُ الله به ليالي ذهب سدى، فقد أتى البريدُ بنبأ موت زياد قبل أن يخرج للحجاز! فكان لي نعيًا ولكل أهل الحجاز بشارة! فأضمرتُ ما في نفسي ولم أبدها لهم، وعُدت لسابق عهدي فسمعتُ للكثير من صحابة رسول الله وتابعيهم، وحضرت مجالس السَّمر وندوات الشعر ومعارك الشعراء، وتعلمت فنون القتال ودهاء الفرسان، لكني لم يعد لي بالمدينة ولا بأهلها ولهٌ وأصبحت الحياة رتيبةً معتادةً ولم أعد شغوفًا بها مثل البداية فجهزت نفسي وركبت أول قافلة راحلة إلى الطائف.

عدتُ للطائف فوجدتها كما هي، ثم نزلتُ منها إلى قرية الكوثر، منشأي ومسقط رأسي ومرْبَع أهلي، ومُستقر عائلتي، فوجدتُ أبي ما زال يُعلم الصبيان في أوقات فراغه ويُراعي أملاكه غالب الوقت، وما زالت أمي تُصدر صوتًا أثناء سيرها من كثرة الحُلي الذي تلبسه:

- أشرقت الكوثر يا ولدي.

- مشرقة لأن بها الفارعة يا أمي.

- هل بعثناك لتتفقه في الدين أم في الغزل؟

- هي شهادة لله، وتعلمت ألا أكتم الشهادة يا أمي.

- خرجتَ من هنا مُلسنًا، عُدت متفنن الحديث، عذب اللسان.

- ما هي إلا أقوال قلبي، ترجمها لساني، يا قرة عيني.

- قرة عينك! وهل سأظل قرة عينك بعدما تقر بمن ستراهن؟!

كنتُ أحسب أمي أعقل من النساء، لكن النساء هن النساء! لا يفكرن سوى في زواج الأبناء، ورؤية الحفدة! فوجدتها مُعدة لي قائمة بفتياتٍ تراهن يصلحن لي كزوجاتٍ وعليَّ أن أختار إحداهن لأتزوجها! ولم أرد كسر خاطرها وهادنتها بالتمهل حتى أرى رأيي في الأمر.

***

وجدتُ أخي محمد قد حفظ القرآن وحان وقت خروجه لمكة للاستزادة من العلم مثلما خرجتُ قبله، فهل يُلاقي مثلما لاقيت؟ أرجو الله أن يكون الحصان الهزيل ما زال حيًّا حتى نطمئن على محمد فحادثة سقوطه محفورة في ذاكرتنا.

- إذا أتيت مكة، فالزم الحَبْر ولا تسمع من غيره، فعنده كفاية الكفاية.

- لا تُملني ودعني أخضْ غمار التجربة!

- آه يا آل يوسف، كلكم مُجدل!

***

أبـي متـوردُ الوجـه، منبسـط الأسـارير، يقـول بـأن فرحتـه مضاعفـة بعودتـي وعـودة مـروان بـن الحكـم لولايـة المدينـة مجـددًا، أخبرنـي أنـه سيذهـب بمحمـد إلـى مكـة ومـن ثـم يذهـب إلـى المدينـة ليبـارك لصديقـه القديـم علـى عودتـه للإمـارة

- أراك مبتهجًا كما لو كنت الأمير!

- ليس لي في الإمارة شغفٌ.

- فلماذا تتملق الولاة؟

- لتأمن السهام، كن بجوار الرامي.

- سهام مكة أقرب، فلماذا ابن الحكم خاصة؟

- كلهم من كنانةٍ واحدةٍ يا حجاج، لكن مروان صديقٌ قديمٌ قد عرَّفني عليه عمك المغيرة رحمه الله، وهو أقرب رحمًا للخليفة، وذو كلمةٍ في بني أمية.

***

انطلق أبي ومحمد نحو مكة وعهد إليَّ بتعليم الصبيان ومتابعتهم وهذا ما كان يطمح أبي إليه، أن أعودَ لأعاونه في تعليم الصبيان ومراعاة مزارع الكرْم، وقطعان الإبل. وقد كنت عند حُسن ظنه فقد عمدتُ إلى ما وكلني له بكل حزمٍ وعزمٍ، وقد تأثرتُ بابن عباس في طريقته فكنتُ أعلم الصبيان من مطلع الشمس حتى الظهيرة، ثم أقيلُ حتى العصر وبعده أمتطي جوادي وأتفقد المزارع والإبل وفي المساء في مجلس السَّمر.

أقمتُ على هذا المنوال نحو عامين، حتى هاجت البلاد وتفرقت الآراء حول نية الخليفة معاوية بأخذ البيعة لابنه يزيد من بعده، وترددت كلمة جديدة على مسامعنا؛ «التوريث»، واعجباه لتفرق الجماعة! فما العائق في أن يجتمع الناس على رجلٍ يلي الأمور من بعد رجلٍ حتى لا يتفرق شملُ الأمة؟! يرفضون يزيد لأنه ابن معاوية! فهل يصلح للحكم إلا ابن حاكم؟! ألم يعلموا أن خليل الله إبراهيم أول من نادى بالتوريث لذريته؟! ما للرعية يضعون أنفسهم موضع الحكام! ألم يُبايعوا على السمع والطاعة؟ ألا إن أمير المؤمنين رأى أمرًا، فالرأي والأمرُ لأمير المؤمنين! والله لو كتب بالبيعة لعبدٍ حبشي وليس لابنه يزيد لبايعته ولأن نجتمع على حاكمٍ فاسدٍ خيرٌ من أن نتفرق بين حُكامٍ عُدولٍ، فالله الله في الجماعة، فالله الله في الطاعة.

***

مـرَّت المُعضلـة كمـا أراد معاويـة، وأخـذ البيعـة ليزيـد بدهائـه وحكمتـه، وتوالـت السـنوات علـيَّ فـي الكوثـر مكـررة، مُعتـادة، مُتشـابهة، لا خـلاف فيهـا، فـلا أعلـم هـل الرتابـة هـي مَـن تُلازمنـي أينمـا حللـت، أم أنـا الملـول التـواق للتغيـر والرحيـل؟! فبيـن تعليـم الصبيـان ومراعـاة الأمـلاك ومجالـس الأخبـار تـدورُ رحـاي، حتـى أصابتنـا فاقـة أتـت علـى الأخضـر واليابـس. ففـي سـنة سـتين أصـاب السـيلُ الطائـف حتـى مـلأ الـوادي وفـاض فجـرف البسـاتين فأتلـف المحصـول الـذي قـد اقتـرب حصـاده، وقطيـع الإبـل كان يرعـى فـي الـوادي حيـن جـرى الـوادي فطـمَّ علـى القـرى، وفاجـأه السـيل فتسـارع فـي الهـرب وتزاحـم حتـى سـقطت نصـف الـرؤوس معظمهـا مـن النـوق العِشـار!

أمـا مـزارع الكـرْم فأصابهـا العفـن ولـم نتوقـع أن نحصـد إلا ربـع مـا كنـا نحصـده! حتـى المحصـول كان رديئًـا، آسـنًا لا يقبـل كلـبٌ أن يأكلـه طازجًـا، ومـا بقـي مـن قطيـع الإبـل أصابتـه الحُمـى وهـزل وتسـاقط شـحمه وكأن المصائـب لا تأتـي فـرادى.

أوجـم أبـي وأسـف بالـه، فالمصيبـة مضاعفـة ولـم تكـن فـي الحسـبان، فصـروف الدهـر باغتتـه ولا أشـد مـن المصيبـة إلا حيـن غفلـة، ومـا أسـوأ تقلـب الدهـر؛ وأنـا لـم أعـد صغيـرًا وعلـيَّ مواجهـة الشـدائد والصعـاب، فـلا امتحـان إلا فـي محنـةٍ، وفـي الرزيئـة يُعـرف الرجـال.

- وكل الحادثات إذا تناهت؛ يكون وراءها فرج قريب

- آمل ذلك يا ولدي.

- عند القنط يأتي الفرج.

- يا ولدي ما بي من قنوط، لكن ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ المحصول لن يكفي لسد تكاليف الزراعة، وكل النوق العشار نفقت، وأنت تعلم تكاليف السيادة والزعامة بعد أن كنا مستورين أصبحنا مديونين.

- لولا المشقة لساد الناس كلهم؛ الجود مفقرٌ والإقدام قتَّال

- أهذا ما ستُعزيني به؟ هل أنجبتُك لتتمثلَ لي بالشعر وقت الشدة؟ والله لأي شاعرٍ بائسٍ من شعراء الطائف لأغناني عنك. تصرَّف يا حجاج أنت لم تعد صغيرًا!

لا حيلة لديَّ الآن، ولا أدري ما أصنع، فلم أعتد من الحياة على خشونتها، ولا بد أن يبقى أبي في منزلته بين الناس، ولا بد لبيتنا أن يظل مفتوحًا دائمًا لقِرَى الضيف وإغاثة الملهوف، وإعانة ذي الحاجة. ولا بد من أن يبدو بيت يوسف الثقفي دائمًا منبعًا للخير لا ينضب قط! حتى أمي الفارعة رغم كثرة ما تملكه من حُلي رفضت أن تساهم بشيء منهُ لنمر من تلك الضائقة، فهي بنتُ عظيم القريتين

وأكثر نساء الطائف حليًّا ولا بد أن تبقى كذلك، ففي موطني ليس ضروريًّا أن تكون غنيًّا، المهم أن تبدو غنيًّا.

***

في الليل أرقني السهادُ وتحامل عليَّ الفكر، فالديْن همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار. ولن يتحمل أبي أن تنزل به الحياة من قمة الدعة إلى قاع الفقر! حتى أظنه أضحى يخشى أمي أن تفارقه، فضجرت مضجعي وخرجتُ إلى الفناء فوجدتُ أبي قد سبقني ويتمثل بشعرٍ يؤكد ظنوني:

فإن تسألوني على النساء فإنني بصيرٌ بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصيب

- لا تقل هذا يا والدي، فأنت سيدُ ثقيف وإن قلَّ مالك، وأفحل رجالها وإن شاب رأسك.

- يا ولدي على قول القائل:

استعذ بالله من أشرار النساء وكن من خيارهن على حذر

يبدو أن حدثت مشادة بينه وبين أمي فتركها وخرج مثلما خرجتُ فأمضينا ليلتنا نتبادل أطراف الحديث حتى أذن الفجر،

وفـي الصبـاح ذهبـتُ للمـزارع وتفقـدت عناقيـد العنـب، كانـت الحبـات مُنكمشـة، ذابلـة، ليسـت نضـرة ولا مكتظـة كمـا عاهدتنـا الأرض بالعطاء، فبـدت لـي أقـرب إلـى الزبيـب! فخاطرتنـي طويـة. فلـمَ لا نُجففها ونبيعها كزبيب! فموسم الحج قادمٌ وللطائف سُمعتها في الزبيـب والمُجفـف مـن الفواكـه.

أذنت في العمال بالحصاد في أسرع وقت، فقد كان أبي يرى أن المحصـول لـن يفـي بتكلفـة الحصـاد فـلا جـدوى منـه وقـد خربـت المـزارع، لكـن آمـل أن تسـير الأمـور كمـا خططـت.

أحضـرتُ قـدورًا كبيـرةً مملـوءةً بالمـاء وأشـعلت النيـران تحتهـا ووضعت فيها حبَّات العنب حتى أرهقها الغلي، ثم أخرجتها ونشرتها في الشمس حتى جفت، مكثت أكرر الأمر طوال عشرة أيام، فالعمال تحصـد وتُرسـل لـي وأنـا أجفـف يومًـا بعـد يـومٍ حتـى اكتمـل الحصـاد فنتج لـدي من الزبيب حِمل سبعة أباعير فشددت بها الرحال على مكـة.

كانـت أول قافلـة فواكـه مُجففـة تخـرج مـن الطائـف هـي قافلتـي، فوصلت مكـة فـي أواخـر ذي القعـدة وهـي مكتظـة بالحجيـج والسـوق مُتعطش للزبيـب، لكـن التجـار أعرضـوا عـن بضاعتـي المُزجـاة! حاولـتُ أن أقنعهـم بهـا لكـن كيـف لـي أن أقنعهـم ببضاعـةٍ لسـتُ مقتنعًـا بهـا، فليس هـذا مـا عهـدتُ مـن خيـر الطائـف وليـس هـذا مـا عهـدوه.

- إنها أفضل ما جادت الطائف هذا العام.

- لكنها ليست أجود ما بالأسواق يا حجَّاج، مَن يشتري زبيبًا آسنًا؟!

- الجو اضطرب بالطائف وأصابنا السيل.

- وهنا الجو أكثر اضطرابًا، ولا نظن أن الحج سيُقام هذا العام.

- ما الأمر؟!

- هنا ابن الزبير والحسين يجمعان الناس، ويرفضان البيعة ليزيد.

- ألم يكونا بايعا لمعاوية؟

- قالوا إنهما أرغما عليها.

- وماذا يزيد بصانع؟

- وجوه الناس لا تشي بخير يا ابن يوسف.

- دعنا من السياسة، ألن تشتري الزبيب؟

- الأربعة أصوع بمائة درهم.

ماذا يظنني هذا التاجر؟ والله لو أنا لص وسرقت هذا الزبيب من على أبواب مكة ما بعته بهذا الثمن! والله لو أربعة أصوع من ماء زمزم الموفورة لغلا ثمنها عن ذلك.

أخذتُ بعراني بما تحمل وذهبتُ لمنزل عمي يعقوب فوجدته قد مات! وبقيت زوجته وحيدةً كالشمس، فتذكرت أن نعيه أتانا ذات يوم، لكن الشدائد تُنسي، حتى بستاننا الذي كان يرعاه خرب من بعده فالعمال الذين وكلهم أبي برعايته لم يعولوه مثلما كان يعوله عمي يعقوب، بل سرقوه!

شونت بضاعتي في فناء المنزل وأخذت منها عينة طفت بها على باقي تجار مكة، الذين لم يختلف حديث واحد فيهم عن حديث سابقه، كأنهم بصقوا في أفواه بعض!

ما كان لديَّ من بدٍّ سوى أن أتعامل مع الزبائن مباشرة فالوقت يمر وموسم الحج سينفض وسيذهب كلٌّ إلى بلده وسأبقى أنا وزبيبي الكاسد دون أن يُفارق أحدنا الآخر.

افترشتُ بضاعتي في منطقة الحوانيت جوار الحرم، بعدما أجرت مساحة أرض أعرض فيها بضاعتي، عرضت الصاع بمائة درهم فلم يقربني أحد للشراء سوى من يقلب في الزبيب ويرحل، أو من يطلب الثلاثة أصوع بمائة، لكني أرفض، حتى عرضت الصاعين بمائة درهم فبدأت الحركة تتجه لي وبعتُ في يومي الأول حمل بعيرٍ وبقي لدي ستة أحمال.

في يومي الثاني كنتُ قد ألفت المهنة ومعاملة الناس في البيع والشراء فكنت أعرض للمشتري الذي يريد عشرين صاعًا أن يشتري أربعين وسأنقص له من ثمنها مائتي درهم، ومن يشتري ستين صاعًا سأحاسبه على خمسين صاعًا فقط. فراجت تجارتي وبعتُ في هذا اليوم ثلاثة أحمال بعير والثلاثة الباقية بعتها في يومي الثالث.

حين عُدت للطائف بالمال، وبعد حساب نفقات الحصاد والصناعة والنقل، توفر لدي ما كان يوازي نصف إنتاج العام الماضي، وهذا بكل المقاييس يُعد ربحًا عظيمًا، فبعد أن كنا نعاني الخسارة لدينا ربح. لكن أبي لم يكن سعيدًا بما صنعت.

- ابن يوسف الثقفي بائع زبيب.

- وجدتُ التجار يُبخسون بضاعتي، فهل أنخدع لهم، أم أطعمها لدواب مكة؟!

- تحملها وتعود أو تلقها في بطن وادٍ، ولا يقول الناس إن ابن أشياخ الطائف يفترشُ طرقات مكة ليبيع زبيبًا ويتعامل بالصاع والدرهم.

- كلام الناس سهامٌ لا تُصيب إلا المُلتفت لها.

***

عرضتُ على أبي أن أعودَ لمكة وأتاجر بهذا المال عله يتضاعف، فخيرُ الربح في التجارة والوقت وقتُ حج، والعرض والطلب قائمٌ:

- وفيمَ ستتاجر يا ابن يوسف؟

- ساق الناسُ الهدْي وسينحرونه.

- قصَّاب؟!

- لا أدري، سأذهبُ وأرى.

خرجتُ مجددًا إلى مكة، وقد أخذتُ معي شحنةً جديدةً من الزبيب والفواكه المُجففة قد اشتريتها من أصحابها الذين لم يقدروا على السفر بها، كانت أفضل حالاً من سابقتها فساعدني هذا في سرعة التصرف فيها مع جني ربحٍ وفيرٍ فقد بعتُها لتاجرٍ مباشرةً حتى لا يلومني أبي أني أفترش طرقات مكة.

مكة تعج بالحجيج، من كان من البلاد القريبة ساق الهدْي معه، أما أصحاب السفر الطويل أو من ركب البحر في طريقه للحج فقد نوى أن يشتري من هنا، لذا كانت تجارة الإبل والشياه رائجة، فتاجرتُ فيها. لكن لم يرق لي الحال فيها فتركتها رغم ما كنت أجنيه من ربح!

كأن مطرقة سقطت على مؤخرة رأسي حين تذكرت صاحب الحمام الزاجل الذي عاملته قبل عشر سنوات! ألم يكن هذا الرجل دباغًا؟ قبل أن تطير الفكرة من رأسي وجدتُ قدميَّ تسوقانني إليه ولم أخطئ الطريق رغم تغير معالم مكة لأن رائحة الدباغة هي ما كانت لي خير مرشد.

عشر سنوات غيَّرت ملامح بدنه، لكن الجُبن في عينيه لم يتغير، قلَّ شَحْمه وشَاب شَعْره إلا أنه ما زال في صنعته، وهذا ما تمنيته.

- ألا تذكرني؟

- لو تذكرتُ كل مَن عاملته لن أجد في رأسي متسعًا لأحفظ اسمي.

- ألا تذكر الغلام الذي أتاك منذ عشر سنوات وجزاك أفضل من جزاء سنمَّار؟

أخذ وقتًا كي يتذكر وعرفت أنه تذكرني حين لمعت عيناه بالغلِّ الدفين:

- الغلام الثقفي! لا جمعني الله بك قط.

- دعك مما مضى، نحن تُجار اليوم.

- تجار! والله لو....

قاطعته ألا يُقسم:

- صبرًا يا عماه، فلا تدري كم من خير سيكون بيننا.

- ولو خير المشارق والمغارب، لو بايعوني عوض يزيد ما عاملتك قط.

- لقد شهدت على نفسك.

- شهدتُ بمَ يا فتى؟

- المعاملة الماضية كانت أيام خلافة معاوية، أما اليوم فنحن في خلافة يزيد.

- ما الفارق؟

- الخليفة تغيَّر، فما بالك بالرعية، فربما تغيَّرت معاملتي .

استمهلته حتى يعرف ما ورائي، فإن أعجبه ما أتيت به فبها ونعمت، وإلا فلن يخسر شيئًا فلم يقر ضيافتي ولم يسقني شربة ماء.

- هاتِ ما عندك!

- الهـديُ كثيـرٌ وسـيُنحر فـي آنٍ واحـدٍ، فأيـن سـتذهب كل هـذه الجلـود؟

- اذهب إلى وديان مكة وأنت تعلم!

- بل أعلمني الآن!

- ينحـر كل حـاج هدْيَـه، وينتفـع بمـا أراد ويتـرك مـا استغنى، حتـى تكثـر الجيـفُ وتُلقـى فـي وديـان مكـة تأكلهـا السـباع.

- ولماذا لا تنتفع أنت بهذه الجلود؟

- المعروض يكون كثيرًا بل كثيرًا جدًّا، فأختار أجود الأجود.

بعدمـا سـمعتُ منـه تفاصيـل مهنتـه، وعلمـت حوائجـه وعرضـت عليـه أفـكاري اتفقنـا علـى المشـاركة، سأسـتعملُ عمـالاً لجمـع مـا اسـتطعنا مـن جلـود الهـدْي ويقـوم هـو بتخزينهـا ودباغتهـا.

- وهل سنستطيع معالجة كل هذا الكم؟

- ستُعملني الدباغة وسنستعين بعمال لمعاونتنا.

- لكـن مكـة لـن تتحمـل كل هـذا الإنتـاج وسـيكثر العـرض ويقـل

الطلب، وما سنربحه باليمين سنخسره باليسار!

- لن نبيع في مكة.

- أين؟

- دمشق.

***

مكثتُ عامين في تجارة الزبيب والمُجفف من فاكهة الطائف ذائعة الصيت، وفي مواسم الحج وما بعدها في جمع الجلود ودباغتها ثم السفر بها إلى حاضرة الخلافة حتى اضطربت أحوالُ الخلافة وضيَّق علينا أهلُ مكة في تجارتنا حين علموا أنها تذهب إلى الشام. فآثرتُ السلامة ومكثت في الكوثر كسابق عهدي أعلم الصبيان. وما خرجت منها إلا للعراق لأقاضي عروة بن المغيرة بن شعبة في ميراث أختي من أمي، ثم عدت مجددًا وما برحتها حتى خرجتُ في بعث الطائف للجهاد في مصر، فخرجتُ من الطائف وأنا أنوي ألا أعود إليها.

***

جَرِير

-4-

للباديـة رغـم سكونها ونـدرة متغيراتهـا طبـعٌ خـاص، ذلـك الطبـع الـذي منحنـي فرصـة الاحتفـاظ بصرامـة ألفاظـي حتـى لا تنحـدر مـن اختلاطي الشحيح بالحضر، فها هنا منشئي، وموطني، ومصدر فخري، ومنبت شِعري، وها هنا الباديـة التي يقصدهـا أبنـاء الملوك والخلفـاء وأهـل بيـت الحكـم حتـى يُصقلـوا لغتهـم فـلا يُحصَـروا ولا يلحِنـوا.

لكنـي مللـتُ العيـشَ مـن رتابتـه، وتشـابُه أيامـي كتشـابُه الغـراب بالغـراب. ففـي الصبـاح أرعـى عنـزات أبـي فـي الفيافـي التـي أبـت ألا تجـود إلا بمُـر الـزروع ونـدرة الميـاه والرمـال التـي ألهبتهـا الشـمس. وفـي المسـاء اجتماعـي مـع عشـيرتي لأُسـمعهم شِـعري وليُسـمعوني مـا هجانـي الشـعراءُ بـه، وهكـذا تتكـرر حياتـي حتـى ذلـك اليـوم الـذي مرَّ بـي رجلٌ مـا رأيتـه قبلهـا قـط، تبـدو عليـه علامـاتُ السـفر وكثـرة الترحـال.

جلس إلـيَّ وتجـاذب أطراف حديـثٍ يعلـم كلانـا أنـه لدفـع شـمس الظهيـرة نحـو الغـروب ليتمكـن كل منـا مـن متابعـة مـا انشـغل بـه، تذاكرنـا الأخبـار والوقائـع والأحـداث حتـى خضنـا فـي بحـور الشـعر. فوجدتـه بهـا عليمًـا حتـى سـألني:

- أتدري مَن أشعر العرب؟

وجـدتُ أن إجابتي بلا برهانٍ لـن تقنعـه فأخذتـه مـن يـده ورغـم حـر الظهيـرة الحـارق سرتُ بـه حتـى وصلنـا بيتـي، مـا إن وصلـت علـى البـاب حتـى ناديـت علـى أبـي. فخـرج إلينـا مضطربًـا يمسـح أثـر لبـن مـن علـى لحيتـه. التفـتُّ إلـى ضيفـي:

- أتدري مَن هذا؟

- كلا!

- هذا عطية أبي.

- أهلاً به!

- أتدري سبب أثر اللبن على لحيته؟

- ربما يشربه!

- بل إنه يرضعُ العنزة من ثديها.

- أفٍّ له!

- أتدري لماذا؟!

- لا والله.

- حتى لا يُصدر صوتًا للحلب، فيعلم الجيرانُ أن لدينا لبنًا فيطلبوه.

- لعن الله المقتدر البخيل!

- أتدري مَن أشعر شاعر؟

- ما لهذا والشعر؟!

- أشعر العرب مَن فاخر بهذا الأب ثمانين شاعرًا وغلبهم جميعًا، إنه أنا جرير بن عطية الخطفي.

لم يتمالك الرجلُ نفسه من الدهشة فمسك رأسي وقبَّلني فيما بين عينيَّ، وبعد أن ضيفته رغم أنفِ أبي، أخبرني أن أشعاري تصل مدن الحضر لكنها تُنسى لعدم تواجدي هناك وندرة من يروي عني، وأن بالعراق والشام شعراء رغم ضعفهم مقارنة بي إلا أن أشعارهم تموج البلدان لكثرة رواتهم وسياحتهم في المدن واتصالهم ببيوت الحكم ودور الإمارة.

- ارحل يا جرير واطلب الحضر، فهناك سيكون لك شأن.

***

الحَجَّاج

-5-

لم أجد في نفسي سعةً أن أبقى في أرضٍ تحت سيادة ابن الزبير. بعدما بسط سيطرته على الحجاز، لا سيما أن أبي من رؤوس الأمويين في الحجاز وأقواس الغدر تترقبه، فخرجنا إلى الشام حيث ما تمنيت أن أكون هناك، في حاضرة الخلافة التي أضحت ممزقةً من كل جانبٍ ولم يبقَ للأمويين منها سوى الأرض التي تحت أقدامهم!

رقعة الخلافة تمزَّقت من كثرة تجاذب أطرافها، وأضحى للأمويين أتباعًا بلا أرض ولابن الزبير أرض بلا أتباع، فقرر مروان بن الحكم لملمة شملها ورتق ما استطاع منها، فجيَّش الجيوش وحشر الأتباع وخرج إلى مصر طالبًا استعادة الاتساع وليسد على ابن الزبير مصدره الوحيد من القمح ليضيق عليه الخناق.

حين ذهبنا إلى الشام كانت مكتظة بالرجال، فكل مَن فرَّ مِن ابن الزبير قصد الشام حتى إن شوارع دمشق مُلئت بالوفود. وكنتُ مع أبي ضمن بعث الطائف.

- أكل هـؤلاء جـاءوا لنصـرة الأمويين! والله لا أظن ذلك. فعيونُ الناس تفضحهم. رأيتُ فيها هلع الفرار وليس سكينة الأمان وطمأنينة الرمم، هؤلاء قوم فروا من الخوف لا قصدًا للنصر!

- يا ولدي، ابن الزبير لن يرحم كل ذا هوى أموي، هل يأمن رجالاً ألسنتهم مبايعة وقلوبهم خارجة؟

- فماذا لو سقطت دمشق؟! ماذا سيحل بكل هؤلاء؟ إني لأرى الغوطة مُشبعة بدماء كل هؤلاء الذين فروا منه.

- والله لو خلت دمشق من الرجال والسيوف فابن الزبير أجبن من أن يدخلها، ألم تعِ ما تناقلته الألسن بعد موت يزيد؟ ألم يعرض عليه جند الشام المُحاصر لمكة أن يبايعوه ويذهب معهم ليأخذوا له البيعة من أهل الشام؟

- قال لهم اذهبوا وادعوا الناس للبيعة لي فإن بايعوني أتيت!

- يظن أن الخلافة امرأة يستنكحها فيرسل في خطبتها! الجبانُ لا يسود نفسه فكيف يسود قومًا؟! والحكم شجرةٌ لا تُسقى إلا بالدم.

***

خرجنا في جيشٍ يفيض بما يلزم من رجالٍ لاستعادة مصر، لكن تزاحم الرجال اضطر ابن الحكم لأن يستخدمهم وإلا سيستخدمهم غيره أو يستخدموا أنفسهم، فإذا خرج ابن الحكم من دمشق قاصدًا مصر وترك دمشق بلا حاكم وبها كل هؤلاء الوفود فلن يعود لها حاكمًا مجددًا! يُعجبني في مروان دهاءه، فهو يعرفُ كيف ينال ما يريد، وكيف يستخدم أوراقه، جواد ضابح في مضمار السياسة، وسيف صارم في ميدان المعامع.

انطلق الجيشُ من دمشق قاصدًا ساحل بحر الروم، وسرنا بمحاذاة الساحل حتى مررنا بفلسطين، ثم دخلنا مصر. أول بلدة قابلتنا تُدعى العريش لم تكن بها حامية ولا جند ولا سكان سوى ندرة من بادية سيناء زودونا بالأخبار والأسرار وأماكن البئار! هل هم كارهون لابن الزبير، أم موالون لبني أمية، أم يخشون على أنفسهم التصادم مع جيش مثل جيشنا؟! أما كرههم لابن الزبير فكان واضحًا في كلامهم وتعمدهم الإدلاء بأكثر مما سألوا عنه، بل هم من سعوا ليصلوا إلينا ويختلطوا بنا رغم مندوحتهم في التعمق في الصحراء وتلاشي الاصطدام بنا من قريب أو بعيد! أما موالاتهم لبني أمية فداهية كابن الحكم لا شك أن رسله قد سبقته لقادة العشائر تُمنيهم الأماني.

كانت هذه خواطري التي أفصحتُ بها لأبي فماثلت خواطره وإن كان ما لدى أبي حقائق وليست مجرد شكوك قد تُصيب أو تخطئ، فقد كان أبي على مقربةٍ من مصنع القرار ومن أهل الحل والعقد.

صحـراء مصـر سـاكنة، ممتـدة، مملـة، خاصـة حيـن تركنـا السـاحل وتعمقنا فيها، قاصدين بلـدة تُسمى بلبيس، يقـول كبارُ الجنـود ممن كانـوا هنـا أثنـاء الفتـح الأول أن بلبيـس هـي بوابـة مصـر الشـرقية وأنهـم حاصروهـا حصـارًا مريـرًا حتـى سـقطت حاميتهـا وتوالـى تسـاقط المـدن مـن بعدهـا، لكـن حيـن وصلنـا بلبيـس لـم نجـد أبوابًـا مغلقـةً ولا قلاعًـا مُحصنـة بـل قابلنـا أهلهـا مبايعيـن! ألـم يكـن مـن عـادة الرعيـة أن تشـرد؟! مـا لـي أرى المصرييـن كالهـررة يتمسـحون بـكل مـن مـرَّ بهـم؟! يقـول أبـي إن المصرييـن يرضخـون للأقـوى أيًّـا كان، ولا يشـغلهم مَـن يحكـم مـا إن بقيـت السـيوف علـى أعناقهـم، والحاشـية منهـم وكبـار المـلاك يصنعـون مـن حاكمهـم إلهًـا حتـى يسـقط فيلحـدون بـه ويعبـدون الحاكـم الجديـد! والعـوام منهـم عقولهـم فـي معدتهـم وإن شـبعوا أطاعـوا، ولا شك أن شـهرة كـرم ابـن مـروان قـد فاقـت بخـل ابـن الزبيـر.

وصلنـا الفسـطاط دون أن نُجـرد سـيفًا، فلـمَ كل هـذا الجيـش الـذي جلبنـاه؟! إن كان مـروان خشـي انقلابهـم فلـمَ لـمْ يوجههـم للعـراق أو الحجـاز بينمـا يذهـب هـو إلـى مصـر! علمـت حينهـا أن عبـد الرحمـن بـن جحـدم القرشـي، القائـم بالولايـة لابـن الزبيـر قـد بايـع لمـروان بعدمـا علـم أن قوتـه لـن تجـاري الأموييـن! فحططنـا رحـال الحـرب وفـك الجنـود مناطقهـم وكلٌّ سـعى فـي شـوارع الفسـطاط وحلـوان يلتمـس مـا يريـد.

دخلـت مـع أبـي جامـع الفتـح، وهـو أكبـر جوامـع المدينـة وأولهـا، يُقـال إن مـن بنـاه هـو عمـرو بـن العـاص حيـن فتـح مصـر وسـمَّاه تـاج

الجوامع، وسمَّاه الناس المسجد العتيق. لكن من حالته يبدو أنه مرَّ بعمليات تجديد وتوسعة فالأربع مآذن المُقامة فيه لا أظن أن وقت البناء الأول كان يسمح بكل هذا الترف.

بعدما صلينا ما علينا من فروضٍ جلستُ إلى أبي نُحصي أجناس الخلافة، وقد تشابهت وجهتا نظريْنا، فأهل الحجاز مغرورون بأنهم مهد الرسالة ومنشأ الدين ويرون أنفسهم فوق المساءلة وأهل بيت النبوة، كما أنهم يعتبرون حُرمتهم من حُرمة الحرم. وأهل العراق أهلُ شقاقٍ وخلافٍ وأقوال دون أفعال، ولا يطمئن لهم حاكم وإن بايعوه في جوف الكعبة، كل امرئ منهم يظن نفسه أحق بالخلافة فينادي في الناس ببيعته، فلذلك كثرت خوارجهم، لكنهم طائعون مُسالمون ما دام السيفُ فوق أعناقهم، وإن اشرأبت أعناقهم فلا يُخضعها إلا الدم. أما أهل مصر وإفريقية فهم منقادون لا قادة، متفرقون تفرقًا حميدًا، فكل امرئ مشغولٌ بنفسه، لا يهمه سوى صلاح حاله، وأمان عياله، وإن حكمه أفسد أهل الأرض. أما أهل الشام فهم جوهرة الخلافة وأهل طاعتها، طائعون مسالمون لكن تتغير أخلاقهم إن بعدوا عن أرضهم، لذلك يرى مروان أن يعود بهم سريعًا إلى الشام قبل أن يتطبعوا بطبع أهل مصر ويُصبح همُّ كل امرئ هواه ولا يفكرون في حُلم استعادة الخلافة.

قطع حديثنا رجلٌ رأيته قادمًا في اتجاهنا، لا شك أنه يقصدنا، سألت أبي عنه فأمعن النظر حتى عرفه وأخبرني أنه سالم بن عنز

التجيبي، قاضي أهل مصر. ما أن اقترب الرجلُ منا حتى قام له أبي مرحبًا وتركني وبعد تبادل السؤال عن الأهل والأحوال همَّ بالانصراف، فسأله أبي:

- إني ذاهبٌ إلى أمير المؤمنين، فهل من حاجة لك عنده؟

- نعم، تسأله أن يعزلني عن القضاء.

- سبحان الله، والله لا أعلم اليوم قاضيًا خيرًا منك.

- لا حاجة لي في الاحتكاك بولاة الأمر، وأنت كما ترى دار الولاية كل يوم بوالٍ جديدٍ لخليفةٍ جديدٍ، فبالأمس ابن الزبير واليوم ابن الحكم ولا علم لنا بوالي الغد. ولا طاقة لي بأهل مصر، فقد يأتي إليَّ الخَصْمان لأحكم بينهما فيخرجان من دار القضاء لدار الولاية ليختصما فيَّ للوالي! ويدَّعي الظالمُ والمظلومُ أن القاضي قد ظلمه!

ترك أبي وانصرف، وعاد أبي إليَّ بعدما تعجَّب على حال التجيبي ورغبته في الاعتزال من منصبه، وأهل الشام والعراق يقطعون الفراسخ لبلاط الخليفة ليسألوه منصبًا وولايةً!

- ما هذا الذي صنعته يا أبي؟! أتقوم لرجلٍ مِن تَجِيب وأنت ثقفي؟! ألا إن الثقفي يُؤتى ولا يأتي!

- يا حجاج، والله إني لأحسب أن الناس يُرحمون بهذا وأمثاله.

- يُرحمون بمثل هذا! والله ما على الخلافة وأمير المؤمنين أضر من مثل هذا وأمثاله.

- ضر! ما الضر الذي يأتي من رجلٍ مثل سليم؟ إنه لا يقول إلا قال الله وقال رسول الله وقال صحابته، ولا يقضي إلا بقضاء أبي بكر وعمر وإن تحدث ففي سيرة الصحابة الأبرار.

- هذا هو الضر ذاته يا أبي.. إن هذا وأمثاله يجتمع إليهم بسطاء الناس ممن ليس لهم عقلٌ ولا فكرٌ ولا قياسٌ، فيُحدثونهم عن سيرة أبي بكر صاحب رسول الله، وأول من آمن به، وأول خليفة بعده، ويحدثونهم عن عمر وعدله ويقظته ومراعاته للرعية.. فيُقارن الناس سيرة أمير المؤمنين بسيرة أبي بكر وعمر فيحقرونها ولا يرونها شيئًا عند سيرتهما. فيظنون في أنفسهم أنهم الرعية المظلومة وأن أمير المؤمنين ظالمٌ فيخلعونه وينادون بخليفةٍ غيره. أعلمت يا أبي كيف أن هذا وأمثاله هم جذوة نار الفُرقة؟ والله لو خلص الأمر لي لأضربن عنق هذا وأمثاله.

- يا بني، والله إني لأظن أن الله عز وجل جعلك شقيًّا.

- لمَ يا أبي؟ أبو بكر وعمر حكما من هم على مثالهما فاستحقا ما كانا فيه، لكن رعية اليوم كالإبل الجائعة كل جمل يشرد في وادٍ طالبًا نفسه، فهل لمثلهم سوى السيف والسوط؟

***

مكثنا بمصر فترةً يسيرةً. وكان قد عاد من الجند إلى الشام الكثير وما بقي في مصر إلا القليل، فأهل مصر حسبما يرى أمير المؤمنين مأمونو الجانب ولا خوف منهم ما دامت بطونهم عامرة وعطايا الوالي لا تنفد، هل لهذا الحد المصريون مهمشون من قِبل الحكام؟! إني سمعت أن أهل العراق على رقبة أي منهم جندي شاهرًا سيفه حتى يسيطروا عليهم. فما لي أرى المصريين مسالمين لهذا الحد، هل الشقاق والطاعة طبعٌ أم تطبع أو وليد حاجة؟ فلماذا يخرج أهل العراق ولماذا يسكن أهل مصر؟

قضينا فترتنا في مصر ليس كجندٍ بل كضيوفٍ سائحين على أهلها، فمللتُ العيش هنا فأنا لا أركن للسكينة والعيش كالأغنام آكل وأنام، فرجعتُ مع أبي في أول سريةٍ عائدةٍ إلى الشام، وما أن وصلنا الشام حتى نادى المنادي أن أمير المؤمنين قرر تسيير جيشٍ إلى المدينة لاستردادها من ابن الزبير.

رأيتُ في هذا شفاء لغليلي من ابن الزبير فكنتُ أول المنضمين للجيش الخارجين مع البعث وألححتُ على أبي حتى خرج معنا وألا يعد ذهابه لمصر المسالمة من حياته الجهادية في خدمة الخلافة.

- يا بني لم يعد بي رمقٌ، فما خلونا من شقاء القدوم من مصر وتطالبني بالذهاب للمدينة؟! أتحسبني فتى في ريعان شبابي، لم يعد في قوس قوتي منزعٌ يا حجاج.

- لا تقل هذا يا أبي، فخيرُ البلاء ما كان على كُرهٍ، وأنت وإن كبرت سِنك فما خلت عزيمتك.

- يا بني أنت في الخامسة والعشرين وتستطيع امتطاء الجياد والركض والكر والفر، أما أنا فلا.

- دعك من الجياد إن كانت تُرهقك، هل لك على الإبل من صبر؟

تجهز الجيش وخرجنا من دمشق قاصدين المدينة وعلى رأسنا القائد حبيش بن دلجة القيني، حتى وصلنا المدينة وعليها والٍ من قِبل ابن الزبير يُقال له جابر بن الأسود، وأن عبد الرحمن بن عوف يكون عمه، لكنه لم يخرج لنا ولم يقابلنا بل فرَّ من الزحف! فأخذنا المدينة بلا قتالٍ ولا نضالٍ!

حتى أتت المراصد للقائد حبيش تُبلغه أن جيشًا من البصرة قادم إلينا، فقرر ألا يجبن مثل جابر وخرجنا إليهم لقتالهم، فما أن وصلنا بلدة تُدعى الربذة على الطريق الواصل بين المدينة والبصرة حتى أتت المراصد المشئومة تنعى لنا أن جيشًا من مكة قادمًا إلينا! فأصبحنا بين فكيْ رحى!

رأى قائد الجيش أن نرابط في موضعنا فلسنا في مندوحةٍ لنقاتل على جبهتين، فالعدو من أمامنا ومن خلفنا. مكثنا في الربذة في

انتظار أي الجيشيْن أسبق لنا لكن تزامن وصولهم في آنٍ واحدٍ وتفرقت جبهتنا بين عادي الشمال وعادي الجنوب حتى أصيب حبيش بسهمٍ فقتله وأصبحنا بلا قائدٍ، وتكالب علينا العدو ففررتُ أنا وأبي من أرض المعركة على جملٍ واحدٍ، وتركنا خلفنا القتلى والمُصابين ولم نفكر سوى في أنفسنا التي نجت، لكنها نجت بعارٍ لن نغفره لها.

***

يا للمذلة والهوان، يا للخزي والذل والعار. أنعود للديار فارين كالظباء؟! ماذا نقول للأهل والأصحاب؟ فررنا بأنفسنا وتركنا رجالاً كانوا يُقاتلون جنبنا السيف بالسيف والساعد بالساعد؟ ألم يُعلمونا أن أصل الخير كله في ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه. أما الوجه الأول إذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران، وتكالحت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر وينادي هل من مبارزٍ.

والثاني إذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحدٌ منهم من أين يأتيه، يكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة فيتقلب تقلب المالك لأموره، القائم على نفسه.

والثالث إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوي قلوب أصحابه ويرجي الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل ويشجع نفوسهم فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كبا به فرسه حماه حتى ييأس العدو منهم وهذا أحمدهم شجاعة!

فلا أنا برزتُ في القتال، ولا أنا ربطت جأشي وثبت، ولا أنا ناصرتُ إخوتي المُصابين. بل جبنت ووهنت وفررت. وكذلك فعل أبي الذي رفض العودة معي إلى الشام وقرر العودة إلى الطائف معتزلاً السياسة والجهاد والحياة والناس.

***

عُدتُ إلى دمشق مع من عاد، فوجدت عروس الشام أرملة متشحة بالسواد على النكبة التي طالت رجالها في الحرب، والطامة التي أصابتها في موت مروان بن الحكم، وتولي ابنه عبد الملك أمور المسلمين. مَن يُصدق أن هذا العابد الزاهد، المُستكين كحمامةٍ، الذي رأيته في المدينة منذ خمسة عشر عامًا يُصبح الآن أمير المؤمنين وعليه أن يلطخ يديْه بالدم! ألم يقل أبي إن الحُكم شجرةٌ لا تُسقى إلا بالدم! ها هو ذا اليوم أبو الذباب الأفوه الأبخر عليه أن يكون مزارعًا محنكًا ليروي شجرة حُكمه، وأن يتخذ قراراتٍ دمويةً لاستعادة الخلافة من هؤلاء المارقين الشاقين لعصا الطاعة، المنادين لأنفسهم بالخلافة.

بعدما جربت نفسي وفررتُ من ميدان القتال، عولت السبب لقلة تمرسي في القتال وقلة تدريبي، فأنا لم أخرج لحربٍ قط وأمضيتُ جل شبابي في طلب العلم ثم تعليم الصبيان والدباغة وتجارة الزبيب، وكل علاقتي بالسيف اكتسبتها من السيف الجريدي الذي اصطنعته لنفسي حين كنتُ في المدينة. حتى خروجي للجهاد في مصر لم أنل منه سوى امتطاء الخيل من دمشق إلى حلوان ولم نجرد سيفًا ولم نرمِ سهمًا. فهل يُعد هذا جهادًا؟!

رأيتُ أن الأنسب لي أن أنضم إلى شرطة الخلافة حتى أمرس نفسي وأمرنها على استخدام السيف والكر لا الفر ولأكون فيما بعد ثابت الجأش، صارم القلب، صادق النفس. لكن أنَّى لي بالتحول من الجند إلى الشرطة!

أمضيتُ ليلتي الأولى في دمشق الحزينة ساهد العين، مشغول البال، مفترشًا خُرج جملي الذي فررنا به، ملتحفًا السماء. فمعسكرات الجند بها من الهرج والمرج ما جعلني أتركها دون حسيبٍ ولا رقيبٍ. وقد علمتُ أن الخليفة الجديد هو من أمر بهذا التسيب! فكيف لي أن أجلس وسط جماعةٍ من الهمج، المهزومين الفارين؟! ألم ينصحني أبي ذات يوم بألا أجالس أحمق ولا مهزومًا! فالأحمق لا عقل له والمهزوم لا روح فيه! فما بالي أنا المهزوم، مسلوب الروح، منزوع العزيمة، إذا جالست من هو على شاكلتي؟! والله لن تقوم لي قائمة أبدًا! وربما لهذا السبب تركوا معسكرات الجند بلا قيدٍ ولا

رقيبٍ حتى يتفرق الجند عن بعضهم ولا يتجالسوا فيبكوا أو يتباكوا فتخر عزائمهم وليذهب كل جندي ليعبئ نفسه على طريقته!

***

لاح نجمُ الفجر في السماء ولاحت في عقلي فكرة. فأبي قد عرفني على أحد أفراد عشيرتنا يعمل في ديوان الخلافة. فلمَ لا أحدثه في التوسط لي لأكون شرطيًّا لا جنديًّا وأظنه لن يتأخر في ذلك فلأبي يدٌ على كل العشيرة.

في الصباح تجوَّلت حول قصر الخلافة وانتهزت تفرد أحد الحراس فانفردت به لا سيما أني كنتُ مرتديًا ملابسي العسكرية متمنطقًا سيفي وقد استبدلت الجمل بجوادٍ من إسطبلات المعسكر. فلم يجد فيَّ ريبة. كما أن التسيب والانحلال كان قد عمَّ الجند والشرطة حتى حرس الخليفة!

- دمشق لا يليق بها الحزن، ولا يليق برجالها الانكسار.

- ماذا تنتظر من مدينةٍ فرَّ رجالها وقتل خليفتها؟! أتخلع رداء الحزن وترفع رايات النصر وتُقيم الأفراح؟ أم يمر أمير المؤمنين في موكبهِ يُوزع الهدايا فرحًا بقتل أبيه؟!

- أي قتل يا رجل؟ ألم يمت أمير المؤمنين مروان بن الحكم في فراشه؟

- هـذا مـا ذاعـه البلاط، وخـرج بـه البريـد، لكن الحقيقـة غيـر ذلـك يـا رجـل.

- وما الحقيقة؟

- هل أنت على السر مؤتمَن؟

يـا لسـذاجة هـذا الرجـل، وكيـف بمثـل هـذا يكـون حرسًـا للخليفـة؟! اقتربتُ منـه فلـم يمنعنـي، قلتُ ربمـا ملابسـي طمأنتـه، حدثتـه فانبسـط لـي فقلـتُ أصابـه الملـل ويريـد أن يكسـره، لكـن أن يرانـي أول مـرة ولا يعرفنـي ولا أعرفـه ويسـتأمنني علـى مـا يزعـم أنـه سـر، ألا واللـه إنـه لأخـرق ولا يسـتحق أن يحـرس كـوخ دواجـن فضلاً عـن قصرٍ يسـكنه الخليفـة وولاة العهـد والأمـراء وأهـل بيـت الخليفـة!

- نعم يا رجل، سرك في قعر بئرٍ مُعطلة.

- أعلـم ذلـك، فقـد توسـمت فيـك الصلاح ونبـل الفرسـان وأنـك لـن تُخبـر بهـذا السـر أحـدًا، لأنـه سـر يمـس شـرف الخليفـة.

- خسـئت يـا رجـل، لا تحدثنـي ولا أريـد أن أعـرف، إلا الخـوض فـي الأعـراض، هـل وصـل بكـم التسـيب والانحـلال لتخوضـوا فـي أعـراض أهـل بيـت الخلافـة.

- تمهل يا رجل، ليس كما ظننت، إن الخليفة مات مقتولاً على يد امرأة. أليس ذلك طعنًا في شرف ابنه الخليفة الحالي، فلن يستطيع أن يثأر لدم أبيه.

- صبرًا يا... ما اسمك؟

- عَطَاء بن عوف الحلبي.

حقًّا إن لكل امرئ من اسمه نصيبًا، فهذا الرجل ليس مجرد عَطَاء بل سخي بالعطاء، فقد حكى لي على لسان امرأته التي تعمل جارية في قصر الخلافة أن الخليفة الراحل مروان بن الحكم كان دائم الإنقاص من قدر خالد بن يزيد بن معاوية حتى لا يطلب الخلافة، فتزوج أم خالد هذا! ولم يكتفِ بهذا فقط بل كان كثير التقليل من رأيه وقوله حتى ذات مرةٍ شتمه أمام جماعةٍ من كبار رجال الشام وأفحش له في القول إلى أن قال له: يا ابن رطبة الإست! فأسرَّها خالد في نفسه ثم أبداها لأمه التي هي زوجة مروان، فوعدته ألا يعود مروان لفعلها مجددًا. فانتظرت حتى أتاها في ليلتها وتركته حتى غلبه الهجوع ثم وضعت الوسادة على وجهه وقعدت فوقها، وجواريها من حولها يُعقنه عن التملص منها وهي تُردد: فلتعلم أي إست رطبة يا ابن الزرقاء، قاصدة بالزرقاء جدته الزرقاء بنت موهب التي كانت بغيًّا يقصدها الزناة.

- من أين لك كل هذه التفاصيل؟ كأنك والله كنت معهم لحظةً بلحظةٍ.

كنتُ قد شككت أنه مخبولٌ لكني تأكدت من ذلك حين فاجأني مبتسمًا متفاخرًا في غير محل الابتسام ولا التفاخر مخبرًا إياي أن زوجته كانت من الجواري اللواتي أجهضن محاولات الخليفة في التملص من تحت إست فاختة بنت هاشم، ثم وكأنه تذكر شيئًا:

- من أنت يا رجل ولماذا تركت معسكرك وماذا تريد؟

قصصتُ عليه قصةً نسجتها مسبقًا لأحتال عليه، ولو كنت أعلم أن حراس قصر الخلافة معاتيه مثله ما أرهقت فكري في تأليفها. فقد أخبرته أني انتويت الخروج مع الجيش الخارج إلى قرقيسيا لقتال الزبيريين وأخشى الشهادة وعليَّ ديْن وجب قضاؤه فأتيتُ ألتمسُ قريبًا لي في قصر الخلافة لأخبره بديْني ليسده عني إن حان أجلي.

انطلت عليه الحيلة وإن كان من على شاكلته سيصدقك وإن أقسمت له بعدد نجوم السماء أنك كاذب! سألني عن اسم قريبي فأخبرته أنه: عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي فمشى معي تاركًا موضع خدمته ليوصلني إليه!

ما أن وصلتُ إلى قريبي حتى عرفني، على عكس ما كنتُ أظن.

- حمدًا لله على سلامتك يا حجاج، أين والدك؟

- عاد إلى الطائف.

- خشيت أن تكون ممن قُتلوا في الربذة.

- والله يا عماه للموت أحب إليَّ من الفرار وأن يسمينا أهل دمشق فل الجيش.

- يا ولدي هذا فرٌّ يتبعه كرٌّ إن شاء الله، أن تفر وتبقى حيًّا وتُعاود الهجوم بعدئذ، أم تمكث لقتالٍ غير متكافئ فتُقتل أو تؤسر مثلما حدث لمن بقي منكم!

- هل أُسر أحد؟

- خمسمائة رجل، تحرزهم العباس بن سهل وقال لهم انزلوا على حُكمي، فنزلوا على حكمه فضرب أعناقهم! أفراركم خيرٌ أم هذا الذي أصابهم؟

وجعتني الفاجعة، فألجمت لساني عما كنتُ أنتوي طلبه حتى ألح عليَّ فيما أتيتُ به من أجله فطلبت الانفراد به وأخبرته برغبتي الالتحاق بالشرطة أو الحرس فسعى لي في مطلبي عند روح بن زنباع قائد الشرطة والحرس ونقل راتبي من ديوان الجند إلى ديوان الشرطة.

***

الشَّهادةُ الأولى لـ: ليلى الأخيلية

سلامًا على الجمْع الذي حضر على غير موعدٍ، في لقاء منزوع البغية! فما فائدة أن نلتقي لنشهدَ في شخصٍ قد رحل إلى ربه، وأُفضى إليه أمره، فإن يُعذبه فبعمله وإن يغفر له فالله غفورٌ رحيمٌ.

اصمت يا كاظم، ولا تكن خفيف النفس هكذا! أي حديث لدى الحجاج ليُدلي به؟! كل ما نطق به الحجاج هو والعدم سواء! فشهادته مجروحة! والشهادة الوحيدة التي يقبلها الرعية من الحاكم هي أعماله وإنجازاته الواقعية التي يلمسونها في حيواتهم، وليس مجرد نعق ناعقٍ ولا مدح مادحٍ ولا قول شاعرٍ؛ يمكن لأي حاكم أن يُسوِّد الصحائف بكلامٍ عنه، وتقريظ فيه، وإنجازاتٍ من الوهم تُنسب إليه! سلْ نفسك يا كاظم هل ما تسمعه في إعلام حكومتك وما تقرؤه في صحفها عن أوضاع بلادك هو ما تجده حقًّا؟! أعلم أنك تود العيش في البلد الذي يتحدث عنه إعلامك ويظهر في إعلانات تلفازك! يا ولدي الإعلام صور لنا أننا شياطين مردة تحكمنا سلة من ملائكة بررة، لهم بطانة من أولياء الله المخلصين! أظنك تذكر قول ابن هانئ حين وصف حاكمه: «وكأنما أنت النبي محمد.. وكأنما أنصارك الأنصار»، هذا من نسل المهلب بن أبي صُفرة الذي يشهد

لـه الحجـاج وعبـد الملـك بالبسـالة! فهـل تظـن أن نسـله انقطـع؟! كل عصـر لـه مادحـوه ورجـال إعلامـه، فـي أيامـي كان التضليـل شـعرًا يُـروى شـفاهة، وفـي عصرك التضليـل علـى مـرأى ومسـمع ولا تقـوى أن تصـف المُضلـل بالتضليـل!

أنـت فـي أمـةٍ يتصـدر صحفهـا خبـر «ترحيـب الحكومـة بوفـد صنـدوق النهـب» وكأنهـم وفـد العشـائر التـي بايعـت الرسـول! وفـي أماكـن مُعتمـة فـي الصفحـات الداخليـة أخبـار عـن «غلـق مصانـع، وحقـول غـاز بيعـت بـلا ثمـن، ودم أهريـق بـلا قصـاص ولا ديـة، وحـدود أعيـد ترسـيمها»؛ يـا كاظـم أنـت تعيـش العصـر وتـرى وتسـمع الكـذب بنفسـك ولا يجـدر بـك مواجهتـه ولا تقـدر علـى أن تشـهد عليـه، فكيـف لـك أن تقبـل شـهادة ممـن لـم يدركـه؟! ألا تـرى تحريـف الأحـداث، وتدليـس الوقائـع أمـام عينيـك؟ فمـا بالـك بتاريـخ دُوِّن علـى هـوى مـن كتبـه؟! وبـذات اليـد التـي قتلـت مَـن سـبقه! فمنـذ متـى والقاتـل يُنصـف المقتـول؟! لكـن يبقـى القـولُ الفصـلُ فـي حقيقـة ووضـع هـذا الأمـر هـو مـا رأتـه العيـن ولمسـته اليـد وأنـا أحـرى مـن يشـهد عـن هـذا الأمـر فأنـا ليلـي بنـت عبـد اللـه بـن الرحـال بـن شـداد بـن كعـب الأخيليـة، شـاعرة البـلاط الأمـوى ورجالـه، كنـتُ بمثابـة وزارة الإعـلام فـي زمانـي، وبذلـك أعنـي أنـي كنـت إعـلام النظـام ولسـانه، مدحتهـم علـى قـدر أعطياتهـم وللحـق فكانـوا أهـل سـخاء فـكان شـعرى عليهـم مدحًـا مـا شـابه ذم، وثنـاء مـا فيـه قـذف، وإطـراء مـا خالطـه ثلـب.

لكن قبل أن أخوض في تفاصيل شهادتي- الغريبة- فقد جرت العادة على كل رجال دولة الخلافة أن يسألوني عن حبي، ولأنك يا كاظم في نظري لا تقل عنهم، فهم رجالٌ وأنت وحدك رجالٌ، فدعني أخبرك القصة التي لا أملُّ من سردها ولا يملُّ رجال الخلافة من سؤالي عنها! سألني عنها معاوية فأجبته، سألني عنها يزيد فأجبته، سألني عنها مروان فأجبته، سألني عنها عبد الملك فأجبته، سألني عنها الحجاج فأجبته! وإليك إجابتي:

صغيرة نشأتُ في قبيلة بني عامر، لأب يُقصَد ولا يَقصِد، ولتسعة إخوة كلهم فرسان بني عامر، فنشأتُ في كنفهم حتى مسَّني شيطان الشعر فكان أول ما نظمته شعرًا في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان «توبة» من عرض عشيرتنا فارسًا مثل إخوتي، بل فاقهم حسنًا وبهاءً وشجاعة وإقدامًا، كان سبط البنان، حديد اللسان، شجًّا للأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر، وما من فتاةٍ رأته إلا تمنت أن يكون ولدها منه!

كان يخرجُ مع إخوتي للغزو، وحين العودة كنت أخرج مع الفتيات لمقابلتهم حتى رأيته عن قُرب وتعلقتُ به، وأنشدتُ فيه شعرًا سرعان ما تناقلته الفتيات عبر أخدانهن سرًّا حتى وصل إليه، وكان هو أيضًا شاعرًا مثلي فرد على قصيدتي بقصيدةٍ تناقلها الشباب حتى وصلت إليَّ فعلمتُ أنه أصاب مني ما أصبت منه وبدأ حبنا ينمو في قصائدنا حتى شاع أمرنا في القبيلة!

ولأنه شهمٌ لم يسمح لسمعتى أن تمسها الألسنة، فتقدم لخطبتي لكن بعدما سبقت يد السياف عفو السلطان، فعُرف قبيلتنا لا يزوج اثنان سبق حبها مجلس الولي! وكأن الحب إذا أتى قبل الزواج منعه! أيقول الناس أن أبي وافق مرغمًا لحفظ سمعة ابنته؟! أيعقل أن ترتضي الفتاة لنفسها زوجًا قبل أن يرتضيه وليها؟! وتحت سيف العُرف فرق بيني وبينه فراقًا لا ميثاق بعده!

زوجني أبي لأول رجلٍ تقدم لخطبتي بعد توبة! لكن منذ متى كان القلب بأيدينا حتى نملكه، فقد تزوج أبو الأذلع جسدي، فيما بقيت روحي ملكًا خالصًا لتوبة، ولن أنكر أنى لازمت على لقاء توبة رغم زواجي! فمنذا يقوى على فراق المحبوب ويصبر على بعده؟!.. تظلم زوجي لمروان بن الحكم والي المدينة حينها فأباح له دم توبة! أترى يا كاظم؟ هؤلاء قومي، قتلوا حبنا ويريدون أن يقتلوا أجسادنا! ألا يكفيهم أن روحي سُلبت يوم زوجوني لغيره؟!

رغم كل الحصار والتهديدات فقد استمرت لقاءاتي بتوبة، والله يا كاظم كانت لقاءات الروح للروح، فما مسني قط ولا خضعت له بقول! لكن زوجي عربي حرُّ الدم لم يصبر على هذا، فلما استعصى عليه قتل توبة الذي احترف الفرار والتنكر لرؤيتي، ولم يقدر على قتلي لخوفه من إخوتي طلقني.

حسبت أن بعد طلاقي قد يرضى أبي بزواجي من توبة الذي تقدم مجددًا، لكن وهمًا كنتُ أظن ذلك، فالرفض الأول كان لوصمة

الحب، أما الرفض الثاني كان لوصمة الطلاق! وكالعادة زوَّجني أبي لأول من تقدم لي بعد توبة فكان سوار بن أوفي القشيري، لكن هذه المرة اشتد إخوتي في طلب توبة حتى يبعدوه عني ويبعدوني عنه ليستقر عيشي، فرحل توبة مرغمًا وأنجبت من القشيري مرغمة، وما بقي رابط يربطني بتوبة حتى مات إلا أشعارٌ أقولها فيه فتصله، وأشعارٌ يقولها فيَّ فتصلني وكأن حبنا كتب عليه أن يبدأ في القصائد وينتهي في القصائد ويسكن بيوت الشعر لا بيوت البشر.

***

أما الآن فإليك ما لديَّ في حق هؤلاء:

النساء يعشقن التفاصيل، ولا أحد يُجيد إدراك التفاصيل مثلهن، ألا حدثتك عن المرة التي نجا فيها حبيبي توبة من القتل لأنه اهتم بتفاصيلي وأدرك إشارتي؟!

كل من جلس هنا حدثك عن نفسه من الخارج ولم يخض في تفاصيلها من الداخل، وحسنًا صنعت أن أتيت بي لهذا اللقاء، فشهادتي هنا لن تكون على الحجاج أو عبد الملك أو حتى جرير الذي تعرفه والذي قرأت عنه، سأحدثك عنهم في بيوتهم، بل وأخبارهم في فراشهم ومع نسائهم، سأحدثك ما حدثتني به نساؤهم وكيف هم معهن، وهل صولتهم على سرير الملك هي ذات الصولة على سرير الجِمَاع؟! أظنك لا تعرف أن أحدهم زوجته

ظنـت أنـه خصـي وليـس لديـه مـا فـي الرجـال للنسـاء! ولا تعـرف أن أحدهـم لـم يُقبل امرأة مـن زوجاتـه قط! ولا تعـرف أن أحدهـم لا يقـدر أن يُجامع امرأتـه إلا إذا صاحت الديوك للفجر! سأخبرك عن الشراب الـذي أعـدَّه يتـاذوق الطبيـب لأحدهـم فجعلـه منتصبًـا حتـى جامـع نساءه الأربعـة فـي ليلـةٍ واحـدةٍ دون أن يُنـزل فـي إحداهـن ومـا خـرج للصلاة حتـى لا يُفضح أمـره! سـأحدثك عـن أسـرار النسـاء وكيـف كـن يسـتخدمن الخلطات الحبشـية لترطيـب أجسـادهن، سـأخبرك كيـف كـن يُثرن بعولتهـن! سـأخبرك بأسـرار لـن يجـرؤ أي منهـم أن يبـوح لـك بهـا، وبتفاصيـل قـد لا تجدهـا فـي أي ممـا طالعـت؛ فـي جعبتـي الكثيـر والكثيـر عنهـم فاصـغ لـي!

لنبدأ بالحجاج.

أول نسـاء الحجـاج كانـت أم أبـان بنـت النعمـان بـن بشـير، رأتهـا أمـه الفارعـة- وهـي المـرأة الخبيـرة بالنسـاء ومطالـب الرجـال، فكثـرة زواجهـا قـد أكسـبتها خبـرة معرفـة مـا يريـده الرجـل فـي امرأتـه، وأي امـرأة تصلـح للفـراش وأيهـن تصلـح للولـد، وأيهـن تصلـح للعشـير- ربمـا أحدثـك عنهـا فـي إحـدى شـهاداتي.

حينهـا كان الحجـاج مقيمًـا فـي الشـام غارقًـا فـي السـمع والطاعـة، مشـدوهًا بالمكانـة التـي وصلهـا والمناصـب التـي يرتقيهـا بسـرعةٍ فاقـت أقرانـه، ناسـيًا أن لـه أهـلاً بالطائـف وناسـيًا أنـه أعـزب لـم يطـأ امـرأة بعـد.

حين رأتها الفارعة حدثت والده الذي كان فارق مجلس الخلفاء والولاة ولزم ضياعه وأملاكه بالطائف، فخطبها لابنه وجهزها ورحل بها إليه!

كانت بنت النعمان تسمع من جواريها عن زوجها الذي ستُزف إليه، فهالوها بخشونته وجفوته، منذ أن كان معلم صبيان في الطائف حتى أصبح فارسًا لبني أمية في الشام وأنه منذ يوم الربذة لا يخلع سيفه عن منطقه، ولا يكره أحدًا مثل ابن الزبير وأتباعه! وقد كان أبوها من أتباعه.

رحل بها أبوه إلى دمشق، وأودعها دارًا قد جهَّزها لها وبقيت تنتظر دخوله عليها وهي ببرقع العرس، حتى دخل عليها الحجاج وكانت أول مرة تراه فيها، فوجدت أن ما سمعته عنه لا يتماشى مع هيئته، فهو ضئيلٌ، نحيفٌ، كبير الرأس، دقيق اليدين، مبروم الأصابع! كان هذا بالنسبة لصفاته الجسدية، أما صفاته الخلقية فقد وجدته خجولاً لم يصنع شيئًا سوى أن ألقى عليها سلامًا خافتًا وهو مطأطئ الرأس غاضًّا طرفه نحوها، سرعان ما انزوى جالسًا على أول مقعدٍ قابله كأن قدميْه لا تقويان على حمله! هل هذا الحجاج حقًّا الذي حدثتها عنه جواريها؟! ما بالها تشعر كأنها تزوجت لخصيٍّ ليس له في النساء مأرب!

طال جلوسُ الحجاج لا تفارق عيناه البساط الفارسي المفروش تحت قدميْه، وحركة شفتيْه وأصابعه تدل على أنه يتعبد! يا ويحك

يا بنت النعمان هل زوجوك لراهبٍ أم زاهدٍ؟! مَن يخجل مِن مَن يا حجاج؟! هل هذا فعل فتى في ليلة بنائه؟! إذا لم يكن له في النساء حاجة فلمَ ربط مصيرها به؟! من يُفترض به أن يقتحم الآخر؟! أن يأخذ الخطوة؟! أن يقرع الطبل؟! أن يحمل المعول ويفتح الثغر؟! للعجب كانت هي صاحبة المبادرة، فالنساء قد تترجل إذا استأنث الرجال!

قامت إليه، وحملت له ثياب العرس، وتعمدت أن تخطو نحوه بدلالٍ حتى ينتبه إليها، حتى وقفت أمامه وسألته أن يبدل ثيابه، سألته بصوتٍ يحمل كل طبقات الغِناج والدلال، حتى حركته فقام إليها ووقف أمامها فكان أقصر منها! حتى إنها انخفضت له حتى يستطيع أن يرفع عنها برقعها، فكان وجهه مقابلاً لصدرها الناهد، ثم تجرَّأ ورفع بصره في وجهها.

لا يوجد أوثق من فتاةٍ تُدرك قدر جمالها، وكانت بنت النعمان تُدرك ما هي عليه من جمال، وأن الناظر إليها مفتون، والممنوع منها محروم، فوجهها أقرب ما يكون للاستدارة، لها جبينٌ أبلج كهلال العيد، تحته حاجبان خُطا بعنايةٍ كأنهما حدَّا خنجر، لها عينان ينتهي نسبهما إلى فصائل الغزلان، وخدان لهما حمرة الرمان، وسمنة الزغلول، بهما نغازتان كأنهما منبع الفتنة ومنبت الجنون، ما رآهما رجلٌ إلا وهوى فيهما، لها شفتان لم تُخلقا إلا للتقبيل تحتهما ذقن منغوزٌ كثمرة تفاح رومية.

لكن الحجاج لم يجد ما يقوله حينها أمام هذا الجمال اللانهائي، فقد حصرَه حسنُها، حتى خاض في حديث الحُكم والسياسة! وهل هذا وقت حديث سياسة يا حجاج؟! لكن بنت النعمان بسحرها ودلالها قد جذبته إلى ما يجب أن يخوضا فيه، وانسحبت بميوعةٍ مقصودةٍ حتى دخلت الفراش فتبعها.

وجدها جالسةً على حافة الفراش، وضي السراج يتلألأ على وجهها فبدت كالبدر، اقترب منها حسيسًا وقد تخلى عن بعض خجله، ورفع عنها غطاء رأسها حتى انسدل شَعرها الميَّاس على ظهرها كذيل فرس متدلٍ من عجيزتها.

كانت جالسةً وهو واقف أمامها، فكان رأسه يعلوها فنظر لها من علٍ فرأى منبت ثدييْها النافرين فضربه الجنون ومد يده يريدهما فأمسكت يده بحنانٍ فسرت في يدها رعشة انتقلت إليه فضمها حد الاعتصار حتى ضربت النشوة عروقه، فباشرها بتعجل صائم يوم قيظ، وفتح الثغر دون مقاومةٍ، فلا أهون من مدينةٍ تنتظر الغزاة!

في أيامه التاليات كان قد اكتسب خبرة جعلته يتريث في المباشرة، فقبل الولوج كان يبدأ طقوسًا من التقبيل، يلتقم شفتيْها ببطء، يلعق كل شفاه على حدةٍ، واكتشف أن للسان دورًا آخر غير الحديث، ثم ينتقل إلى النغازتين فيمتصهما كنحلةٍ وقفت على وردةٍ نديةٍ تمتص رحيقها، ثم يطير ليمتص النغازة أسفل الذقن، حتى يتهادى بلسانه على عنقها الأجيد ذي الشامة أعلى الترقوة،

فيقبل الشامة كالحة السواد في عنقٍ مرمري كنجمةٍ وحيدةٍ في سماء ليلة مُعتمة، هنا يكون قد اقترب من ساحة الصدر الملساء، التي تهدي لطريقٍ مُعبَّد يمر بين جبلين نافرين يأبى أن يمر بينهما دون السعي من قمة أحدهما حتى قمة الآخر، ما يعتلي قمة الجبل حتى يجده جبلاً بركانيًّا في نهايته شعلة الشبق فيُحاول إخمادها، فتشتغل قمة الجبل المقابل فيسارع إليها وما أن يصل حتى تشتعل الأخرى فيمكث طويلاً في محاولة الإخماد دون فائدة!

بعدما ييأس من توقف فورة البركان، يتركه ويرحل جنوبًا في صحراء الخصر البضة، فيجد أن الأرض تعتلي به رويدًا فيظن أنه يرتقي لكن سرعان ما يجد نفسه على شفا بئر ملآنة من الخمر المُعتقة، فينهل منها بلا ارتواء ولا سكر، لكنه مُسافر ولا يقوى على البقاء فيستحث السير هابطًا إلى أسفل حتى يصل إلى أخدود الحياة المُنشق بين سلسلتين عظيمتين من سلاسل جبال التيه، ترك الأخدود يتأجج وقد فاض سيله، واعتلى إحدى السلسلتين، وتهادى يلعق أحقاق العاج حتى وصل إلى أعمدةٍ قُدت من جبال المرمر هي غاية المُنتهى ما إن وصلها حتى عاد إلى الأخدود المُستعر فأطفأه.

وعلى هذا الحال كانت ليالي الحجاج مع بنت النعمان، التي كانت خير شريكة حياة، ورفيقة فراش، فالرجل يهيم بالأنثى التي تتفن في منحه نفسها دون تفريط، وبتمنع لا امتناع، وعطاء لا مَنٍّ.

بعدما غاب الطمث عن موعده، علما أن المراد في سبيله، ونتيجة السعي قد لاقت الجواب، وسرعان ما ظهرت على بنت النعمان أعراض الحبالى، حتى إن الليالي التي كانت لم تعد لتكون، حتى دارت الأقمار ووضعت البكر؛ محمد.

أتى محمد ومعه الخير، فما مرَّت أيامٌ على ولادته حتى قُلدَ أبوه أمر عسكر الشام، وأصبح أحد رجال الخليفة المُقربين، فنسي زوجته وابنه وعاد لسيفه وسوطه حتى ضاقت بنت النعمان من طول فراقه، فمن ذاق تمام الارتواء لا يقوى على طول ظمأ! فبعدما عوَّدها على وطئها كل يوم أو يومين، أصبح لا يطؤها إلا في كل طمث مرة!

الآن تنتهي شهادتي الأولى، وبقيت لي عدة شهادات سأقر بها تباعًا وسأخوض في أمورٍ لا يقوى على الخوض فيها إلا امرأة مثلي، وسأحدثك بأسرار هؤلاء الرجال التي لا يعرفها عنهم سوى نسائهم.

***

عبد الملك

-6-

رحلنا إلى دمشق حيث المقر الأكثر أمنًا على بني أمية، فأهلُ الشام أهلُ سمع وطاعة وولاؤهم لبني أمية منقطع النظير، وهناك تعرفت أكثر على عائلة الخليفة، وإن كنت رأيتهم مسبقًا لكن رؤية العابر، فمن كان يظن أن يزيد سيصير خليفة المسلمين وربما طالب بالبيعة لأحد أولاده مثلما فعل له أبوه معاوية!

الابن الأكبر للخليفة يُدعى معاوية، ابني الوليد يكبره بثلاث سنوات، لكن رغم سنه فإنه أقرب ما يكون لأبيه ولا يكاد يفارق مجلسه، كأنه يرى نفسه على كرسي الخلافة يومًا ما ويُعد نفسه لذلك اليوم.

وثاني أبناء الخليفة يُدعى خالد وهو غلام في الثالثة عشرة من عمره، لم يكن له هوى في مجلس الخلافة وشغفه موجه نحو العلوم ومدارستها والقراءة في كتب مؤلفيها التي تأتي له سرًّا من بلاد الروم.

أما زهرة بيت الخلافة ومصدر بهجته، لؤلؤة مخبأة في مخادع النساء لا تُرى إلا لذو حظ عظيم، وأظن حظي كذلك، فما أن رأيتها حتى أصابت فؤاد الفؤاد فطلبتها من والدها فلم يجد ما يمنعه من الموافقة لا سيما هو في حاجته لنا أشد من حاجتنا له، فإن كان هو الخليفة فنحن بني أمية عامة وبني مروان خاصة مَن نحافظ له على عرشه ونهريق دماءنا فداءه.

على ذكر الدفاع عن عرش الخلافة، فقد توجه مسلم بن عقيل إلى المدينة حسبما أشرت عليه فجرى بينهما قتال طال أمده حتى نصرنا الله عليهم وخضعت المدينة للخلافة، وبعدها توجه الجيش إلى مكة، حيث العائذ بالحرم.

حسبما وردتنا الأخبار فبعدما انتهى الجيشُ من أمر المدينة واطمأن لها وجعل أمر سكانها في يد أمير المؤمنين، توجه تلقاء مكة تحت قيادة مسلم بن عقيل، لكن الموت لم يمهله الجهاد في سبيل الله وجمع كلمة المسلمين فوافته المنية قبل وصول مكة فقرر الخليفة تولية الحصين بن نمير السكوني على الجيش.

بكل حزمٍ أكمل الجيش المسير نحو الحرم والعائذ به، حتى وصل مكة فلم يخرج لهم ابن الزبير للقتال فاضطروا لحصار مكة، فلم يخرج أيضًا فاضطر القائد الحصين بن نمير إلى الأمر برمي الكعبة بالمنجنيق!

استمر القتالُ بين جيش الخلافة وابن الزبير على ما هو عليه، فلا ابن الزبير يقدر حرمة الحرم ويخرج للقتال ولا الحصين يكف عن

رمي الكعبة بالمنجنيق! فإذا كان ابن الزبير أجبن من خوض قتال فلمَ يضع نفسه موضع منازعة؟!

***

مثلما فعل والده معه فعل مع ولده، وكأن ولاية أمر المسلمين تركة تورث! فقد سعى يزيد بالبيعة لابنه معاوية وكان له ما أراد وكعادة الموت يأتي بغير موعدٍ، ليذكرنا بما لا يجب أن ننساه، الدوام محال والمُلك إلى زوال! فقد مات الخليفة يزيد بن معاوية وتولى أمر المسلمين من بعده ابنه معاوية صاحب العشرين عامًا!

ألم يرى يزيد بأم عينيه تداعيات ما فعله أبوه معاوية؟! ألم يرى تشتت أمر المسلمين بسبب البيعة القسرية التي أرادها معاوية له؟! ألم تعلق في رقبته آلاف من دماء المسلمين التي أهريقت جراء هذا الأمر ؟! أما يكفيه دم الحسين؟! أما يكفيه هتك حرمة الكعبة؟!

بفرض أن يزيد كان يرى رأي والده الأصوب، ويرى نفسه الأحق بالخلافة، وكأنها إرثٌ شرعي آل إليه، فهل من الصواب أن يترك كل رجال بني أمية وفيهم الأكفأ والأقدر والأجدر بولاية أمور المسلمين ويعهد بالأمر لفتى يصغر أحفاد مروان بن الحكم!

على أية حال بايعنا لمعاوية أميرًا للمسلمين، فلا يحق أن نختلف نحن بني أمية ثم نطالب الرعية أن تجتمع تحت لواء خلافتنا! لا سيما أن أمر العائذ بالحرم استشرى بعدما سيطر على مصر وجنوب الحجاز

وكان باستطاعته أن يستولي على الخلافة قاطبة لولا جبنه المعهود، فإذا كان ابن الزبير حريص اليد في المال فهو في الشجاعة والإقدام أحرص! فقد تواتر إلى مسامعنا أنه حين وصل نعي الخليفة يزيد بن معاوية إلى الحصين بن نمير السكوني قائد جبهة القتال في مكة، وكان الأمر لم يصل لابن الزبير بعد فأرسل إليه ينصحه بوقف القتال والتوجه معه على رأس الجند المُحاصر لمكة ليأتيا دمشق ولينادي ابن الزبير لنفسه بالخلافة من هناك وهو على رأس جيش يحوي خير فرسان الشام، فمنذا حينها قد يتخلف عن بيعته؟! نحمد الله على جبن ابن الزبير الذي خشي أن تكون خديعة من الحصين وفضَّل البقاء بمكة وحينها رحل عنه الحصين فاكًّا للحصار عائدًا لدمشق.

***

استغل ابن الزبير انسحاب الجيش إلى دمشق وبسط نفوذه على الحجاز قاطبة، حتى طرد كل بني أمية من المدينة وأصبحت تحت حكمه مجددًا، ولحداثة سن الخليفة لم يكن على قدر الحدث وبدأت رقعة الخلافة تُحذف من تحت أقدام بني أمية! فالحجاز ومصر بايعتا لابن الزبير، والعراق لا أمان له فهم كالبحر إن سكن سطحه اضطرب قاعه! لكن القدر لم يمهل الخليفة أكثر من ذلك فلحق بأبيه بعد أقل من أربعة أشهر من توليه الخلافة.

حيكت المكائدُ وسعى السعاة في تمزيق بني أمية، فبين حسان بن مالك بالأردن الذي يبغي لنا الخلافة، وبين الضحاك بن قيس في

دمشق الذي يريدها لابن الزبير دارت رحى النزاع ولم يُسمَّ خليفة للمسلمين بعد معاوية حتى الآن!

هدى الله عقلاء بني أمية واجتمعوا في مؤتمر الجابية وبايعوا لأبي- مروان بن الحكم- خليفة للمسلمين. وما أن تولى أبي الخلافة حتى شرع في لمِّ شمل الخلافة من جديدٍ فرحل إلى مصر فاستعادها بدون قتالٍ وأخذ يُولي على القضاء والدواوين وكان يرجو أن يقر سليم بن عنز التجيبي على القضاء لكن شفع له يوسف الثقفي فأعفاه من القضاء؛ وولى عليها أخي عبد العزيز بن مروان أميرًا وعاد مجددًا إلى دمشق.

بعدما استقر الأمر لأبي واستعاد قدرًا كبيرًا من أرض الخلافة طلب البيعة لي ولأخي عبد العزيز من بعدي وكأن الأمر أضحى مُعتادًا ولا نقيصة فيه، فبايع الناس لنا لا سيما أن عمرو بن سعيد بن الأشدق غره بلاؤه في القتال ومنزلته بين الرجال فكان يرى نفسه الخليفة من بعد أبي! لكن رجال أبي المخلصين كانوا أسبق لطلب البيعة الشرعية لنا! وما مكث أبي إلا شهورًا بعدها ووافته المنية أو على وجه الدقة قتلته فاختة!

***

جَرِير

-7-

بتُّ ليلتي حيران أقلب الرأي في رأسي، فأنا هنا بين العنزات والصحراء، فمنذ أن كنتُ صغيرًا نقب جدي عن موهبة الشعر فيَّ حتى بزغت لديَّ ونمَّاها عندي. فكنتُ أنشد مسليًا نفسي حارقًا للوقت الرتيب الذي أقضيه في رعاية الغنم والماعز أو حاديًا لجمال جدي، حتى تطاول الشعراء من حولي على أبي وبخله وفقره، وبعدما طال الهجاء أبي نزح إلى قبيلتي! فتركت كل فنون الشعر واهتممت بالهجاء وحاولت أن يكون لي أسلوبي الفريد فيه. فاتخذت مِن تحقير مَن أهجوه ورفعة شأن قومي نمطًا لقصائدي، ولكي أبرع في هذا النمط كان لازمًا عليَّ أن أعلم كل الوقائع والأخبار لكل قبيلة وأعلم مواطن ضعفها ومذلتها حتى أبرزها لهم وأفضح عارها، وبالعكس مع قبيلتي فقد تعرفت على مواطن فخرنا

وعزتنا وأبرزته بشتى الصور ومختلف التصريحات والتلميحات. وبهذا هجوت كل الشعراء المجاورين لي حتى وضعت منهم وبلغ شعري الآفاق وانتقل مع القوافل والمسافرين لشتى ربوع نجد واليمامة حتى بلغ الجزيرة كلها ووصل العراقين والشام.

في هذا النمط المُعتاد لأيامي كانت حياتي متماثلة إلى الأمس حتى وضع هذا العابر سوسة تنخر في رأسي بالرحيل. فلمَ لا أرحل للحضر، ومدن الخلافة والحكم ليبرز شعري ويعرفني الناس؟!

في مساء اليوم التالي بينما يجمعنا السمر اقترحتُ على من حولي ذهابي للعراق لأكون سفيرًا لقومي، أمجدهم وأعلي صيتهم، وأقعد لهاجيهم كل مقعد بدلاً من تلك الصحراء التي تحبس مجدنا ويضيع فيها صوتنا، وألهبت حماسهم مدعيًا بأن قبائل أضعف منا عددًا ومالاً أرسلت شعراءها للحضر ليمدحوها على رؤوس الخلائق حتى أصبح لهذه القبائل شأن بلا أصل! ومن ها هنا كانت بدايتي، فأرسلوني متكفلين بنفقتي حتى أكون واجهة بني تميم أمام الناس.

***

شددتُ رحالي إلى العراق فقد عددتها الأفضل لي كبداية، فمكة مفعمة بالثورة وبها عبد الله بن الزبير عائذ بالحرم، والمدينة في شد وجذب بين أتباع ابن الزبير وأتباع الأمويين،

والعراق تحت يد الأمويين يقوم عليها بشر بن مروان فوجدتها أكثر استقرارًا من غيرها وإن كان أهل العراق لا أمان لهم فهم كل يوم بأمير إن لم يكن كل يوم بخليفة!

ما إن وصلت العراق وتلمست الأخبار حتى فطنت إلى حالها، فبها مدينتان رئيسيتان وهما البصرة والكوفة. لكن البصرة أكثرهما نشاطًا وحراكًا فهي معقل العلماء والشعراء ومنها وإليها تأتي وترحل القوافل وتتبادل الأشعار والأخبار وتنقلها من وإلى ربوع دولة الخلافة. وكان مما علمتُ أن بها عالمين بارزين ذاع صيتهما وتفرق الناس في الالتفاف حولهما وبين هذين الاثنين عالمٌ بحرٌ يُدعى عامر الشعبي إلا إنه كثير الأسفار والتردد على حاضرة الخلافة وكثرة الاحتكاك بالولاة. لكن العالمين مقيمان بالبصرة وهما كما علمت، عالم يُدعى محمد بن سيرين. ويقول عنه الناس إن أباه كان من أسرى معركة عين التمر ومجلسه أكثر تنوعًا من حيث الموضوع والتنقل بين الدين والدنيا، كما أنه كثير المزاح والضحك، وتأويل الرؤيا والشعر.

والثاني يُدعى الحسن بن يسار البصري.. ويقول عنه الناس إنه تربى في بيت النبي ﷺ لأن أمه كانت مولاة لأم سلمة زوجة النبي ﷺ وقيل إنه رضع من ثدي أم سلمة وبسبب هذه البركة نال ما نال من بلاغة وعلوم. لكن مجلسه شديد الورع، عميق الفقه، لا يسمع الأخبار ولا يتناولها والسبب الأهم الذي جعلني

وليت وجهي شطر مجلس ابن سيرين أني سمعت أن الشاعر الفرزدق يجلس في مجلس الحسن فوجدتُ نفسي إذا جالستُ الحسن سأكون مبهوت الضوء في حضرة الفرزدق الذي سبقني في بناء سيرته الشعرية وعرفه القاصي والداني.

نزلتُ البصرة واكتريتُ بها منزلاً يسعني أنا وزوجتي وابني حرزة وسوادة. كان المنزل مهجورًا، منهوبًا، معدوم الأثاث إلا من جدران آيلةٍ للسقوط وسقفٍ من جريد النخل لا يقي من شمس ولا يمنع من مطر، لكن على أي حال أفضل من خيام البادية، به أربع غرف وفناء كبير وأمامه مَبْرك إبل ومعلف دواب تظله نخلتان هما علامة المنزل فأهل البصرة يدعونه البيت ذو النخلتين وهذا ميزته الوحيدة أنه مشهور الموقع، آملت أن يكون مقصد الناس لي وأن أتخذ إحدى غرفه مضيفة، أستقبل فيها من يقصدني طلبًا لشعري وأجالس فيها راويتي ليكتب عني أشعاري ويتناقلها الناس.. لمَ لا؟! ربما!!!

بعدما سكنت أهلي ذهبتُ إلى سوقٍ يُسمونه سوق المربد وهو يقع خارج نطاق البصرة لكن على مقربةٍ منها لأبتاع متاعًا وطعامًا فليس في البيت ما يُفرش أو يُؤكل، وبينما أنا أسير في مدقات السوق إذ تعالت همهمات الباعة والشراة بالحمد والتكبير والتهليل فنظرت في وجوههم لأتبين ما سر التقى المفاجئ الذي حلَّ بهم فإذ بعيونهم معلقة برجلٍ قصير القامة، عظيم البطن،

مخضب اللحية ذي شارب خفيف ليس بحفيف، يذكر الله وهو يسير في مدقات السوق. وحين سألت عنه عرفت أنه محمد بن سيرين، وأنه يعمل في تجارة الزيت! فعلمت أن مجلس هذا العالم العامل سيكون مجلسي.

أكملت تسوقي فمررتُ بخيمةٍ يُقال عنها خيمة الشعر. يجلس فيها عددٌ لا بأس به من الناس ظننت أن معظمهم شعراء محليون.. فهيئة ثيابهم وتباسطهم مع الناس لا توحي بأنهم شعراء ذوو شأن. وفي رأس الخيمة يجلس شاب ضخم الجثة ضخم الوجه تبدو عليه علامة إمارة الخيمة وأنه ذو شأن بينهم فسألت عنه فعلمت أنه همام بن غالب بن صعصعة المشهور بالفرزدق! وكنا قد تهاجينا من قبل على بُعد، لكنها المرة الأولى التي أراه جسدًا وهيئة.

ابتعثُ ما يلزمنا من متاعٍ وطعامٍ وعُدت محملاً بملء عربةٍ يجرها بغل، وأمضينا يومين في تنظيف البيت وسد الجحور وملئها بالشيح حتى يطرد الحيات والثعابين، ونظمت الغرف حيث جعلت الغرفة التي تطل على مبْرك الإبل مضيفة لمن يقدم علينا واتخذت أنا وأم حرزة غرفة، واتخذ حرزة وسوادة غرفة، وجعلنا الأخيرة مطبخًا للطعام والمخزون من الحبوب.

في يومي الثالث خرجتُ إلى مجلس ابن سيرين، وفي مجلس ابن سيرين وجدتْ نفسي ما أرادت حيث إنه كان مهتمًّا بالشعر

والأخبار يتمثل بها ويستمع إليها كما أن روحه فياضة لا تكاد تراه حتى تحبه وتستأنس بمجالسته وكان أمتع مجلس له مجلس تأويل الرؤيا فقد أمتعني أيما إمتاع.

أذكر أن في المجلس جاءه رجلٌ ليؤل له رؤياه التي كانت أنه يرى أنه يصب الزيت في الزيتون! فما كان من ابن سيرين إلا أن قال له: فتش على امرأتك فإنها أمك! فاستغرب الرجل التأويل وكذلك كل من حضر، لكن ابن سيرين لم يُعقب ولم يزد بأكثر مما أدلى وكان هذا آخر قوله لمجلس اليوم فانفض الناس من حوله فقمت له وتحدثت معه.

- رأيتك في السوق تكبر وتسبح وكل من رآك فعل مثلك!

- يا ابن أخي، إن السوق ساعة غفلة الناس.

- ما تقول في الشعراء أصلحك الله؟

- يا ابن أخي، خيرهم خير وشرهم شر.

- والشعراء يتبعهم الغاوون.

- أكمل يا ابن أخي.. وأنت تفتي نفسك! ألم يسمع رسول الله ﷺ الشعر؟! ألم ينشد الصحابة الشعر في حضرته؟!

- ألا تحب أن أنشدك شعري؟

- هل أنت شاعر؟! لا أظن أني رأيتك من قبل، حتى قسمات وجهك تبدو عليها لفح شمس البادية!

- أنا جرير بن عطية الخطفي، من بادية نجد، جئتُ إلى البصرة ليُسمع شعري وليصل إلى الناس بدلاً من أن تسمعه المعاز والخراف في موطني.

- هاتِ ما لديك يا ابن أخي!

- أي الشعر تحب أن تسمع؟

- يستدل على جودة الشاعر من غزله.

خرجنا من المسجد وسرنا في اتجاه متجر الزيت الخاص به، وبينما نسير أنشدته قصيدتي التي أقول في مطلعها:

بان الخليط ولو طوعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

فكان كلما زدت بيتًا رأيتُ علامات الاستمتاع على قسمات وجهه لكن دون أن يُعقب بحرفٍ حتى وصلت إلى البيت الذي أقول فيه:

يا لَيتَ ذا القَلبَ لاقى مَن يُعَلِّلُهُ أَو ساقِيًا فَسَقاهُ اليَومَ سُلوانا

أَو لَيتَها لَم تُعَلِّقنا عُلاقَتَها وَلَم يَكُن داخِلَ الحُبِّ الَّذي كانا

فسمعته يردد همسًا: أو ليتها!

فأكملتُ إنشادي وكأني لم ألحظ شيئًا حتى وصلت إلى قولي:

يا أُمَّ عَمروٍ جَزاكِ اللَهُ مَغفِرَةً رُدّي عَلَيَّ فُؤادي كَالَّذي كانا

فوجدته توقف وقبض على معصمي ونظر إليَّ بعينيْن تقذفان الشرر بغير الوجه الذي اعتدته:

- أتصرح بزوجتك يا جرير؟! أين المروءة يا ابن البادية؟!

- يا شيخنا، والله لا هي امرأتي ولا أعرفها، إنما اسمٌ مجازي.

- هل لك زوجة؟

- نعم، ولي منها حرزة وسوادة، وقد جلبتهم معي إلى هنا.

- بارك الله لكما، أكمل يا أبا حرزة!

أكملتُ إنشادي للقصيدة التي ظننتُ أنها مسَّت وترًا في نفس ابن سيرين لكنه لم يُعقب على شعري بالحسن أو بالسوء وإن أبدت قسماتُ وجهه استحسانًا حتى وصلت إلى قولي:

إِنَّ العُيونَ الَّتي في طَرفِها حَوَرٌ قَتَلنَنا ثُمَّ لَم يُحيِينَ قَتلانا

يَصرَعنَ ذا اللُبِّ حَتّى لا حِراكَ بِهِ وَهُنَّ أَضعَفُ خَلقِ اللَهِ أَركانا

فوجدتـه رفـع يـده أن قـف! وقـال لـي: أشـهد أنـك لشـاعر وأتوقـع لشـعرك أن يبلـغ الآفـاق والأزمـان.

***

الحَجَّاج

-8-

نمتُ ليلتي الثانية هانئ البال، طرب الروح، مبتهجًا؛ فقد رأيتُ تسيب الحراس واسترخاءهم، وهذا مما سوف يبرز يسير انضباط مني، فالأعورُ في بلد العميان يمامي النظر. ففي صباح اليوم التالي سلمت حصاني ودرعي وسيفي إلى قائد معسكر الجند وذهبتُ إلى دار الشرطة بالخطاب الذي أعطانيه روح بن زنباع، فسلموني خوذة، ورمحًا، ومشعلاً، وملابس تشبه تلك التي كان يلبسها عَطَاء الحلبي فعلمت أني أصبحت من الحرس لا من الشرطة.

فالشرطة منوط بها ضبط اللصوص، وملاحقة الجناة، وتوفير الأمن، ومراقبة الأسواق، وتفقد الطرق، وحماية القوافل.. أما الحرس فمنوط بهم حراسة قصور الخلافة، ودور الإمارة، وبيوت كبار رجال

الدولة، والمساجد، والمخازن، والدواوين، وبيت المال.. وقد جاءت خدمتي في حراسة دار الحجارة، وهي الدار التي اتخذها خالد بن يزيد بن معاوية مقرًّا لدراسة علم الصنعة.. ويبدو أن خالد بن يزيد قد هان أمره حتى يوكلوا حراسته لرجلٍ مثلي، لم يُجربوه بعد!

أخذتُ على عاتقي الالتزام والانضباط وإن حرَّسوني على كوم تراب سأحرسه بكل ما أوتيت من يقظةٍ ونشاطٍ. فذهبت إلى دار الحجارة وقد كانت في منأى عن قلب العاصمة النابض ولم أجد سوى شرطي أصابه الكبر يستند إلى رمحه استنادًا ولرمحه هيبه تفوق هيبة حامله! فأنَّى بهذا أن يحرس نفسه فضلاً عن حراسة دار الحجارة التي يتردد عليها من كان مجلسه مكان مجلس عبد الملك!

سلمتُ عليه وسلمتُ نفسي له، وعرفته بنفسي وأني من سوف أناوبه الحراسة، فرحب بي فرحًا وبحكم كبر سنه اقترحت أن أحرس أنا ليلاً ويحرس هو نهارًا ففي ديوان الحرس ألزموني معاونته لا مرافقته، وتركوا لنا حرية تصريف الشأن. كما أن لي في الليل خلوة لأراجع قرآني وأصفو لنفسي فالليل فيه حديث الذات للذات، وصمت الليل يمنح النفس مندوحة لتسمع نفسها وفيه تتجلى النفس أمام نفسها لترى في دجنة الليل ما لا يرى في سناء النهار؛ قبل أن تنبت شمس النهار فتتلاشى النفس تحت وطأة الضوء الذي ينير الكون ويظلم النفس، فصخب النهار يبدد سكون الليل، فالنهار للكد والسعي والليل للخواطر والفكر.

كان الرجل يُدعى يعقوب فذكرني بأيام مكة وعمي يعقوب رحمه الله. أدخلني الدار لأتفقدها وأعرف مداخلها ومخارجها.. لا سيما أن خالد لم يأت بعد.. كانت من طابقين يحوطها فناء كبير تناثرت فيه نباتات وزروع ليس لي عهد بها، قال لي عمي يعقوب إنها نباتاتٌ نادرةٌ جلبها من مصر واليونان ليستخلص منها بعض المواد التي يستخدمها في صنعته، ونبهني ألا أنعتها بعلم الصنعة أمام الأمير حتى لا أثير غضبه. وعليَّ أن أنعتها بالكيمياء!

- الخيمياء تقصد يا عم يعقوب؟

- لا يا ولدي، الخيمياء هذه سعي المخابيل وراء السراب، أتظن أن النحاس يصبح ذهبًا؟

- نفس ظني بأن يصبح الرجل امرأة.

- أهل الخيمياء يظنون ذلك، لكن الكيمياء هي علم يختص بدراسة العناصر والمركبات واتحادها وانفصالها والمركبات الناتجة منها، وكيفية الاستخدام الأمثل لهذه المركبات.

كنا قد قطعنا الفناء الشاسع ووصلنا الدار. لها بابٌ كبيرٌ مررنا منه وبالداخل عدة غرف مملوءة بالكتب ويفترش الأرض مجموعة من الخطاطين والنساخين والمترجمين. أخبرني أنهم يعكفون على ترجمة كتب الكيمياء من اللغات المختلفة كاليونانية والقبطية والفارسية إلى اللغة العربية.

في الطابق العلوي كان المختبر المكتظ بقاروراتٍ شتى مختلطة الرائحة، وعلى طاولةٍ طوليةٍ العديد من الدوارق التي مُلئت بنسبٍ متفاوتةٍ بمواد مختلفة الألوان، مدون على كل دورق اسم عسير الهجاء فضلاً عن اللفظ، وبجانب الدوارق العديد من الأملاح والمساحيق والأحجار. أخبرني أن هنا يقوم خالد بالتجارب وتركيب المركبات وسعيه وراء الحجر الكريم.

- ها هو ذا يبحث عن تحويل الذهب! ألم أخبرك أنها خيمياء؟!

- يا ولدي إنه يبحث بطرقٍ علميةٍ مُعقدةٍ، وليس بمضارب الدجل المعهودة.

قطع حديثنا رؤيتي في جانب المختبر مكتبًا ومن خلفه مقعدًا ومن خلف المقعد مكتبة صغيرة تحوي عدة كتب، شكلها وهيئتها غير التي رأيتها بالأسفل، فاقتربت منها محاولاً استكشافها فحذرني من الاقتراب أو المساس بها حتى لا أثير غضب خالد إن عرف أن أحدًا اقترب من كتبه.

- أهي كتبه بالتأليف أم بالامتلاك؟

- بالتأليف يا ولدي، منذ أن مات أبوه وعلم أن الخلافة لن تؤول له ما دامت وصلت لداهيةٍ مثل مروان، انصرف لهذا العلم وأنفق عليه بسخاء واستقدم العلماء والمترجمين من شتى البقاع، فكان أول من اهتم وفكر وتعمق وترجم وألف في هذا العلم من العرب.

- ربما طلب الخيمياء طمعًا في المال بعدما يئس من طلب الخلافة.

- يا ولدي هذه كيمياء وليست خيمياء، وأي مال يرجوه خالد؟! والله إن لديه من أموال لو شاء حصرها لوافته المنية قبل أن يبلغ ذلك!

بدافع الفضول اقتربت أكثر من تلك المكتبة حتى تسنى لي قراءة عناوين ما ألف خالد! أو ما زعم عمي يعقوب أنها مؤلفات خالد! فإذ بكتاب معنون بالسر البديع في فك رمز المنيع. أخبرني أن هذا الكتاب في شرح رموز وطلاسم الخيميائيين الأوائل ليتمكن دُراس الكيمياء العرب من فهم من سبقوهم. وإلى جواره كتاب ضخم معنون بفردوس الحكمة في علم الكيمياء. أخبرني أنها منظومة شعرية مكونة من ألفين وثلاثمائة وخمسة عشر بيتًا نظمها خالد بن يزيد في شرح الكيمياء.

وفي أقصى يسار الطابق العلوي رأيتُ طاولةً مديدةً عليها العديد من المُدي والمباضع وآثار دم جاف وبعض العظام التي تبدو أنها عظام آدمي! فأخبرني أنها طاولة التشريح! فخالد مُهتم أيضًا بالطب ودراسته وجسم الإنسان وتشريحه، كما أن المترجمين الذين رأيتهم بالأسفل عاكفون على ترجمة كتاب جالينوس في الطب.

- ألا وربي إنه لمخبول!

- يا حجاج! لا تلقِ بنفسك إلى التهلكة يا ولدي، فحتى لو أن أهله نبذوه فما زال له فيهم صلة ورحم ولن يقبلوا أن ينتقص أحدٌ منه، فبنو أمية روحٌ واحدة موزعة في عدة أجساد.

- لم أقصد الانتقاص منه! لكن من يترك الحكم والخلافة ومجلسها ليقضي يومه في دارٍ خربةٍ مثل تلك الدار، يصب الأحماض ويُجري التجارب كالسحرة والدجالين لا شك لديَّ أنه مخبول.

- مخبول مخبول يا ولدي، علينا حراسة ذلك المخبول، وحراسة داره، وما علينا سوى...؟

ثم سكت مشيرًا إليَّ لأكمل:

- السمع والطاعة!

***

رحل عمي يعقوب عند الغروب، ثم تبعه كل العاملين الذين كانوا داخل الدار من خدمٍ ومترجمين ومخابيل أو قل دارسي الكيمياء! وتركوني لليل والوحدة، فالدار نائية الطرف بعيدة الجانب لا يكاد يصلني من أصوات سكان دمشق سوى نباح كلابهم وصهيل جيادهم.

بعد العشاء أشعلت مشعلي الذي تسلمته من دار الشرطة، وأمسكتُ برمحي وارتديتُ خوذتي وطفت حول الدار متفحصًا السور الذي يُحيط بها، متممًا على الأقفال التي تغلق الباب الوحيد المؤدي للفناء المُحيط بالدار، رغم ظني أنه ليس هناك عاقل سيحاول السطو على دار بها بعض المواد الكيمائية من محاليل وأحماض وبعض أدوات المعامل من دوارق ومخابر وأقماع! والكثير من الكتب التي لم أعرف لغتها لكنها قطعًا ليست عربية ولا فارسية وأظنها قبطية أو رومية. لكني كلفت بالحراسة وعليَّ أن أقوم بواجبات الحارس.

مضت عليَّ شهور على هذا الحال، في المساء أحرس الدار التي ترقد بثباتٍ منذ الغروب كأنها شاهد قبر، لا يفزع نومها إلا تلك الليلات التي يأتي فيها خالد ومعه بعض ضيوفه من مخابيل مثله!

كنتُ قد صادقت غلام خالد، القائم بشئونه والعامل على تلبية طلباته لا سيما شغفه العلمي، وكان يُدعى غالب، فأخبرني غالب أن خالد مستقدم من بيت المقدس عالمًا فذًّا اتخذ العلم والرهبنة نهجًا في الحياة.

- ألا يكفيه ما وصل إليه، إن في خزانته كتب لو أمضى عمره في قراءتها ما نفدت؟

- سيدي شغوف بالكيمياء ولو أخبر أن في أنأى أطراف الأرض عالمًا لديه السر الذي يبحث عنه لشد الرحال إليه.

- وما اسم هذا الفذ الذي أرق سكون الدار؟

- هذا مريانس الراهب! ألا تعرفه؟!

- لستُ مخبولاً لأعرف المخابيل أمثاله!

تركني غالب وانصرف وكأنه مسه الذي مس خالد فأصبح مثله، فالناس تترك مضاجعها وتؤرق ليلها لتحفظ كتاب الله أو تتدارس سنة رسوله أو يسمرون في سماع الشعر والقصص أو يحرسون دور المخابيل مثلي! وهؤلاء يسهرون ليلهم في البحث والتمحيص للبحث عن أشياء لا طائل منها!

وبرغم نفوري من أفعال خالد واهتماماته فإن جمرة الشغف استعرت في قلبي فأردتُ أن أطلع على ما خطه خالد وما تحتويه كتبه التي يخشى من أن يمسها أحد.

ذات مساء بعدما عادت الدار لسكونها الليلي المعتاد وانتهت زيارات خالد وضيفه الراهب هذا، نخر في رأسي خاطر أن أتسلل إلى خزانة خالد وأرى ما بها من كتب ومخطوطات، فإذا كان عمي يعقوب يعرف ما بها فلا بد أنه اطلع عليها! فلمَ لا أطلع عليها أنا الآخر ؟!

كان الوقت هجيعًا والسكون يعم الأرجاء حتى الكلاب قد صمتت عن النباح، فلم أرَ خيرًا من هذا الوقت لأدخل إلى الدار وأرى ما بها دون أن يراني أحد أو يعلم أني دخلتها، أشعلت مشعلي مجددًا، وأخذت المفتاح الذي أحتفظ به معي حتى إذا جاء خالد ليلاً أفتح له، ثم عالجت القفل ودخلت مادًّا الخطى في الفناء واصلاً إلى قلب الدار ومنها إلى الطابق العلوي، ثم إلى الخزانة متحاشيًا أن يمس مشعلي أي ورقة حتى لا تقع المصيبة وتحترق الدار بما فيها.

كانت الخزانة تحتوي على عدة كتبٍ أخرى غير التي لاحظتها في مرتي الأولى، كانت ذات مسميات مختلفة مثل: (كتاب الحرارات، كتاب الرحمة في الكيمياء)، ولحبي في الشعر مددتُ يدي وأمسكت بكتاب فردوس الحكمة الذي قيل لي إنه منظومة شعرية فأحببت أن أطلع عليها. ففتحته فوقعت عيني على أشعار تقول:

فإذا أردت مثاله فاعمد إلى جسم النحاس وناره الصفراء

فامزجهما مزج امريٍ ذي حكمة واحكم مزاوجة الهواء بالماء

ما هذا الهراء؟!

أهذا هو العلم الذي ترك خالد من أجله الحكم والخلافة؟! على أيه حال أكملت تجولي وتفحص محتويات الخزانة ورأيت ما

بها وخبت جمرة شغفي. وضبطت كل كتاب في مكانه مثلما كان وأغلقت الخزانة وهممت بالمغادرة قبل أن ألمح على المكتب الذي يجلس عليه خالد ألواحًا حديثة الكتابة، تبدو أنها مسودة لكتابٍ جديدٍ يعمل عليه خالد فخط كاتبها مثل الخط الذي رأيته في الكتب التي بالخزانة.

قربتُ المشعل بحذرٍ حتى أستطيع تبين الأحرف ومعرفة الكلمات فكان عنوان الكتاب: مقالتا ميريانس الراهب في الكيمياء! فعلمت أن هذا الهراء لن ينتهي قريبًا!

خرجتُ من الدار كما دخلتُ لم أترك أثرًا ولم أغير لوحًا عن موضعه، وأقفلت القفل كما كان. وسرتُ عائدًا لكوخي الذي أجلس به وهو في طرف السور المُحيط بالدار، وما إن نقلت خطوتي مرتين حتى لمحت خيلاً مُقبلة من طرف المدينة ومشاعلهم مشهرة، فإذ بهم يقتربون مني وظني أن مقصدهم الدار.. وقد كان!

كان في مقدمة الخيل قائد الشرطة الذي توسط لي قريبي عنده ويتبعه عدة جنود تحت إمرته في دوريةٍ مفاجئةٍ يتابع بها انضباط الشرط وحراستهم للأماكن المخوَّلين بحراستها.

اقترب مني فوجدني يقظًا مرتديًا لباسيَ الشرطي متقلدًا رمحي ومشعلي، وأظنه لم ير في عيني أثر نوم أو في وجهي هلع الغفلة فقد كنت خارجًا لتوي من داخل الدار بعد رحلة استكشافي لها.

- أين ذلك الشيخ الواهن الذي كان يحرس تلك الدار؟

كان موجهًا سؤاله لي.

- تمت إضافتي لقوة حراسة الدار منذ تسعة أشهر يا سيدي، ونتناوب أنا والعريف يعقوب بن مهران حراستها، فله وردية النهار ولي وردية الليل.

تفرس في ملامحي كأنه يتذكرني:

- ألست من توسط لك الثقفي لتنقل من ديوان الجند إلى الشرطة؟

- أجل يا سيدي.

تركني وتوجه إلى أحد الجنود الذين أتوا معه تبدو عليه أنه كبير الشرط وصاح فيه:

- أهذا هو حسن توزيعكم للشرط؟! نمر على حراس بيت المال نجدهم تاركين سلاحهم، ونمر على حراس ديوان الخاتم والبريد نجدهم نائمين، ونمر على تلك الدار النائية التي لو تركت وحدها أبد الدهر لن يدخلها جرو فنجد حارسها متقلدًا رمحه، مشعلاً مشعله، مرتديًا زيه، قائمًا بعمله!

- الأمر كما ترى يا سيدي.

- من الغد، تتم إعادة توزيع الشرط طبقًا لكفاءتهم، وحساسية المكان الذي يحرسونه، وهذا الشرطي تتم ترقيته وليكون قائد حرس بيت المال، فنحن بحاجةٍ إلى رجال أكفاء مثله.

***

في صباح اليوم التالي سلمتُ على عمي يعقوب سلام المُودع، وذهبتُ إلى ديوان الشرطة والتقيت بكبير الجند الذي رأيته بالأمس. ذكرته بما حدث فكان يذكرني وأنهى إجراءات ترقيتي وأعطاني جوادًا وسيفًا وملابس غير التي كنتُ أرتديها كحارسٍ عادي بل الجديدة عليها علامة رتبتي الجديدة: قائد حرس.

تسلمتُ جوادي وتركته في مربط الجياد الخاص بالشرطة وغيَّرت ملابسي في دار الإقامة بملابسي المدنية وذهبت مترجلاً إلى بيت المال رغم أن كبير الشرط قد أمهلني حتى صباح الغد لأبدأ مزاولة عملي لكني من نشوة الفرح ولهيب الحماس رفضت الراحة وآثرتُ مباغتة الحرس لأكشفهم على حالتهم الطبيعية قبل أن تصلهم إشارة خلع رئيسهم وتولية رئيس جديد فيضبطوا حالهم ويتظاهروا بالانضباط والتمسك بأماكن الحراسة.

وجدتهم بحالٍ فاسدةٍ، يضربهم الإهمال والاستهتار، فكبير الحرس جامعهم حوله في غرفته يتبادلون القصص والطرائف ويتمايلون من الضحك عليها وليس بهم أحدٌ متقلدًا سيفه أو ضابطًا ثيابه أو واقفًا بمكانه، تاركين من يدخل ومن يخرج يخرج لا يسألون فيما أتى ولا ماذا يحمل ولا إلى أين يذهب!

دخلتُ بيت المال فلم يعترضني أحدٌ! تجوَّلت بداخله فلم يستوقفني نفرٌ! قلبت في بعض الدفاتر لم يتصد لي عامل! فعلمت أن جذور الفساد ممتدة في كل مؤسسات الخلافة وليس الشرطة فحسب!

في صباح اليوم التالي كانت قد وصلت الإشارة بتغيير قائد الحرس وسحبه من موقعه، فنمى إلى علمهم أن هناك قائد حرس جديدًا سيأتي فتظاهروا بالانضباط ! أي انضباط تظهرونه وقد رأيتكم على حالكم بدون تظاهر أو تمثيل؟! أي محاكاة هزلية لانضباطكم المفضوح؟! والله لأضبطنكم حتى يعلم أحدكم النمل الذي دخل أو خرج من بيت المال.

جمعتهم وأظهرت لهم ما يجب أن يظهر به القائد من حزمٍ وعزمٍ. أعدت توزيع أماكنهم والواجبات المنوطة بهم وعرفتهم ثواب القائم بعمله وعقاب المتخاذل فيه طبقًا لقواعدي الخاصة وليس طبقًا لقواعد الشرطة.

وزعتهم بحيث جعلت اثنين من الحرس على المدخل الرئيسي لبيت المال. أحدهم مسئولاً عن تفقد الداخلين إلى بيت المال سواء من عمال بيت المال أو الموردين أو المستحقين وتفتيشهم ومعرفة مقدار ما معهم من أموال. والآخر مسئولاً عن تفقد الخارجين من بيت المال ومقدار مع معهم من أموال مقارنة بما دخلوا به ومراجعة الزيادة طبقًا لسجلات الصرف.

ثم عيَّنت على كل نافذة من نوافذ بيت المال حارسًا قائمًا بها يراقب كل من حاول الاقتراب منها أو التلصص عليها ولو من بعيدٍ والقبض على كل مشتبهٍ به يحوم حول بيت المال ولو بمجرد الظن. فسوء ظن يمنع مصيبةً خيرٌ من حُسن ظن يسمح بوقوعها!

***

بعد الأسبوع الأول من تطبيق حراستي الصارمة حول بيت المال كانت المنطقة المجاورة له لا يمر بها أحدٌ خشية الاشتباه به بعدما أمسك الحرس بخمسة أشخاص حاولوا الاقتراب غير المبرر من السور المُحيط بالبيت، وبعد تحقيقي المرير معهم اتضح أن ثلاثة منهم ليسوا من دمشق ومروا بالمكان مصادفةً فأخليت سبيلهم، واثنين فارين من معسكر الجنود أمرت بترحيلهما إلى ديوان الجند ليرى فيهم أمره.

في الأسبوع الثاني تم الإمساك بعاملٍ استغل هفوةً من أحد محاسبي بيت المال واختلس أربعمائة درهم رومي، فأمرت بترحيله إلى دار القضاء وخاطبت القائم على بيت المال لمحاسبة ذلك المحاسب الغافل.

بعد مرور شهرٍ كان بيتُ المال آية في الانضباط والالتزام حتى ضبطت بيت المال نفسه رغم أنه خارج اختصاصي ولو ضاع فيه درهمٌ واحدٌ لعرفت من أدخله ومن أضاعه وفي أي موضع يرقد داخل الدار أو خارجها.

***

بعد مرور عدة أشهر كان اسمي يتردد في ديوان الشرطة مقرونًا بالحزم والعزم والانضباط حتى تمت زيادة راتبي مكافأةً لي على ما أقدمه من تفانٍ في العمل! ألا يعلمون أن هذا واجبي المنوط بي تأديته وليس تكرمًا مني؟! على أية حالٍ كان هذا الصيت والجزاء فخرًا لي لا سيما حين قدم أبي دمشق وافدًا على الخليفة وزيارتي، حاملاً معه لي هدية في غير أوانها.

- زوجة يا أبي؟! تُزوجني بلا إرادةٍ مني ولا حتى شورى عليَّ؟

- مثلك لن يتزوج إلا هكذا.

- مفاجأة؟!

- رب ما يفاجئك يسرك.

- كأنك تتحدث عن ثوبٍ ألبسه أو جوادٍ أمتطيه!

- أمك خطبها لي المغيرة فأتت لي بك، ألم تكن مفاجأة؟

- كانت لديك حرية القبول والرفض.

- لستُ أنا الذي يرفض مَن أراد لي عمار بيت وكذلك ابني.

- يا والدي...

- أتُعارضني يا حجاج؟! أليس من العيب أن يبلغ صيتك من دمشق إلى الطائف في السمع والطاعة لخليفة المسلمين وولاته ولا تطع والدك؟!

- سمعًا وطاعة يا أبي.

***

كان أبي قد رتب مع أقاربنا في دمشق فجهزوا لي بيتًا أسكن فيه مع زوجتي، ولأول مرة في حياتي أكون أنا رب البيت! فبين عشية وضحاها أصبحتُ مسئولاً عن بيتٍ وزوجةٍ، والأدهى أني لا

أعلم صفتها حتى الآن سوى اسمها وأنها بنت النعمان بن بشير! ماذا فعلت بي يا أبي؟! ألم يكن أبوها زبيريًّا ومات على ذلك؟!

دخلتُ الدار مغصوبًا ونفسي منها وَجِلة، جلستُ على أول أريكةٍ قابلتني فليس في قلبي مندوحة لتقبل معارضي الخليفة ولا أرى تفسيرًا لفعلة أبي هذه! أخلت الأرض من النساء حتى أنكح هذه؟! ولم يبق سوى بنت أحد أتباع ابن الزبير حتى يزوجها أبي لي؟!

- ألن تغير ثيابك يا سيدي؟!

كان هذا أول ما سمعته منها.

نظرتُ تجاهها بعدما كنت مطرقًا أرضًا حتى لا تظن بي الظنون، فالعذارى مشحونة أدمغتهم بخرافاتٍ عن هذه اللحظة. حين نظرتُ وجدتها حاملة على يديْها ثيابًا جديدةً بيضاء ناصعة قد جلبتها لي معها وهي لا تزال ببرقع العرس!

قمتُ إليها ورفعتُ برقعها فرأيت وجهًا وضَّاء، بهي الطلة يأسر القلب لولا ما في القلب من والدها وحزبه الذي كان عليه:

- كان أبوك زبيريًّا، فكيف أنتِ؟

- المرأة على رأي زوجها.

- وما كنت عليه قبل أن تتزوجي؟

- هل هذا حديث الحادثة؟

آه من النساء، يعرفن كيف يهربن من الإجابة بلا تصريح ولا تلميح! فلم أجد مفرًّا سوى أن أبني بها، تاركًا الأيام تظهر لي جوهرها ورأيها.

***

ما مضى علينا العام معًا إلا وقد رزقنا الله بأول نسلي. ما أجمل أن ترى نفسك في جسد طفل، تلك العيون المغمضة، والكف المُنقبضة، والبشرة الرطبة، والقدمين الصغيرتين، والصراخ المُتواصل على إزعاجه إلا أنه يُطرب القلب. هذا من يحمل اسمك ويكنيك الناس به، سميته محمدًا ليكون سميًّا لأخي محمد الذي قدم إليَّ بعد زواجي بستة أشهر فألحقته بديوان الجند. لتكون لنا يدٌ في الشرطة ويدٌ في الجند.

كان قدوم محمد قدوم خير عليَّ، فما أن نفدت عقيقته إلا وجاءني استدعاء إلى قصر الخلافة، علمتُ من الرسول أن في الأمر ترقية لي وتكليفي بأمر ذي شأن.

ارتديتُ ملابس على أكمل ما يكون وذهبتُ إلى قصر الخلافة في الموعد الذي حددوه لي، فوجدتُ في حضرة الخليفة روح بن زنباع الذي أصبح وزير الخليفة، بالإضافة إلى قيادة الشرطة وعمرو بن سعيد أحد أكبر قادات الجيش وعدة رجال من وجوه الشام.

- السلام على أمير المؤمنين.

- خلوا بيننا!

كان هذا أمرًا من الخليفة إلى كل من بالمجلس حتى قائدي روح بن زنباع بأن يخلو مجلس الحكم ويتركونا بمفردنا.

- أأنت الحجاج الذي ملأ خبره السمع والبصر؟! والله إني لا أراك بالرجل المُهاب.. ولا أرى فيك إلا رجلاً أخفش العينين، مفرطح الرأس، دقيق الصوت، نحيف الجسم، سيفك يخط الأرض من قصر قامتك، فكيف للشرط أن يهابوا مثلك؟!

- الرجال على قدْر أفعالها وليس أجسامها يا أمير المؤمنين؛ ورجالي عهدوني فما رأوني وهنت بعد عزمٍ، ولا تراخيتُ بعد حزمٍ، ولا حنثتُ في يمينٍ، ولا رجعتُ في قرارٍ، أشد إحسانًا للمُحسن وأصعب وبالاً على المسيء.

- ما من رجلٍ إلا ويعرف عيب نفسه.. فصِفْ لي عيوبك!

- اعفني يا أمير المؤمنين!

- كلا.

- أنا لجوج، لدود، حقود، حسود.

- أفٍّ لك! ما في الشيطان شر مما ذكرت!

- أنا لا أقود رجالاً من الملائكة حتى أكون عليهم ملاكًا يا أمير المؤمنين.

- ولهذا اخترتك لأمرٍ، لو قمت به سيكون لك شأن عظيم في ربوع الخلافة كلها.

- على أمير المؤمنين الأمرُ وعليَّ الطاعة والتنفيذ.

حدثني عن تراخي العسكر وفرارهم من المعسكرات وذهابهم إلى بيوتهم لمضاجعة نسائهم وملاعبة أطفالهم.. وأنهم لا يرغبون في الذهاب إلى العراق خشية الطاعون الزاحف بها وأنهم لا ينزلون لنزوله ولا يرحلون برحيله حتى إنه يريد تجهيز جيشٍ للخروج إلى قرقيسياء لمنازلة زفر بن الحارث القائم عليها لابن الزبير لكن العسكر لا يُطاوعونه في ذلك ولا يجد العدد الكافي من الجند ليخرج بهم!

- سأقلدك أمر العسكر ولنرى فعلك.

- متى يحب أمير المؤمنين أن يخرج على رأس جيشٍ كامل العدد؟

- تكفيك جمعة؟

- أطلق يدي وأمهلني ثلاثة أيام!

***

خرجتُ من مجلس الحكم مكلفًا بجمع كل جند الشام في غضون ثلاثة أيام، ولي الصلاحيات التامة للوصول إلى ذلك. تخيرتُ رجالاً من شرطتي ممن أثق بهم وكان معظمهم من قبيلتي، ثم أرسلتُ إلى أخي محمد ليأتيني بمن كان على شاكلته في السمع والطاعة من الجند فكوَّنت فرقة من خمسمائة جندي وشرطي أطلقتهم في شوارع دمشق ينادون في الناس أن كل من تخلف عن الحضور والانضمام لمعسكر الجند في خلال يومين أحرقت عليه داره بما فيها من نساء وأطفال.

ظن الناسُ أن هذا استنفار مُعتاد كما عهدهم من القادة الذين سبقوني، فكانوا بحاجةٍ ليروا بأعينهم ما وعدتهم به حقا. ففي يومي التالي سرتُ في شوارع دمشق أفتش البيوت بحثًا عن متخلفٍ عن

الزحف وما أن وجدتُ أول متخلفٍ حتى أحرقت عليه داره فخرج منها يجري متلحفًا النار التي أمسكت بملابسه فما رأى الناس ذلك حتى خرجوا كما تخرج الفئران من جحورها!

اكتظت المُعسكرات بالجند، حتى إن الجندي لا يجد موضعًا ليضع قدميه معًا! فمررتُ بينهم أرتب صفوفهم وأنظم وقوفهم وأتأكد من اكتمال سلاحهم وعتادهم، وأراقب الحدادين الذين يعملون على صنع أسلحةٍ تكفي هذا العدد الإضافي الذي أضفته للجيش.. فعلاوة على قوة الجيش الفعلية قد أضفت العديد من الفتيان والشباب والرجال الذين لم تكن لهم خبرة بالحرب ولا القتال قبل ذلك. وفي وسط هذا الانهماك في التخطيط والترتيب والتجهيز مررتُ بجانب المعسكر فوجدت مائة جندي مستظلين الخيام، مفترشين الأرض في مساحةٍ تكفي لألف جندي ويتلاعبون بالطعام والشراب فيما بينهم ولا يشغلهم في تلك المعمعة شاغل!

- ما هذا الشظف، ألم يأتوكم رجالي بالجواري والقيان ليروحن عنكم؟!

- أتسخر منا يا ابن اللخناء؟

- أنتم لم تروا السخرية بعد.

أمـرتُ محمـد أخـي أن يجمعهم فـي جامعـةٍ واحـدةٍ علـى رؤوس الجنـد ويجلـد كل واحـد منهـم خمسـين جلـدة دون حسـاب الجلـدة الواهنـة ومن ثم يطوفـون المعسكر حفـاة، عرايا إلا مما يستر سوءاتهم وتحـرق هـذه الخيـام ويصـادر هـذا الطعـام وليكونـوا عبـرةً لـكل مـن رآهـم مـن أصغـر جنـدي إلـى أكبـر القـادة.

مـا فـرغ محمـد مـن تنفيـذ عقوبتـي فيهـم حتـى جاءنـي استدعاء أمير المؤمنيـن يطلبنـي علـى وجـه السرعة! فركبـت جـوادي وهرولـت نحـو قصـر الخلافـة واستأذنت فـي الدخـول فـأذن لـي علـى الفـور.

مـا أن دخلـت حتـى رأيـت ابـن زنبـاع وعينيـه تطقـان بالشرر وعلـى وجهـه أعتـى علامـات الضجـر وأميـر المؤمنيـن كذلـك..

- ماذا فعلت بجنود وزيرنا يا حجاج؟!

- أي جنود يا أمير المؤمنين؟!

- جنـود روح بـن زنبـاع الذيـن جلدتهـم وطوفتهـم عرايـا وحرقـت فسـاطيطهم!

- أيأذن لي أمير المؤمنين بالخلوة؟!

أمـر كل مـن بالقاعـة بالخـروج بمـن فيهـم ابـن زنبـاع الـذي خـرج والغضـب يـكاد يحـرق الأرض مـن تحتـه وعلامـات التهديـد والوعيـد

تشع من عينيه.. وما أن خلت القاعة حتى تغير وجه أمير المؤمنين وانبسط واقترب لي هامسًا:

- ما حملك على هذا يا حجاج؟! رُوح رجلنا ووزيرنا ويهمنا أمره وبفعلتك هذه وضعت من هيبته وشأنه أمام رجاله! ألا تذكر للرجل أنه من رشحك إلينا؟!

- ما أنا فعلت بهم شيئًا يا أمير المؤمنين.

- ومن فعله؟

- أنت يا أمير المؤمنين، إنما أمري أمرك، ويدي يدك، وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين أن يُخلف على ابن زنباع للفسطاط فسطاطين، وللغلام غلامين، ولا يكسرني فيما قدَّمني له.

- هل جهزت الجيش؟

- وأكثر مما طلبت يا أمير المؤمنين.

***

خرج الجيشُ جرارًا، كل جندي لا همَّ له سوى ألا يتخلف، فإذا كان يخشى الطاعون بالعراق فإنه يخشى الحجاج بالشام! وخشيته للحجاج أهيب وأعظم.. فهم هكذا لا يطيعون حتى يردعوا ولا ينضبطون حتى يخافوا.

كان فيمن خرج على رأس الجيش: عبد الملك قائدًا ونائباه روح بن زنباع وعمرو بن سعيد على الميمنة والميسرة وخرجت معهم قائد لواء الإمداد، واستخلف عبد الملك على دمشق قبل خروجه عمي عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي.

مضى الجيشُ في مسيره تتقدمنا المراصد والبصاصون وتخلفنا عيوننا لتحمي ظهرنا حتى وصلنا إلى منطقةٍ تُدعى بطنان حبيب عند الغروب. فرأى أمير المؤمنين أن يُعسكر بها حتى الصباح ومن ثم يُكمل الجيش المسير.. فأمرت بالخيام فضُربت، وبالرواحل فقرت، وسعى الجنود في تأمين المكان وتهيئته حتى يبات الخليفة، ونزل كل الجيش بنزول الخليفة الذي اتخذ لنفسه فسطاطًا خاصًّا ولنائبيه كل منهم فسطاطًا ولقادة الألوية فسطاطًا واحدًا يجمعنا معًا. ولأني قائد لواء الإمداد كان عليَّ متابعة الجند وتفقد أمرهم والتأكد من أن كلاًّ بموضعه.

بينما أنا على صهوة جوادي في منتصف الليل، أدور بين خيام الجند وأتفقد أمرهم وأرعى حالهم رأيت قائد الميسرة عمرو بن سعيد ومعه رجلان يسرجون جيادهم، فذهبت إليهم لأرى ما الأمر.

- سنخرج في رحلةٍ كشفيةٍ لتفقد مسير الجيش غدًا، فلم نترك دمشق حتى نفترش أرضًا بطناب ونلتحف سماءها.

كان هـذا مـا أخبرنـي بـه القائـد قبـل أن يلكـز جـواده ليحثـه علـى السير ويتبعـه الرجلان؛ لكن أظنـه سار في اتجاه العـودة إلى دمشـق وليـس التقـدم نحـو قرقيسـياء!

لـم يدعنـي وسواسي وشأني وظـل ينخـر بإصرارٍ طارقًا في خلدي أن في الأمر مكيـدةً تُـدار والخليفـة والخلافـة فـي خطـر، لكنـي ليـس لـديَّ مـا يجـزم بوساوسي فالقائـد يفوقنـي رتبـةً وقربًا مـن الخليفـة وليـس لـي أن أتخطى سلطاتي، فحادثـة رجـال ابـن زنبـاع مـرَّت بسلامٍ لكـن مـن ذا يأمن غضبـة عبـد الملك حتـى يتمـادى فـي إحـراج قادتـه؟! لـم يكـن فـي يـدي شـيء! هـل أستوقفه أم أمنعـه مـن الخـروج مـن المعسكر؟!

ظللـت هكـذا حتـى وقـت الفجـر واستيقاظ الخليفـة للصلاة وحيـن انتظمـت الصفـوف لـم يجـد عمـرو بـن سـعيد بينهـم فلمـا انتهـى مـن صلاتـه سـألني عنـه فأخبرتـه بمـا جـرى.

- أتعرف الرجلين اللذين كانا معه؟

- أجل يا سيدي، حميد بن حريث الكلبي وزهير بن الأبرد الكلبي.

تفكـر عبـد الملـك هنيهـة ولا أشـك أن ظنـي صـادف ظنـه فأمرنـي لحظتهـا بتجهيـز الجيـش وسـرعة العـودة إلـى دمشـق.

***

ما أن اقتربنا من دمشق حتى أتتنا بشائر السوء! بأن عمرو بن سعيد استولى على دمشق وفرَّ منها عمي القائم عليها خشية أن يُمسك به فلما لم يجده هدم داره، وغلب على كل مؤسسات دمشق حتى بيت المال!

تشاور عبد الملك مع وزيره في تلك المُصيبة التي حلت وهذا البلاء الذي نزل، فدمشق حاضرة الخلافة وعاصمتها خارج سيطرة الأمويين الآن، وإن ضاعت منه ضاعت الخلافة كلها. كانا يتشاوران في حضرتي حتى سمعت ما دار بينهما.

- يا أمير المؤمنين هادنه حتى تدخل دمشق وتظل قدمك في عاصمة الخلافة وبعدها نرى ما نرى.

- أأراسله في الصلح؟! أيغتصب سلطاني وأصالحه؟!

- الآن أبواب دمشق مغلقه والخليفة هو من على كرسي الخلافة ومعه خاتم الخلافة وتحت يديه بيت المال ودواوين الجند والبريد والخراج والزكاة.

بعد مجادلةٍ ومحاورةٍ مريرةٍ نزل عبد الملك على رأي ابن زنباع وراسل عمرو بن سعيد في الصلح وفُتحت أبواب دمشق، وعاد عبد الملك إلى قصر الخلافة وأمرني بإعادة الجند إلى ثكناتها حتى يرى رأيه!

***

في صبيحة اليوم الرابع لهذا الصلح أمرني الخليفة بتشديد الحراسة على قصر الخلافة واستنفار الجيش في المنطقة المُحيطة بالقصر.. ونبَّه على أن يكون الاستنفار هاديًا وغير مريبٍ حتى لا تكثر الألسنة حول ما ينوي الخليفة فعله!

هل ينوي الخليفة فعل شيء؟!

لا أدري صراحة، لكني لمحتُ في عينيه نظرة غدر لم أعهده بها! حتى جاء عصرًا عمرو بن سعيد ودخل القصر ومن ثم تبعه أتباعه حول القصر ففطنت لحرص الخليفة على تأمين القصر. ثم خرج الخليفة للصلاة وعاد مجددًا ودخل القصر، وما هي إلا فترةٌ يسيرةٌ وفُتحت شرفة القصر ورُمِيَ منها رأسُ رجل! فجرى الناس نحو الرأس ليتبينوا لمن هي حتى خرج ولي العهد عبد العزيز بن مروان من ذات الشرفة يرمي بِدَرَ المال على الناس فترك الناسُ الرأس ملقاةً على الأرض تختلط دماؤها بالرمال وجروا يجمعون المال الذي انهمر عليهم كالمطر!

بعدما جمع الناس البِدَرَ وكلٌّ أخذ منها حظه رجعوا مجددًا يتفحصون الرأس! تبين لي بعدها أن الرأس لعمرو بن سعيد، وقد أخبرني أحد رجالي أن من قتله الخليفة بنفسه! ثم جاء أمر استدعائي لداخل القصر وأمرني ولي العهد بفرض طوقٍ حول كل من يقف خارج القصر وجباية ما جنوه من مال! آه يا أبناء مروان

حتى العظمة التي ألهيتم بها هذه الكلاب تأبون أن تتركوها لهم! ليس لي شأن فما عليَّ سوى السمع والطاعة فأمرتُ رجالي فجبوا المال بالدرهم وتم إيداعه بيت المال ودُوِّن في السجلات: مالٌ وُهب للرعية ثم جُبِيَ منها!

***

أتم ابني محمد عامه الأول، ووجدتُ في بنت النعمان خير زوجةٍ وصاحبةٍ، لكن لم تدعني ظروفُ الدهر وصروفُ الأحوال أن أمكث بصحبتهم طويلاً فقد أمرني الخليفة بتجهيز جيشٍ لمُعاودة الخروج إلى قرقيسياء حيث مقاتلة زفر بن الحارث في خطةٍ حربيةٍ محكمةٍ لاسترداد العراق من مُصعب بن الزبير لكنهم لن يستطيعوا المرور لمُصعب قبل أن يمروا على أعناق رجال زفر!

جهزتُ الجيش كما أراد الخليفة وأفضل مما توقع وأحسن مما تمنى، وخرجنا قاصدين قرقيسياء بعد أن أمَّنا دمشق حتى لا نطعن في ظهورنا مثلما حدث في المرة الأولى.

وصلنا أرض قرقيسياء ورأى الخليفة أن تُنصب المجانيق حتى نحرق بها المدينة! ثم جاءت رسلٌ من زفرٍ تدعو إلى قتال الرجال الرجال فحمت نفسُ الخليفة لهذه الدعوة وخضنا الحرب رجلاً لرجلٍ، وللحق فقد كانت لرجال زفر علينا غلبة! حتى رأى الخليفة أنهم رجالٌ لا يستحقون القتال ولا النزال أو بالأحرى لم يرَ في رجاله مَن يُباريهم في عزمهم وقوتهم فأمر بالانسحاب!

رجعتُ بالجيش وقلبي بين طائريْ الحزن والفرح! حزينًا على رجوعنا الآسف، ورجالنا الذين قُتلوا ومصابينا الذين وُجعوا، فرحًا بعودتي لداري ورؤية ابني وزوجتي ويبدو أن صلابة قلبي أيام الشباب قد لينتها بنت النعمان!

رجعتُ لها وتآنستُ بقربها وحديثها ودفء حضورها، كانت روحها تشيعُ في بيتي الصغير الألفة والسكن، كانت سكني بعدما طال ترحالي وضربتني بنات الدهر بالجفوة والقسوة، فكانت لي كماءٍ زُلالٍ تسرَّب في هدوءٍ على صخور قلبي الصلدة، المُجدبة، فجلتها من خشونة القسوة وأنبتت فيها بساتين من المحبة.

بعدما مكثتُ معهما أسبوعًا في المنزل لا أخرج إلا للصلاة أو متابعة المهم من الأمور لم تعد لديَّ سِعة أن أغيب عن رجالي وجنودي أكثر من ذلك وحين هممتُ بالخروج منعتني!

- لم نرتوِ منك بعد يا أبا محمد!

- ومَن للعمل إذا جالسنا النساء وبقينا في خدورهن يا بنت النعمان؟!

- في رجالك مَن ينوب عنك وفي أخيك محمد عزمك وحزمك، فابقَ معنا!

- لو كان في رجالي مَن ينوبُ عني ما ولاني أمير المؤمنين أمرهم!

تركتها وخرجتُ وهي باكية العين، دامعة الفؤاد؛ هل أبقى معها لأسترضيها ونترك شئوننا لمصالحة النساء ومواستهن؟! ما بالُ النساء لم يعد لهن شاغلٌ سوى العشق والمضاجعة والاستئناس بزوجها؟! وكأن زوجها لم يجد في الحياة ما يشغله سواها! ما لي وللزواج؟! كنتُ حرًّا طليقًا أضرب في الأرض حيثما شئتُ لا تربطني زوجة ولا يشغلني ولدٌ!

***

الرَّدُّ على خطابِ الإحالةِ:

عزيزي كاظم..

سلامًا طيبًا من مآذن القاهرة إلى نخلات العراق، وبعد.

بدايةً خالص عزائي في أهلك، وفي العراق، فما أصعب أن يفقد المرءُ الأهلَ والوطن! لقد قرأتُ رسالتك بمحض الصدفة فليس من عادتي حين أتفقد البريد أن أفتح رسالة تحتوي على مرفقاتٍ، وأظنك تعلم معنى أن تكون كاتبًا في بلاد العرب! أن يُستباح بريدك الخاص لاستقبال أعمال الهواة وحديثي العهد بالكتابة لتبدي فيها رأيك! والويل لك إذا لم ترد عليهم بنقدٍ دقيقٍ لأعمالهم! وكأنهم لا يُدركون الفارق بين أن تكون كاتبًا وأن تكون ناقدًا! بغض النظر عن الهواة الذين يطلبون وساطتي لنشر أعمالهم وكأني أملكُ مفاتيح دور النشر، والأدهى بمن يقومُ باقتباس رأيك- الودي- على عمله

وينشره على الغِلاف كشهادةٍ منك على جودة العمل! وحين يقرأ القرَّاء العمل ولا يروق لهم أظنك تعلم على مَن تصب قدور النقد حينها، وتتشدق الصحافة بأن آرائي تفتقر للموضوعية وتُكتب للدعاية والترويج، وأكتبها مجاملةً فأضلل القراء! حتى ادعى بعضُهم أني أبيع آرائي مقابل مبالغ ضخمة!

كل تلك الحوادث وغيرها الكثير قد منعني من فتح أي رسالة تحتوي على مرفقاتٍ لأنها في أغلب الأحوال تكون كما ذكرت لك، لكن في حالتك وبكل صدقٍ قد شدَّني الاسم والكُنية فانتبهت لأنه عربي لكن ليس مصريًّا، فلحُسن حظي أن من يُراسلني هم الكتاب المصريون فقط، وحين فتحت الرسالة كانت المرفقات لا تحوي ما اعتدتُ عليه من ملفات ذات امتداد PDF الشهير، بل كانت ملفاتٍ صوتيةً للعديد من المقاطع بصيغة mp3 تتراوح مدتها من ساعة إلى أربع ساعات! وصورًا للوحاتٍ رُسمت بالفحم وتم مسحُها ضوئيًّا فاضحت بصيغة jpeg

حين وجدتُ الملفات الصوتية ظننتُ أنها تسجيلاتٌ لخطبٍ أو دروسٍ دينيةٍ عن تحريم الكتابة والتأليف التي لا يكف حملة صكوك الجنة عن إرسالها لي، فتجاهلتها كالعادة؛ لكن حين رأيت الصور ظننتُ أني قد أصبحتُ ناقدًا فنيًّا أيضًا وعليَّ أن أُبدي رأيي فيها وألقي بعباراتٍ من طراز: بنية الصورة، انسياب الخطوط، تداخل الألوان، إلخ، وما إلى ذلك من كلماتٍ تُقال في مثل تلك الحالات

وربما تكون الصوتيات حفلات شِعر أو موسيقا لأستمع إليها وأنا أستعرضُ الصور! فعقل المؤلف مفتونٌ بافتراض السيناريوهات كما تعلم وأوشكتُ على مسح البريد كالعادة، ولكن تدخل الحظ مجددًا ولهاجسٍ في نفسي قرأتُ نص رسالتك فقد كنتُ تركته كالعادة لظني أنه ديباجاتٌ لا فائدة منها.

بعدما استعرضتُ الصور بعنايةٍ لمست فيك يد فنان، لا خبرة لديَّ في تلك الأمور لكن ذائقتي الذاتية تحدثني بذلك، وكان عليَّ أن أفرغ كل تلك الصوتيات التي بالطبع كانت كلها بصوتٍ واحدٍ، أظنه صوتك مع اختلاف طريقة الحكي والسرد أحيانًا، مع العلم أن بعض الملفات كان معطوبًا أو غير واضح الصوت أو به فيروس قد أتلفه.

المهم، بصفتي كاتبًا فيُحزنني أن أخبرك أن القصة ضعيفة، لا أشكك في حالتك بالطبع، لكن أتحدث كعملٍ روائي قائمٍ بذاته، فهي تفتقرُ لكل مقومات الرواية، وأظنك تعلم أني مهما تدخلتُ بقلمي لن أستطيع إصلاح بنية الرواية أو تغيير تيمتها السردية، وحتى المادة المُتاحة لديَّ لا أقوى على بناء رواية منها، وللعجب فإن قصتك الشخصية قد راقت لي أكثر ووددت لو أتحت لي فرصة معالجتها روائيًّا فظني أنك قطعًا لديك ما تبوح به. لكن على أي حال شكرًا لأنك أرسلتها لي فقد كانت رحلة أضافت لي ولن أندم يومًا أني خُضتها.

القاهرة

عبد الملك

-9-

مات أبي بعدما أتم في كرسي الخلافة عشرة أشهر إلا ثلاثة أيام، سعى خلالها للم شملِ المسلمين وتوحيد كلمتهم تحت لواءٍ شرعي واحدٍ، والأحق بذلك هو لواء بني أمية.

لِقِصَر ولاية أبي لم يستطع إعادة كل ربوع الخلافة إلى رايتنا، فقد وليت أمر المسلمين خلفًا لأبي وليس تحت رايتنا سوى الشام ومصر! وليتني وليتها ولي منافسٌ واحدٌ! وإنما كان لكل جبهة منافسٌ يرى نفسه الأحق بالخلافة! فابن الزبير استولى على الحجاز والخوارج الأزارقة بالأهواز، والشيعة بالكوفة! أضفْ لذلك الروم في الشمال والفرس في الشرق والبربر في إفريقية! والكل يُنازعني مُلكي! وهذا عهدي الذي

بدأتُ به ولايتي: مَن نازعني ملكي نازعته حياته، وإن كنت توليتُ أمر الأمة وأنا فقيهٌ فالآن أجلس لهم على عرش الخلافة وأنا قاهرٌ.

كان أول ما فكرت في استرداده هو العراق، فإن كان بها منافسون غير ابن الزبير فهم منافسون لي أحلافٌ له، وقد يتمكن من عقد هدنة واتفاقات معهم بين عشيةٍ وضحاها وبأي تنازلاتٍ وإن لم يصلح معهم التفاوض سيلجأ لقتالهم فإن لم أسبقه إليهم سبقني ابن الزبير فالعراق هي مصدر المال والرجال الوحيد له الآن بعد استرداد مصر التي كانت له مصدرًا وافرًا للقمح والغلال والرجال.

فكرتُ أن يكون أول مسير لي إلى قرقيسياء لمنازلة زفر بن الحارث العامل عليها لابن الزبير، وحين عرضتُ الأمر على وزيري روح بن زنباع أيده لكن خوفني من عصيان جنودنا في الخروج للقتال، فالطاعون في البصرة والجند يخشون على أنفسهم، كما أن الجيش ما برح أن عاد من مصر ولم يلقَ الراحة الكافية ليرحل في جهادٍ جديدٍ، ولنا في يوم الربذة عظة.

لم يكن في قوس صبري منزعٌ، فأنا الآن الخليفة وعليَّ أن أظهر للرعية منهجي الواضح في استعادة الخلافة، فإن تراخيت مع الجند وأقمت ورحلت تبعًا لهواهم فهكذا هم من يحكمونني ولستُ أنا مَن يحكمهم.

- دعك من أمر الطاعون، وأخبرني أنك فقدت سيطرتك على جنودك يا ابن زنباع.

صمت ابن زنباع ولم يستطع أن يرد عليَّ قولي، فالحقيقة واضحة! لدينا جنودٌ يملون من أخذ أعطياتهم ولا رغبة لهم في الخروج للقتال! متى كانت للجندي رغبة! ما بقي إلا أن نشاورهم في الأمر؟! أتكون الخلافة بالبيعة والقتال بالشورى؟!

- إن كنت لا تقوى على السيطرة على جنودك فأخبرني بمن يصلح لها؟!

- يا أمير المؤمنين، لقد دامت قيادتي لهم حتى عهدوا سجيتي، وأمنوا عقابي، فلو سمح لي أمير المؤمنين فالجند بحاجةٍ إلى وجهٍ جديدٍ لا يأمنون مكره ولا يتقون عقابه.

- ومَن لها يا ابن زنباع؟

- فتى من ثقيف، يُدعى الحجاج بن يوسف، كان أبوه من جلساء أمير المؤمنين مروان بن الحكم وحارب معنا يوم الربذة وفتح معنا مصر، والحجاج هذا شرطي من شرطتنا ما أوكلت إليه أمرًا إلا أتمه.

أمرت بالحجاج هذا، فجاءني في الحال، وقد وجدته غير ما توهمتُ، فقد كان ضئيل الجسد، قصير القامة، غمد سيفه يُلامس الأرض، مفرطح الرأس، في عينيْه خفش، لكن بما أن رُوحًا زكَّاه فقد وليته الأمر وأمهلته ثلاثة أيام فأتمه لي!

***

خرج الجيشُ جرارًا نحو قريقساء، فقد قام الحجاج بما أوكلته إليه على أكمل وجهٍ، حتى إن الجنود فاقت عدد السيوف لأول مرة في تاريخ جهادنا، فما كان مني إلا أن رقيتُ الحجاج ليكون قائد لواء الإمداد في الجيش فمن مثله هو أقدر الناس على شحن وتعبئة الجنود وإلزامهم بالجهاد.

كنتُ على رأس الجيش وعلى الميمنة روح بن زنباع وعلى الميسرة عمرو بن سعيد الأشدق.

مَن يظن أن عمرًا هذا كان يُمني النفس بأن يكون الخليفة مكاني الآن لولا أبي ورجاله من بني أمية الذين سعوا في البيعة لي ولأخي عبد العزيز من بعدي، وأهملوا البيعة السابقة التي كانت تعهد لعمرٍ وخالد!

سار الجيشُ مزهوًّا حتى وصلنا مع الغروب إلى منطقةٍ تُدعى «بطنان حبيب» فأمرتُ التوقف والمبيت هنا ولنكمل مسيرنا فجرًا، فقام الحجاج بتوجيه الجنود فنصبوا الخيام والفساطيط وأشعلوا النيران وأوقدوا المراجل وذبحوا الشياة وشرعوا في تجهيز الموائد.

رأيتُ الحجاج يمتطي جواده ويتنقل برشاقةٍ بين الجنود، يتابع هذا ويأمر ذاك ويوجه أولئك، ورأيتُ في عين الجنود الرهبة والانصياع وكأن نظرة ابن زنباع قد أصابت وهذا الأخفش هو الأصلح لتولي أمور الجيش.

بعد صلاة العشاء، كنتُ أود السَّمر لكن رأيت الحجاج على بُعدٍ أمر بالمشاعل فأطفئت إلا التي تُحيط بالمعسكر ومجلسي ونادى في الجند بالنوم إلا جماعته التي اختارها بعنايةٍ لتقوم على حراسة المُعسكر وحراسة فسطاطي، فلم أشأ أن أخالف الحجاج وقمتُ إلى النوم وكذلك قام قادتي.

صحوتُ فجرًا على صوت مؤذن العسكر، فوجدتُ المعسكر يدبُّ بالحركة والنشاط وكل الجنود على أهبة الاستعداد للصلاة والترحال من بعدها، وبصفتي خليفة المسلمين فقد أممتهم في الصلاة وما خلوتُ منها حتى تفقدت قادتي فلم أجد بينهم عمرو بن سعيد فسألت عنه روح بن زنباع فلم يُجبني فسألتُ عنه الحجاج فأخبرني خبره:

- بينما أنا على صهوة جوادي في منتصف الليل، أدور بين خيام الجند وأتفقد أمرهم وأرعى حالهم رأيت قائد الميسرة عمرو بن سعيد ومعه رجلان يُسرجون جيادهم. فذهبتُ إليهم لأرى ما الأمرُ فأخبرني أنهم سيخرجون في رحلةٍ كشفيةٍ لتفقد مسير الجيش غدًا!

آه يا ابن سعيد! أما زال حُلم الخلافة يُراودك؟! ألم يكفكَ أن جعلتك أحد خاصة قادتي وأهل مشورتي؟! ألم يكفكَ أن تكون قائد ميسرة جيشي؟!

أمرتُ الجيش بالتجهز والعودة إلى دمشق، فإن غربت الشمس والأشدق على دمشق فقد غربت شمس عهدي؛ والله لن تكون لك يا ابن سعيد.

ما أن اقتربنا من دمشق حتى قابلتنا مراسيل السوء بأن عمرو بن سعيد استولى على دمشق وفرَّ منها القائم عليها خشية أن يُمسك به فلما لم يجده هدم داره! وغلب على كل مؤسسات دمشق حتى بيت المال!

استشرتُ أهل مشورتي، فأشاروا عليَّ بأن أراسله في الصلح! وكأنه أضحى حقًّا خليفة المسلمين وأنا من أخطب وده وأنشد صلحه! سبُحان المَلِك ينزع المُلك ممن يشاء!

- ماذا ترى يا حجاج؟

- الرأي رأيُ أمير المؤمنين، نحن نملك الجند وهو يملك أحجار دمشق، فلو أردتَ طوَّقت عليه دمشق حتى يموت جوعًا أو يخرج نادمًا.

- الحصار لن يكون على الأشدق يا حجاج، فدمشق بها نساؤنا وأطفالنا وشيوخنا وسيأكل لحمهم قبل أن يموت جوعًا أو يخرج نادمًا.

بعد مجادلاتٍ ومحاولاتٍ نزلتُ على رأي مجلس شورتي وراسلته في الصلح فوجدته يتعامل كما لو كان الخليفة حقًّا ويعرض عليَّ أن يتنازل لي عن الخلافة مقابل أن أعهد له بها من بعدي! وقد كنتُ أرضى بهذا العرض لولا طلبه الثاني الذي يطلب فيه أن يكون لكل ولاية واليان أحدهما لي والآخر له! وهل تبحر سفينة بربانين؟! وليس هذا فقط ويريد أيضًا أن أستشيره في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ من أمور الحُكم! ما بقي له إلا أن أستشيره: أيًّا من نسائي أضاجع! وقد كنتُ أحسب أن جنونه اكتفى حتى وجدته يطلب ولاية الديوان وبيت المال! مَن فينا سيكون الخليفة إذن؟! والله إن مُلئت عيني منك يا ابن الأشدق وأنا مالِكٌ لك لأقيدنك في سلسلةٍ كالعبد الآبق مِن مولاه!

***

فكرتُ في الشروط مليًّا فلم أجد فيها ما يُقبل، إن وافقت عليها فقد بايعته على الخلافة وإن كنتُ الخليفة أمام الناس! فشروطه هي تجريدٌ لي من سلطة الخليفة وإن الراعي على غنمه لذو سلطانٍ عني! لكن الظروف الراهنة تُجبرني على القبول بتلك الشروط وإن لم أرضَ بها؛ فلو علمُ ابن الزبير بحال دمشق لسار إليها اليوم ولفتحها غدًا كما أن قبيلة كُليب أكبر الداعمين لي قد انقسمت بيني وبين الأشدق ولن ترضى بالقتال أبدًا والقبائل اليمنية التي ظننتها ستنصرني وقفت على الحياد!

نزلتُ على رأي روح بن زنباع الذي أشار عليَّ بأن أقبل بأي شروط حتى أضع قدمًا في دمشق، وبعدها يكون لكل حادثةٍ حديث! فقبلت بالشروط وإن لم أرضَ بها.

دخلتُ دمشق بعدما تحصنت عليَّ ستة عشر يومًا مدة التفاوض وما عُدت لكرسي عرشي حتى أمرت الحجاج بتشديد الحراسة على قصر الإمارة والمناطق المحيطة به وأرسلتُ في طلب ابن الأشدق فأتاني قبيل العصر، وكنتُ أمرت الحجاج ألا يدخل القصر إلا عمرو فقط وإن أتى برجالٍ كثر فليفرقهم لشراذم ويُحكم عليهم برجاله.

أتى عمرو بن سعيد الأشدق وهو متقلدٌ سيفه ومعه مائة من رجاله فحجبهم الحجاج كما أمرته ودخل لي عمرو منفردًا، فرحبتُ به وأجلسته جواري على سرير الملك ثم أمرتُ الغلام أن يسلبه سيفه فتمسك به معترضًا!

- إنا لله يا أمير المؤمنين!

- أو تطمع أن تتحدث معي متقلدًا سيفك؟!

غصبه الغلامُ سيفَه فارتعدت فرائصُه، فهونت عليه وبقيت أحدثه حديثًا لينًا لأجري الدماء في عروقه مجددًا حتى لان فخاطبته متلطفًا:

- يا أبا أمية!

- لبيك يا أمير المؤمنين.

- إنـك حيـن خلعتنـي آليـتُ بيمينـي إن مـلأتُ عينـي منـك وأنـا مالك لك أأجمعك في جامعـة، فعطف عليَّ بنو مروان حينها وطالبوا بطلاقـك وليكـن الأمـر بـرًّا بالقسـم، فمـا عسـيت أن أفعـل يـا أبـا أميـة؟!

- أبر قسمك يا أمير المؤمنين.

فأخرجـت جامعـة مـن تحـت فراشـي كنـتُ قـد أمـرت بإعدادهـا مسـبقًا، وأمـرتُ الغـلام أن يجمعـه بهـا، ففعـل.

- أذكـرك اللـه يـا أميـر المؤمنيـن أن تخرجنـي فيهـا علـى رؤوس النـاس!

قمتُ واستدرتُ حوله وهو مكتوف اليدين مقيدًا.

- أمكرًا يـا أبـا أميـة عنـد المـوت؟ لاهـا واللـه إذن، مـا كنـا لنخرجـك فـي جامعـة علـى رؤوس النـاس ولمـا نحرجـك منهـا إلا صُعـدا.

ثـم اجتذبتـه جذبـة فاختـل توازنـه ولـم يسـتطع أن يُـدرك نفسـه فسـقط علـى سـرير الملـك فكسـرت ثنيتـه وسـال الـدم مـن شـدقيْه.

- أذكرك الله يا أمير المؤمنين ألا يدعوك كسر عظمي إلى ما هو أعظم من ذلك.

- واللـه لـو أعلـم أنـك لـو بقيـت تفـي لـي وتصلـح قريـش لأطلقتـك، ولكـن مـا اجتمـع رجـلان قـط فـي بلـدٍ علـى مـا نحـن عليـه إلا أخـرج أحدهمـا صاحبـه.

ثـم نظـرتُ لأخـي عبـد العزيـز الـذي قـد أتـى مـن مصـر علـى رأس جيـشٍ ليُشـارك معنـا فـي اسـترداد العـراق وأمرتـه أن يقتلـه وخرجـت لأؤم النـاس فـي صـلاة العصـر.

لما عُدت من الصلاة لم أجد أخي قد فعل به شيئًا وابن الأشدق على حاله في الجامعة! وكأن أخي قد عصى أمري! فجذبتُ الحربة من أقرب حرس لي وضربتها في صدر ابن سعيد لكنها لم تخترق سوى قميصه الذي يرتديه ولم أرَ له سيل دم ولم أسمع له تأوه وجع!

أعـدتُ الكـرَّة مجـددًا فلـم تختلـف ضربتـي الثانيـة عـن الأولـى! فوضعـتُ يـدي علـى صـدره أتحسـس هـذا الجسـد المنيـع المانـع! فتلمسـت يـدي درعًـا قـد ارتـداه تحـت ثيابـه وكأنـه كان مُسـتعدًا لغـدري!

- ودارع أيضًا، إن كنت لمعدًّا!

هتفتُ في غلامي أن يأتيني بسيفي «الصمصامة» وأمرت بعمرو فصرعوه لي أرضًا كما تُصرع الشاة لذبحها ففعلتُ به كما يُفعل في الشاة.. نحرته.

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي   أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

كان هـذا شـعرًا تمثلـتُ بـه وسـيفي يـروح ويجـيء بيـن أوداجـه،

لكن عندما رأيتُ دمه يسيل على بلاط مجلسي ورأيت عينيْه وهما تجحظان للخلاص وفمه الذي يتحرك بالخوار انتفضت بشدةٍ ولم أقوَ على القيام حتى حملوني وأعادوني على سريري.

- ما رأيت مثل هذا قط! طالب دنيا أم طالب آخرة؟!

على كل حالٍ سبق سيفي عفوي الذي لم أكن أعطيه إياه، ولا بد من السيطرة على دمشق بكاملها، فحين نازعني الخلافة منذ عشرين يومًا كان له بها أعوانٌ وأتباعٌ ولا أظن أنهم سيصمتون على ما فعلتُ برجلهم، فقبل أن تتحرك ألسنتهم لابد أن تُكسر نفوسهم إما بالسيف أو بالدرهم.

أمرتُ عبد الرحمن بن أم الحكم الذي فرَّ منه حين استولى على دمشق أن يقطع رأسه من جسده ويرميه لأعوانه المنتظرين بالخارج، ليعلموا أنا لا نندم على ما فعلنا ولا نهاب ما ينتظرنا ومن اشرأبت عنقه نحونا كان هذا مصيرها، ثم أمرتُ أخي الذي عصى أمري في قتله أن يخرج بسرر المال ويرميها بعيدًا عن مرمى رأس عمرو بن سعيد ولنرَ أي شيء سيختار أعوانُ عمرو! رأس زعيمهم أم أموالنا؟!

***

جَرِير

-10-

كان هـذا لقائـي الأول بابـن سـيرين الـذي لازمـتُ مجلسـه حسـبما سـمحت لـي الأحـوال والأشـغال، وهـو أيضًـا أعلى من قـدري بيـن من يجلسـون إليـه. وكنـتُ أجلـس إليه مسـتمتعًا بعلمـه وفقهـه وأكثـر اسـتمتاعًا بتأويلـه البديع للرؤيـا، فكانت تُقـص عليـه الرؤيا ونحـن جلوسٌ عنـده لا يعلم أحدنا لهـا تأويلاً وإذ بـه بـكل يسـر يؤولهـا وتقع كما قـال. مـا زلت أذكـر الرجل الـذي جاء لـه أول مجلس حضرته لـه فأخبره ابن سـيرين أن أمه هـي زوجته! وبعد شـهر من ملازمتـي له في المجلـس عاد ذات الرجـل مخبرًا ابن سـيرين أنه كان قـد قدم البصرة صغيرًا أسـيرًا مِـن أسـرى فتوحـات المسـلمين وبعدما كبـر جـاءت فتوحات المسـلمين بسـبايا جديدة بينهم أمـه التي اشـتراها جهلاً ووقع عليهـا وكان ما كان! وفـي مجلسٍ آخر قص عليه رجـلٌ رؤيا طالبًا تأويلهـا، وهـي أنـه رأى فيمـا يـرى النائـم أنـه داس علـى تمرةٍ

فخرجـت منهـا فـأرة! فأوَّلها ابن سـيرين أن هذا الرجل سـيتزوج امـرأة صالحـة لكنهـا سـتلد بنتًـا فاسـقة! فأنَّـى لنا هـذه المرة أن نتبيـن صحـة تأويـل ابـن سـيرين من عدمـه؟! فهـذا يحتاج لسـنواتٍ مـن الدهر!

كانـت هـذه المواقـف مـا يزيد شـغفي بمجلسـه وما جعلنـي أميـل لمجلسـه أكثر حيـن يخوض فـي الحديث عـن الشـعر ويسـألني ويأخـذ منـي ويـرد علـيَّ وأحيانًـا يستشـهد بأشـعاري ممـا رصـع مكانتـي بين أهـل البصرة وبعـد ملازمتـه نحوًا من سـتةٍ أهلَّـةٍ بدأت أشـعاري تروج علـى الألسـنة وتحبـو إلـى الآذان، حتـى وصلـت خيمات الشـعر فـي المربد، الذي لازمـت التردد عليـه كما ترددي علـى مجلـس ابـن سـيرين، وكوَّنت بـه بعـض الصداقات كان علـى رأسـها صداقتي للفرزدق الـذي صادقني في كل شـيء بحكم مـا بيننا من دم. إلا في الشـعر فكنا كفرسـيْ رهـان وكلانـا يبحـث عـن مجـده الخـاص وحيـن أحـسَّ بشـدة منافسـتي له اسـتعرت بيننا نـارُ المنافسـة وحين خشـي أن يُسـحب البسـاط من تحدت قدميْه هجاني رغم أنـي لم أبتـدهِ ولم أعتدهِ منـذ أن قدمت البصـرة! وكذلك لم أعتـدِ أحدًا. فهذا عهدي بنفسـي لا أعتـدي ولا أبتدي وأمْهـل ولا أهْمـل فـإن أصر خَصْمـي على هجائـي صببتُ عليـه من حمم اللسـان وقاذفـات القوافي مـا يكفي ليحط

منــه ومن قومــه لقــرون مســتقبلية.. ولكني مــع الفرزدق تحديــدًا أجدُ أننا نلتقــي في فخذ القبيلــة فكلانا من تميم فــإن وضعــتُ منه فأنــا أضع من نفســي!

لــم يعــد فــي قــوس الصبــر منــزع! فــكل مــن قابلنــي ينشــدني قول الفــرزدق فيَّ حتى ما بقــي إلا حصى طرقات البصــرة حتــى تهجوني بهجــاء الفــرزدق لــي وكان عليَّ أن أرد، وكان ممــا وصلنــي مــن هجائــه لي:

يا ابن المراغة أين خالك إننى   خالى حبيش ذو الفعال الأفضل

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم   وإليه كان حباء جفنه ينقل

إنــا لنضـرب رأس كل قبيلــة   وأبــوك خلــف أتانــه يتقمــل

وشغلت عن حرب الكرام وما بنوا   إن اللئيم عن الكرام يشغل

جبلى أعز إذا الحروب تكشفت   مما بنى لك والدك وأفضل

فما كان مني إلا أن شحذتُ لساني عليه وهجوته بأبياتٍ لاذعاتٍ أقول فيها:

مهلاً فرزدق إن قومك فيهم   خور القلوب وخفة الأحلام

الظاعنون عن العمى بجميعهم   والنازلون بشر دار مقام

ثم تبعت أشعاري هذه بأشعارٍ أخرى أقول فيها:

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله   مثل الذليل يعوذ تحت القرمل

افخر بضبة إن أمك منهم   ليس ابن ضبة بالمُعم المُخول

أبلغ بني وقبان أن لحومهم   خفت فلا يزنون حبة خردل

صارت هذه الأبياتُ على ألسنة الخلائق يرددونها جيئةً وذهابًا حتى انقسم أهل البصرة إلى قسميْن، بين مؤيدٍ لي ومؤيدٍ للفرزدق وبسبب تسعُّر نار الهجاء بيننا ظن الناس أن بيننا عداوة وبغضاء لكنها لم تكن فهو نديمي في مجالس السمر ومسايري في الطرقات والأسواق، وبيننا ما بيننا من ود وإخاء

ورحم. لكن في الشعر فكل منا على سنام جمله يكاد من لم يعرفنا في الحياة الخاصة أن يجزم أن بيننا بئر دم أهرقها الثأر.

***

الحجَّاج

-11-

هـدأت جلجلـة الأصـوات التـي كثـرت بعـد رجـوع الجيـش، بيـن قائـلٍ بـأن الجيـش قـد فـر دون كـر، وقائـل بـأن الخليفـة لا يُجيـد فـن إدارة المعـارك، والمقلـل مـن قـوة بـأس جيشـنا محطميـن فـي العسـكر روحهـم المعنويـة، جاءتنـي الأنبـاء مـن رجالـي فـي البـلاط بـأن الخليفـة يُراسـل زفـر بـن الحـارث سـرًّا ويُمنيـه بالطاعـة والمُسـالمة ويشـير لـه بخطـاب الأمـان بيـد، وبالسـيف باليـد الأخـرى!

لـم أعـد أفهـم تصرفـات الخليفـة، كيـف يُفـاوض مـن هـو دونـه؟! فعـددُ رجـال زفـر لا يُجـاوز لـواء مـن لواءاتنـا! دعـك مـن بسـالة رجالـه وقـوة بأسـهم ونزالهـم لكـن ألـم تكـن للكثـرة غلبـة فـي كثيـرٍ مـن الحـروب؟! هـذا التخـاذل أمـام خَصْـم ضعيـفٍ مثـل هـذا يـورثُ فـي نفـوس العامـة ذكريـات المسـلمين الأوائل الذين نصرهم الله وهم قلة! فربما نـادى منـادٍ من الغد بـأن زفر على حـق والخليفـة على باطل! وإلا لـمَ نصـر اللـه زفـرًا وأضعـف جانـب الخليفـة؟!

بعدما عـمَّ خبـر التفـاوض والمراسـلة بيـن العامـة فطـن الخليفـة لموقفـه الحـرج وموقـف كرسـي الخلافـة، فالخلافـة هـي مـا يُخطـب ودهـا ويُسـعى لنيـل رضاهـا وليـس العكـس! ولكـن ليزيدنـا عبـد الملـك حيـرة فـوق حيرتنـا قـرر إرسـال وفـدٍ رسـمي للمفاوضـة ولتكـن مفاوضـة علنيـة ولـم يعـد فيهـا مسـتور!

قـرر الخليفـة تشـكيل وفـدٍ مـن وجـوه رجـال البـلاط وزعمـاء القبائـل فكـان علـى رأس الوفـد رجـاء بـن حيـوة الكنـدي، ومـن أعضائـه حسـان بـن مالـك الكلبـي، وعبـد اللـه بـن مسـعدة الفـزاري، وأنـا، الحجـاج بـن يوسـف الثقفـي!

خرجنـا فـي ركبنـا نضـربُ أكفـال جيادنـا تجـاه معسـكر زفـر بـن الحـارث فوصلنـا قبيـل العصـر، فاسـضافنا زفـر وفـي عينيْـه لـذة انتصـار وبريـق ثقـة، ولـه الحـق فـي ذلـك فمـن ذا الـذي يُفاوضـه الخليفـة ولا يغتـر بنفسـه!

افتتـح ابـن حيـوة حديثـه عـن حرمـة الخلافـة ووجـوب طاعـة خليفـة المسـلمين والعواقـب الوخيمـة للخـروج عليـه وشـق عصـا الطاعـة ومـا يتبعهـا مـن إثـم علـى العاصـي وتمـزق لثـوب الخلافـة ومـا إلـى ذلـك مـن كلمـاتٍ ديباجيـة كأنهـا لا بـد أن تُقـال! وهـل مثـل ابـن الحـارث يجهـل مثـل تلـك الكلمـات؟!

مـا نغَّـص مجلسـي حقًّـا هـو أسـلوب ابـن حيـوة فـي الحـوار والعـرض، قطعًـا لقـد جئنـا للتفـاوض لكـن لا بـد لنـا أن نُظهـر سـاعد القـوة

ولسان البأس وعين الثبات وليس ما أظهره ابن حيوة من التلطف والاستميال والمهادنة لزفر حتى ظن نفسه خليفة يُباري الخليفة وليس معتصمًا على قطعة أرضٍ لا تكفي حوافر خيل دمشق!

كان ابن حيوة مسترسلاً في حديثه حتى قطعه صوتُ المؤذن لصلاة العصر، فتوقفت المفاوضات وقمنا إلى الصلاة في فسطاط جوار الفسطاط الكبير الذي اتخذه زفر مجلسًا له، وما أن أقام المؤذن الصلاة حتى اصطففنا في الصف الأول.. أنا في أقصى اليسار وعن يميني ابن مالك ومن بعده ابن مسعدة وإلى جوار ابن مسعدة يقف ابن حيوة وإلى جوار ابن حيوة يقف زفر. كنتُ أظن أن ابن حيوة هو من سيؤمنا لما له من نعتٍ وصفةٍ حتى رأيتُ زفر هو من يتقدم نحو المحراب!

تركتُ الصف الأول ورجعتُ إلى آخر الفسطاط وانتظرتُ حتى فرغوا من صلاتهم خلف زفر ثم قمتُ وصليتُ وحدي.

ما أن انتهيتُ من صلاتي حتى وجدتُ ابن حيوة يجتذبني من ثيابي نائيًا بي عن الآذان المُستمعة لنا والأعين المُحدقة فينا:

- ما هذا الذي صنعته يا ابن يوسف؟!

- ماذا صنعت؟!

- تركت جماعتنا وصليت وحدك!

- خشيت أن تبطل صلاتي، وأظن أن على وفدنا إعادة الصلاة.

- لمَ يا أبا محمد؟!

بعدما شرحتُ له سببي، نهرني ابن حيوة على تصرفي وقولي ملقنًا إياى درسًا في فن التفاوض والمهادنة والمداهنة وأننا أتينا محددي الهدف ونرجو أن نعود قانصين ما أتينا لأجله.

عُدنا للمفاوضات وعاد ابن حيوة لحديثه ومن ثم تحدث ابن مالك وتبعه ابن مسعدة ثم أتى دوري في الحديث فأظهرت له ما لم يُظهره رفاقي ولمَّحت له بأن خيار الحرب ما زال متاحًا وكنانة أمير المؤمنين لم تنفد بعدُ ولو أراد وأطلق يدي لتروثت خيولنا من الغد في هذا المجلس.

أذَّن المؤذن لصلاة المغرب فقمنا للصلاة وهذه المرة تقدم ابن حيوة للإمامة فلزمت معهم الجماعة وما فرغنا من الصلاة حتى طلب زفر أن يستشير أصحابه في أمره فمكث في خلوةٍ بهم حتى صلاة العشاء التي أمَّنا فيها حسان بن مالك هذه المرة!

على هذا المنوال سيؤمنا عبد الله بن مسعدة في صلاة الفجر، إن بقينا ها هنا حتى وقت الصلاة!

عاد لنا زفر ممليًا علينا شروطه أو كما سماها ابن حيوة رجاءاته! وهل من الرجاء أن يطلب زفر ما يطلبه هذا؟!

تسلم رئيسنا الشروط وأخبره أن صلاحياته لا تمكنه في الأخذ أو الرد فيها لكنه سينقلها للخليفة ليرى فيها رأيه. وهكذا عُدنا إلى بلاط الخلافة حيث استقبلنا الخليفة دون أن نستريح من عناء السفر واستمع لابن حيوة وهو يقص عليه ما جرى.

- وهذا الحجاج، فائر الدم كاد أن يفسد كل شيء.

نظر الخليفة إليَّ بعينٍ تبدلت مقلتها بجمرة نارٍ مُستعرة..

- ماذا فعل يا ابن حيوة؟!

- حضرت الصلاة ونحن نتداول فقمنا إلى الصلاة وقام معنا الحجاج في الصف الأول، وحين رأى ابن الحارث يتقدم نحو المحراب للإمامة ترك الجماعة ورفض أن يُصلي خلفه، مدعيًا أنه منافقٌ وخارجٌ عن طاعة الخليفة والصلاة خلفه لا تجوز!

نظر لي الخليفة بغير الوجه الذي كان، وطلب مني أن أقترب من مجلسه بعدما كنتُ آخر الجالسين إليه وأثنى عليَّ وعلى تصرفي فتبدل وجه ابن حيوة الذي خابت ظنونه في رد فعل الخليفة معي.

أتت النقطة الأهم حين تحدث ابنُ حيوة على شروط زفر وأخذنا نتداول فيها، لكني رأيتُ من الخليفة ميلاً للموافقة إليها ولا أعلم مبررًا لذلك! فلو أطلق الخليفة يدي ومكنني من قيادة الجيش

لأتيت له برأس زفر على نصل رمحي وألقيته ها هنا تحت قدميْه وهو جالس على سرير الملك!

بعدما رأى الوفد ميل الخليفة للموافقة على شروط زفر وافقوا هم أيضًا وإن لم يكن منهم معارضٌ سواي وإن لم أجرؤ على إظهار الاعتراض. فكتب الخليفة لزفر بالموافقة وسعى في توطيد العَلاقة معه وأرسل له ما أرسل وطلب منه ما طلب.

وحين هممتُ بالانصراف استوقفني الخليفة لما رأى من تغير وجهي بعد الموافقة وكأنه قرأ ما بعيني، ثم أمر الجميع بالانصراف وبقينا وحدنا:

- لماذا لم تجهر بالرفض يا أبا محمد؟

- أي رفض يا أمير المؤمنين؟! ما عليَّ سوى السمع والطاعة.

- الجراجمة في الشمال ومصعب في العراق وعبد الله في الحجاز. هل ترى أن أترك كل هؤلاء وأجيش جيشًا وأرهقه في حربٍ مع زفر ومن معه؟! لدينا من هم أهم منه ولا ضير على الخلافة من بعض المهادنة حتى نصل إلى مبتغانا.

شرح لي مبرراته التي كانت غائبةً عني وكان هذا أول ما تعلمته من دهاء عبد الملك، فحين كنتُ أنظر تحت قدميَّ كان هو ينظر خلف خطوط العدو.

- ولك عندي مكافأة يا أبا محمد.

- مكافأتي رضاك يا أمير المؤمنين.

- سأكتب لك على تبالة فاكفني أمرها!

لا أدري أهـذا ثـوابٌ أم عقـابٌ مـن الخليفـة لـي، فهـل مـن الثـواب والصـواب أن يُرسـلني إلـى إمـارةٍ فـي أنـأى أطـراف الأرض يسـتطيع أضعـف رجـلٍ مـن ثقيـف أن يحكمها وهـو مغمـضُ العينيـن ويتركنـي أرحلُ عن حاضرة الخلافة وهو في أمسِّ الحاجة لمن هو في حزمي وعزمي! لكن كفى درس اليوم فالخليفة يرى ما لم أره وليس عليَّ سوى السمع والطاعة.

***

عبد الملك

-12-

نادى المختارُ الثقفي بنفسه في العراق! وكأن النزاع كان ينقصه طرفٌ جديدٌ فآليت أن أصرف نظري عن العراق حاليًا حتى يصطدم المختار بابن الزبير ويكفيني أحدهما الآخر، فلمَ أقاتل على جبهتين قد تكفياني إحداهما؟!

تركتُ أمر العراق مؤقتًا لأرى إلى أي مدى سيئول أمره، وأعدتُ النظر مجددًا نحو زفر بن الحارث وأردتُ إعداد العدة في الخروج إليه لاسترداد قريقساء وأمرت الحجاج في الشروع في الأمر فأتمه كما عهدته.

خرج الجيشُ في كامل تعداده وتسليحه، كما اهتم الحجاج هذه المرة بتأمين دمشق، وأكثر من الحرس

على الدواوين والمقرات، وأمر أن تُغلق أبوابها ولا تُفتح إلا إذا عاد الجيش أو الخليفة أو رسول منه يحمل خاتمه.

أعجبتني فطنة الحجاج ودهاؤه وحكمته، فعلمت أنه رجلُ سِلم وحرب وتبوأت له مكانة عظيمة في مجلسي إن استمر بلاؤه على هذا المنوال، فقلما وجدتُ قائدًا في حزمه وعزمه وهمته، ولا رأيت رهبة في عيون الجنود مثلما رأيتها في عيونهم منه، فكان رغم قلة حجمه كبير التأثير فيهم.

أشرف الجيشُ على الوصول إلى قريقساء، فأمرتُ بالتوقف، ولتنصب المجانيق حتى ننهي هذا الحرب قبل بدايتها، فإذا كانت مكة بحرمتها قد قُصفت بالمجانيق فهل قريقساء أكثر حرمة منها؟! لكن زفر كان أكثر جرأة من ابن الزبير ولم يحتمِ في المدينة ويمتنع عن قتالنا بل بعث إلينا طالبًا بأن يكون القتال مواجهة بين الرجال سيفًا بسيفٍ ورمحًا برمحٍ!

لله درك يا زفر! هكذا يكون الرجال حقًّا، دعك من أنه منافسي وينازعني ملكي لكن تلك شهادة في شجاعة رجلٍ قلما واجهتها! وشجاعة بشجاعةٍ فقد أمرت بفك المجانيق والاستعداد للحرب رجالاً وركبانًا، وسرعان ما ابتدت الحربُ فوجدت في رجال زفر شجاعةً وإقدامًا وكأنهم وقائدهم على فؤادٍ واحدٍ.

بعدما درات بيننا رحى الحرب مراتٍ ومراتٍ ووجدتُ في كل مرة أن النصرة لزفر ورجاله والقتلى والمصابين في جيشي أكثر حينها أمرتُ جنودي بالعودة إلى دمشق!

قد يقول البعض إنه فرار! أو هروب! أو انسحاب! لكن من وجهة نظري هي الحكمة والرأي، فهل من الحكمة أن ألقي برجالي إلى التهلكة؟ هل من الحكمة أن أستنزف قواتي من أجل مدينةٍ مثل قريقساء لا هي الحجاز ولا العراق ولا مصر! فلنعد الآن ونحفظ جنودنا وقوتنا ولنرَ رأينا في مجلس الحكم.

***

عدتُ إلى دمشق وأنا أرى في عيون قادتي الغضب من قراري ولولا طاعتهم لي لعصوني في أمري، وبعدما عقدنا عدة مجالس للتشاور كان الرأي فيها لمعاودة القتال والخروج بجيشٍ أكبر واستخدام المجانيق ولتكن حربًا بلا هوادة حتى نسترد قريقساء وقبلها كرامة رجالنا التي سلبها منهم زفر ورجاله القلائل!

لكني كنتُ قد راسلت زفر سرًّا وطلبت منه التصالح والمسالمة، ومنيته بالقرب والعفو، ولم أنسَ أن ألوح له بسيفي باليد الأخرى حتى يعلم أني أصالحه على قوةٍ وليس ضعف، لكن من الصعب أن يحفظ سر في بلادي! فقد شاعت أخبار المراسلات التي بيني وبين زفر فلم أجد إلا أن طرحت عليهم الأمر علانية وأرسلت وفدًا رسميًّا

للتفاوض ولم أهمل أن يكون الحجاج ضمن هذا الوفد، فأبلى فيه بلاءً حسنًا رغم تصرفاته التي خلت من حنكة المُسايس المُفاوض، فكافأته على صنيعه بأن وليته على تبالة فما رحل إليها حتى عاد منها وقد استهون أمرها، فقلدته شرطة فلسطين لما سمعت أنهم يعصون أوامر أخي إبَّان فرحل إليها تاركًا دمشق بدون سيف الحجاج وسوطه.

***

قضى مصعب بن الزبير على المختار الثقفي وجمع العراق لأخيه عبد الله، وأضحت المواجهة بيننا لا مفر منها رغم الأعوام الأربعة التي أخرتها له منذ أن بسط سيطرته على العراق، لكن الآن إن لم أرحل له رحل لي، رغم نفسي التي تأبي قتال مصعب!

حين استنفرتُ أهل الشام للخروج لقتال مصعب تباطأوا عليَّ وكأنهم اعتادوا الراحة والمبيت في أحضان النساء ونسيوا أن هناك خلافة لم تستكمل أركانها وعرشًا يُنازع من أيدينا! وكأنهم نسيوا سوط الحجاج وسيفه!

لمَ لمْ يستطع قادتي حشد الجند بالشكل الكافي، رغم عطاياي التي لم تنقطع عنهم! لم أجد لهم إلا الحجاج جزاءً وعقابًا، فأرسلتُ في طلبه من فلسطين فجاءني على عجلٍ، فوليته أمر

الجند فجمعهم لي على طريقته وحشد لي جيشًا أكثر مما يلزم! والله إن الحجاج هذا ليستحق أكثر مما هو عليه وإن نصرني الله على مُصعب وأعاد لي العراق لأولينه أمرًا يخلد به ذكره ويطول به أثره.

قبل أن أشرع في تحريك الجيش راسلت كل وجهاء العراق ممن كان في رجال مصعب، أخذتهم باللين ومنيتهم العفو وحُسن المنزلة إن تركوا جيش ابن الزبير وانضموا لي، بعثت لكل قائدٍ على حدةٍ أُمنيه بالمنصب الذي ينتظره إن كان من فريقنا، وأرهبه من المصير الذي سيلقاه إن كان من فريق مُصعب.

أعلم أن رسائلي لهم قد لا تُصيبهم جميعًا، ففيهم المُخلص كابن الأشتر، لكن أكثر أهل العراق لا خَلاق لهم، وإن بايعوا اليوم فالنكث غدًا ولا حاجة لي في رجالٍ تركوا قائدهم وقت حرب وجنحوا لمن ظنوا أن له النصرة، لكن يكفي أن تزعزع رسائلي استقرار رأيهم وميلهم لابن الزبير وتفرق جماعتهم إن كُشف أمرها.

دارت المناقشاتُ حول خروجي على رأس الجيش من عدمه والإنابة عني بأحد أهلي أو كبار قادتي، لكني آثرتُ أن أكون بنفسي على رأس الجيش فالأرض العراق والمُنافس مُصعب، وهذا أمرٌ يحتاج لمن له رأي ولا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي، ولعلي أبعث من له شجاعة ولا رأي له، وإني بصيرٌ بالحرب، شجاعٌ بالسيف إن احتجت إليه، ومصعبٌ شجاعٌ من

بيت شجاعةٍ ولكنه لا علم له بالحرب، ومعه مَن يخالفه ومعي مَن ينصح لي.

قررتُ الرحيل في اليوم التالي، وأمرتُ الحجاج باستنفار الجيش وبث الحمية في الجنود، وبتُّ ليلتي تلك عند عاتكة بنت يزيد فمنحتني نفسها بسخائها المُعتاد بل وأكثر مما اعتدتها عليه وكأنها تُغريني بالبقاء جوارها! وفي الصباح وهي تُودعني بكت حتى بكى جواريها لبكائها!

- قاتل الله كُثير عزَّة، لكأنه يشاهدنا حين أنشد شعره:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حَصَانٌ عليها عقد دُرٍّ يزينها

نهته فلما لم تر النهي عاقه بكت وبكى مما عناها قطينها

***

انطلقتُ على رأس الجيش قاصدًا العراق، وكان على مقدمة جيشي أخي محمد بن مروان، فسار حتى نزل مسكن، فخرج إلينا جيشُ مصعب وعلى مقدمته إبراهيم بن الأشتر، فيما بلغتني عيوني أن مصعب نزل بأجميرا وحتى هذه اللحظة كنت أتحاشى الحرب مع مصعب فأرسلتُ له أن يدع دعاءه لأخيه وأدع دعائي لنفسي ولنجعل الأمر شورى، فكان رد مصعب:

السيف بيننا.

فلم أجد بدًّا من إشعال فتيل الحرب التي دارت رحاها، وتفرق عن مصعب بعضُ قادته الذين كنتُ قد راسلتهم مرغبًا في طاعتي وترك مصعب، فما بقي معه إلا القليل المُخلص من رجاله ومنهم ابن الأشتر بالطبع.

بعدما حدثت الخيانات التي دبرتها في صفوف جيش مصعب، ضعفت مقدمته حتى تمكن رجالنا من قتل ابن الأشتر، أحد أهم قادة مصعب والقلب النابض لجيشه، وما بقي مع مصعب إلا شرذمة من الرجال، ولم أشأ أن يحمل دمه في عنقي فراسلته مجددًا وأعطيته الأمان، لكن يبدو أن أماني منذ واقعة ابن الأشدق أصبح والعدم سواء! فقد جاءني رده:

إن مثلي لا ينصرف عن هذا الموقف إلا غالبًا أو مغلوبًا.

فكانت الثانية من نصيبه والغلبة لي والمغلوب هو، حيث تمكن زياد بن ظبيان من الفتك به، وآتوني برأسه!

رغم نشوة الانتصار، وفرحة استرداد العراق فإني حين رأيت رأس مصعب وعينيْه الجاحظتين ولحيته المُخضبة بدمه، بكيت كالثكالى حتى بلَّ الدمع لحيتي.

- والله ما كنتُ أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له، لكن هذا المُلك عقيم.

***

بعدما استرددتُ العراق نزلت بالنجيلة وصعدت المنبر وخطبت فيهم:

أيها الناس إن الحرب صعبة مرة، وإن السلم أمن ومسرة، وقد زبنتنا الحرب وزبناها فعرفناها وألفناها، فنحن بنوها وهي أمنا. أيها الناس فاستقيموا على سبل الهدى، ودعوا الأهواء المُردية، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لا تعملون أعمالهم، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرًّا، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة، فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليعد، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس من رفاعة الأنصاري:

من يصلَ ناري بلا ذنب ولا ترة ... يصلَ بنار كريم غير غدَّار
أنا النذير لكم مني مجاهرة ... كي لا ألام على نهي وإنذار
فإن عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا ... أن سوف تلقون خِزْيًا ظاهر العار
لترجعن أحاديثا ملعَّنة ... لهو المقيم ولهو المدلج الساري
من كان في نفسه حوجاء يطلبها ... عندي فإني له رهن بإصحار
أقيم عوجته إن كان ذا عوج ... كما يقوِّمُ قدح النبعة الباري
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه ... عندي، وإني لدرَّاك بأوتار

ثم أخذتُ منهم البيعة وشرعت في تعيين الولاة والقضاة وفيما أذكره من حينها أني حين أردت قاضيًا للبصرة سألت رجالي عن رجلٍ يصلح لهذا الأمر، فأخبرني روح بن زنباع عن رجلٍ ليته يشبه ما اتصف به:

- أدلك يا أمير المؤمنين على رجلٍ إن دعوتموه أجابكم، وإن تركتموه لم يأتكم؛ ليس بالمُلحف طلبًا، ولا بالمُمعن هربًا.

- من هذا يا ابن زنباع؟!

- عامر الشعبي يا أمير المؤمنين.

كنت قد سمعت بهذا الاسم من قبل وما سمعت عنه إلا خيرًا، وأنه حاملٌ للأخبار عليمٌ بها، وأظنني رأيته في مجلس عمي معاوية مرة أو مرتين، فبعثت إليه ليأتيني لأختبره، فجاءني على عجلٍ واستأذن الدخول فأذنت له، فدخل وألقى السلام بالخلافة وكان مجلسي غير مكتظ حينها وبه مقاعد شاغرة لكنه ظل واقفًا على مبعدةٍ مني.

- ما منعك أن تجلس يا شعبي؟

- هذا من أدب مجلس السلطان يا أمير المؤمنين.

- نحن من طلبناك يا شعبي، وسعينا إليك ولم تسعَ إلينا ونحن إلى حاجتك أسبق من حاجتك إلينا.

- أصلح الله أمير المؤمنين، لأن أُدعى مِن بُعْد إلى قُرْب؛ أحبُّ إليَّ من أقصى من قُرْبٍ إلى بُعد.

- لله درك يا شعبي، فمن أدَّبك هذا الأدب؟

- حفظ الله أمير المؤمنين، إني علمت أن الأحنفَ بنَ قيس دخل على عمك مُعاوية- رحمه الله- فأشار إليه إلى وِسادةٍ فلم يَجلس عليها، فقال له:

ما مَنعك يا أَحْنف أن تَجلِس على الوسادة؟ فقال:

يا أمير المُؤمنين، إنَّ فيما أَوصى به قَيسُ بن عاصم ولدَه أن قال:

لا تَسْع للسُّلطان حتى يَمَلَّك، ولا تَقْطعه حتى يَنْساك، ولا تَجْلِس له على فراشٍ ولا وِسادة، واجعل بَينك وبينه مَجْلسَ رجلٍ أو رجليْن.

أمرته بالجلوس فأطاعني وأخذتُ في محادثته فوجدته نعم الفقيه العالم بالدنيا والدين.

- يُقال يا شعبي إن كرسي الحكم يُفسد النفس، والرعية الفقيه يصير راعيًا ظالمًا، فعظني موعظة الأمين الناصح ولك الأمان على نفسك ومنصبك.

- يا أمير المؤمنين، الحاكم يراقب ألف عين، وألف عين تراقب الحاكم فهل يستويان؟! راقب الله يا أمير المؤمنين تنجو، فالرعية التي قتلت عمر وعثمان هل ترضى بمن دونهما؟!

- يا شعبي أيهما أصلح للرعية، شدة عمر أم لين عثمان؟!

- وقى الله أمير المؤمنين كل شر، مما ورد لي عن زياد بن سمية أنه قال ذات يوم لجلسائه ما غلبني أخي أمير المؤمنين معاوية في شيء من السياسة إلا مرة واحدة، استعملت رجلاً فكسر خراجه، فخشي أن أعاقبه ففر إليه واستجار به فأمَّنه. فكتبت إليه:

إن هذا أدب سوء من قبلي.

فكتب إليَّ:

إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جميعًا فتمرح الناس في المعصية، ولا نشتد جميعًا فنحمل الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة.

طال الحوار بيننا فوجدته نعم العالم بالأخبار والعليم بالفقه، لكن كل إجاباته كانت على حد سيف، فأردت أن أواجهه مباشرةً لأعلم كيف يراني وهل سيُداهنني كعادة الرجال في مجلس الحكام.

- ما رأيك في الذي كان مني من أمر عمرو بن سعيد ؟

- أصلح الله الأمير هذا أمر قد فات دركه.

- لتقولن!

- حزم لو قتلته وحييت.

- أو لستُ بحي؟

- ليس بحي من أوقف نفسه موقفًا لا يُوثق له بعهدٍ ولا بعقدٍ.

- كلام لو سبق سماعُه فِعلي لأمسكت.

بعدما استوثقت سلامة باطنه وأنه لا يخشى في الله لومة لائم، أقررته على القضاء، وأمرته ألا ينقطع عن مجلسنا في دمشق حتى لا ننساه، ولينصحنا كلما

رأى منا غير ما يُرضي الله وعُدت راجعًا إلى دمشق بعدما سيَّرت الحجاج إلى الحجاز ليقاتل عبد الله بن الزبير.

***

جرير

-13-

مكثتُ بالبصرة سنواتٍ ذاع فيها صيتي أكثر وهجوتُ وعاديتُ قبائل شتى واتخذتُ لي راوية يكتب عني الشعر ويذيعه للناس وأصبح بيتي ذو النخلتين مقصدًا لمحبي الشعر ومتذوقيه لا سيما أن الطلب كثر على الشعر بعدما استقرت الخلافة كلها لبني أمية وتولى الحجاج العراق وفعل بها ما فعل فكانت الرعية ترى في الشعر مندوحة لها من كد الأحوال.

وظلت المساجلة بيني وبين الفرزدق قائمة وكلانا يكفي الآخر حتى تدخل بيننا شاعر الإبل عبيد بن حصين المشهور بالراعي النميري، الذي أيد الفرزدق واستعداني دون سابقةٍ مني! وبلغني أنه أنشد بيتًا من الشعر يرجح كفة الفرزدق على كفتي وتناقلته الناس حتى اختل عرشي، فقابلته في سوق المربد وهو على بغلته فعاتبته لما بدر منه:

- يا أبا جندل، إنك شيخ مُضر وشاعرها، وقد أتى بي إليك أني وابن عمي نستب صباح مساء، وما عليك غلبة المغلوب، ولا لك غلبة الغالب. فإما أن تدعني وصاحبي، ويكفيك إذا ذُكرنا أن تقول: كلاهما شاعر كريم، ولا تحتمل مني ولا منه لائمة، وإما أن يكون وجه منك إليَّ إن تغلبني عليه لمدحي قومك وذبي عنهم، وحطبي في حبلهم.....

ولم أكمل حديثي وإذا بغلام يقترب ويقف ببغلته جوار بغلتينا، اتضح لي أنه جندل ابن الراعي النميري، وبدون أن يُلقي سلامًا سأل والده عني فأخبره أني جرير! وإن كان مثلي مجهولاً في البصرة! فما كان من هذا الغلام الأرعن إلا أن لكز بغلة أبيه داعيًا إياه أن يتركني وينصرف قائلاً له:

لا أراك يا أبتاه واقفًا على كلبٍ من بني كُليب، كأنك تخشى منه شرًّا أو ترجو منه خيرًا! فظننتُ أن الراعي سينهره ويوبخه أو يعتذر لكنه انصرف معه كأني سرابٌ لا يراه!

عدتُ إلى بيتي وعقلي مِرجلٌ وقلبي تنُّور من الغيظ، استدعيتُ حُسين راويتي وأمرته أن يمنع عني سمَّار الليلة ويُكثر دهن السراج ويُكثر الأوراق فوالله لن يغمض لي جفنٌ حتى أدمغهم.

- ما الأمر يا يا أبا حرزة، علام عولت؟!

- أما والله لأوقرنَّ رواحله بما يثقلها خزيًا ينقلب به إلى أهله،

ولتكونـن قصيدتـي فيهـم دمَّاغـة فاضحـة، تسـير مـع الدهـر وتطويـه، ولألحقـن بنـي نميـر بجمرتـيْ العـرب الخامدتيـن.

وفي صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى المربد حيث خيمة الشعراء، فوجدت النميري يجلس إلى جوار الفرزدق، والناس كلٌّ لاهٍ في ملهاه، فوقفت ببلغتي على باب الخيمة وحُسين راويتي ممسكٌ بلجامها فرفعتُ صوتي مدعيًا حديثي لحسين قاصدًا لفت نظر الناس لي:

- يا حُسين، قل لعُبيد أبعثك نسوتك تُكسبهن المال بالعراق؟ أما والذي نفسُ جرير بيده لترجعن إليهن بمَيْرٍ يسوؤهن ولا يسرهن، والبيت الحرام إن لكم لمعاد سوء وذلة ولأوقرنَّ رواحلكم بما يثقلها خزيًا وعارًا.

فما أن نفدت كلماتي حتى كانت أعناق كل من بالسوق مشرئبة نحوي.. حينها أنشدتُ قصيدتي التي سهرتُ في نظمها طوال الليل حتى نظمتها في سبعة وتسعين بيتًا وسميتها الدامغة أقول منها:

أعد الله للشعراء مني صواعق يخضعون لها الرقابا

أنا البازي المدل علي نمير اتحت من السماء لها انصبابا

إذا علقت مخالبه بقرن اصاب القلب أو هتك الحجابا

تـري الطيـر العتـاق تظـل منـه جوانـح للـكلاكل ان تصابـا

فـلا صلـي الإلـه علـي نميـر ولا سـقيت قبورهـم السـحابا

ولـو وزنـت حلـوم بنـي نميـر علـي الميـزان مـا بلغـت ذبابا

ستهدم حائطـي قرمـاء منـي قـواف لا اريـد بهـا عتابـا

أعـد لهـم مواسـم حاميـات فيشـفي حـر شـعلتها الجرابا

فغـض الطـرف انـك مـن نميـر فـلا كعـب بلغـت ولا كلابـا

أتعـدل دمنـة قلـت وخبثـت إلـي فرعيـن قـد كثـرا وطابـا

اذا غضبـت عليـك بنـو تميـم حسـبت النـاس كلهـم غضابا

لنـا البطحـاء تفعمهـا السـواقي ولـم يكـن سـيل أوديتـي شـعابا

ستعلم مـن اعـز حمـي بنجـد وأعضمنـا بغائرهـا هضابـا

شـياطين البـلاد يخفـن زأري وحيـة أريحـاء لـي اسـتجابا

اليك اليك عبد بني نمير   ولما تقتدح مني شهابا

فما انتهيتُ حتى وجدتُ الراعي يُلملم ثيابه ويُنادي في عشيرته أن حان وقت الرحيل فلا بقاء لهم في العراق وأنا فيها، وهذا أقل ما لديَّ مع من يبتديني العداء.

***

الحجّاج

-14-

غـدوتُ علـى زوجتـي وقـرة عينـي أزفهـا الخبـر مصطنعًـا الفرحـة، مبديًا على وجهي كل علامات الابتهاج حتى تفرح لفرحي وتكون في مرافقتها لـي مسـرورة لمسرتي. طرقـتُ البـاب فسـمعتُ صـوت بـكاء محمـد مـن الداخـل وهـي تُهدهـده.

فتحـت لـي بعـد مـدةٍ يسـيرةٍ أظنهـا كانـت تضعـه فـي مهـده، واسـتقبلتني كأحسـن مـا تسـتقبل امـرأة بعلهـا، فاحتضنتهـا حضنًـا تلاشـت فيـه الأزمنـة والأمكنـة حتـى خلصـت نفسـها مـن براثنـي بأنوثـةٍ تحتكرهـا، وبانسـيابٍ صـلٍّ سـحبتني خلفهـا فانسـحبتُ، وفـي بحـر عشـقها غرقـتُ! وهـل مثلهـا إذا قالـت هيـت لـك، يُقـال لهـا معـاذ اللـه؟! فمنـذ عهدهـا وهـي زوجـةٌ مُحبـةٌ مُتفانيـةٌ فـي حبهـا وعشـقها، فكانـت دائمـة التجـدد فـي إطلالتهـا وكنـت كل

يوم عندها عريسًا في ليلة عرسه وما نظرتُ لها إلا حدثتني نفسي بوطئها.

تعالى بكاء محمد فانتزعنا من ذروة العشق وهبط بي من قمة النشوة إلى سفحها فتركتها تذهب لتتفقده. فغابت حتى عادت وجلست إلى جواري فحدثتها بمكافأة أمير المؤمنين لي وأننا في الغد سنرحل إلى تبالة.

- اذهب إلى أمير المؤمنين واستعفه!

- كيف لي أن أرفض مكافأة أمير المؤمنين؟

- وهل هذه مكافأة، هذا نفي يا أبا محمد.

مدت يدها إلى عنقي تستميلني فملتُ لها وذبنا في نوبة عشق مكتملة الأركان حتى نفد رصيدنا من النشوة فعادت بالحوار إلى حيث كان. ففوجئت بها تحثني بشدةٍ على عصيان أمر الخليفة والإلحاح عليه حتى يعفيني من إمارة تبالة لأبقى بالشام! وفي نبرتها شيء من الأنانية كأنها لن ترحل برحيلي!

- وإن لم يكن من الطاعة بُد؟

- أنت من أُمرت وأنت من عليك الطاعة.

كان هذا تصريحًا منها فإما أن أعصي أمر الخليفة وأبقى جوارها أو أن أرحل وحدي! فأنا الحجاج الذي يرحل برحيله وينزل بنزوله آلاف الجند والعسكر امرأته تتركه يرحل وحده!

- لا حاجة لي في امرأةٍ مثلك، الحقي بأهلك!

طلقتها وطلقت معها الأمان للنساء، فلا حاجة لي بامرأةٍ بعد اليوم، فما فائدة الزوجة إن لم تكن عونًا لزوجها على طاعة الخليفة وليست داعمة له على العصيان، متخليةً عنه في أضعف لحظات حياته وإن كانت كسرتني بتخليها عني فقد كسرتها بالطلاق.

في الغد رحلتُ إلى تبالة لأرحل عن منبع الحزن، فلا أنكر أن فراقها آلمني وألمَّ بقلبي الأوجاع، لكن لا شيء عندي فوق طاعة الخليفة ولو كان على حساب قلبي، وهذا ما صبَّرت به نفسي طوال أيام السفر إلى تبالة حتى أصابني الملل من طول المسافة، فقد كنا تركنا مكة خلفنا منذ مدةٍ حتى سألت عن ما بقى على مقصدنا.

- لم يبق إلا اليسير إن تبالة خلف هذه الأكمة.

نظرتُ ببصري حيث مد الدليل إصبعه مشيرًا إلى تل في مرمى البصر، فوجدتها بلدةً صغيرةً هينةً ليس لمثلي مثلها فأنا أستحق أفضل من ذلك.

- أف لبلدةٍ تسترها أكمة!

رجعتُ عنها دون أن أصل إليها، وعدتُ إلى الخليفة أستعفيه من إمارتها وليوليني أي عملٍ في الشرطة ورصعت طلبي بأنه إن كان يثق بي وفي قدراتي فليستخدمني في الشرطة أو الجيش فالوقتُ الراهن بحاجةٍ إلى من هم مثلي في الحزم والعزم.. أما تبالة هذه فأخي محمد يكفيه أمرها.

- لو عصاني غيرُك لكان لي من أمره رأي آخر يا حجاج.

- ما عاذ الله أن أعصي أمير المؤمنين، لكن تبالة هينة وأرى- والرأي رأي أمير المؤمنين من قبل ومن بعد- أن تستخدمني فيما هو أصعب.

- مغرور أنت يا ابن يوسف.

- والله ما بي من غرور، ولكن لي في ابن يعقوب أسوة حين طلب ما يرى نفسه أنه أهلٌ له، حيث قال:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

- ولي في فرعون مصر أسوة حين أخرها عنه سنة.

- الأمر أمرك يا أمير المؤمنين.

- لكني، مكلفك بأمرٍ، إن أتممته لي فسترى ما لم تره من رضائي عنك من قبل.

- عمَّنى كثير الخير بقليل رضائك يا مولاي.

وهكـذا رحلـت أنـا إلـى فلسـطين حيـث كتـب لـي علـى شـرطتها، ولإنهـاء مـا أرسـلني لأجلـه وكتـب لمحمـد أخـي علـى إمـارة تبالـة.

في فلسطين وجدتُ أخو الخليفة أبان بن مروان عاملاً عليها لعبد الملك، سلمته كتاب الخليفة فكان به تقريظًا فيَّ فعرف أخو الخليفة شأني ومنزلتي وأنزلي منه منزلاً كريمًا وشرعت أمارس مهام عملي وضبطت الشرطة كأحسن ما يكون حتى استقرت الأحوال وتشابهت لديَّ الأيام فلم يعد لديَّ جديد لأفعله.

حتى ذلك اليوم الذي مررتُ فيه متفقدًا الجند فلفت انتباهي وجهٌ مألوفٌ لي! كان ذلك الحارس الثرثار الذي لقيته بعد فراري يوم الربذة، لكن اليوم تبدلت الأحوال فهو ما زال حارسًا وأنا قائد شرطة فلسطين، كان عَطاء الحلبي:

- أتذكرني أيها الحارس؟!

حدثني بلهجةٍ غير التي عرفتها عنه! فأول لقاء لنا فضح لي أسرار بيت الخلافة دون أن أضغط عليه أو أبدي رغبة في السماع، لكنه كان كالمُبشر بدينٍ جديدٍ، مُصرًّا على أن يُسمعني أدق التفاصيل.

- وهل مثلك يُنسى يا سيدي!

كانت هذه إجابته لي وتبدو عليه رهبة المنصب.

- ما جاء بك من دمشق إلى هنا؟

- هذا الذي بين فكيَّ.

أخبرني أنه تم ترحيله إلى فلسطين بعدما وشى بأخبار القصر بتفاصيل أكثر مما ينبغي أن تُذاع للعامة، لكن القاسم المشترك بيننا أن السبب في وصولنا هنا هو خالد بن يزيد!

كان قد تعلم الدرس جيدًا وأصبح شحيح البوح، نزر الحديث، فلم يُصرح لي بتفاصيل بسهولةٍ حتى ضغطت عليه بحكم سلطتي فأخبرني أنه أطلع على حياة خالد الخاصة وحاله مع نسائه في الفراش وباح بها إلى العامة وانفضح أمر خالد بن يزيد حتى تمثلوا به الأمثال! فما كان من خالد إلا أن شكاه لقائده فرحلوه إلى هنا!

في أيامي التالية كان عَطاء هو سلوتي في هذا المكان، فبعدما اطمأن لي واطمأن أنه لن يلحق به أذى أكثر مما هو عليه الآن فقد فارق زوجته وابنه ولم يجلبهما معه إلى فلسطين ولا يراهما إلا كل عام مرة! وحين ذكر زوجته وطفله تذكرت ابني محمد وأمه، فقد وصلت إلى ما أشارت عليَّ به، لكن بعدما خسرتها وخسرتني! ولإحساسي لما يعتمل في قلبه من فراقه لطفله وزوجته أذنت له في الذهاب لزيارتهما والاطمئنان عليهما واصطحابهما معه إن أراد.

رحل عطاء وبقيت وحيدًا في فلسطين أقلب الأيام بالأيام وأمزج الساعات بالساعات حتى جاء البريد باستدعائي إلى دمشق لأمر مهم!

***

عبد الملك

-15-

عُدت إلى دمشق بعدما سيَّرت الحجاج إلى ابن الزبير، ووليت على العراق أخي بشر بن مروان، وما هي إلا شهورٌ حتى أتتني رسائل الحجاج يطلب الإذن بحصار مكة، فابن الزبير عائذٌ بالحرم ولا نية لديه للخروج للقتال رغم اقتراب الجيش منه، فإن كانت لديه نية للدفاع عن خلافته المزعومة فلمَ يحتمي بالحرم ولا يخرج للقتال مثل الرجال؟!

كانت رسائل الحجاج تطلب الإذن والدعم! وكأن الحجاج قد علم مسبقًا بموافقتي على حصار الحرم في موسم الحج! ألهذا الحد لم يرَ الناس في ورع ولا تقوى؟! أم أن كل الدماء التي سفكتها من أجل كرسي الخلافة قد صورتني

لـدى قـوادي بالحاكـم الباطـش الـذي لا يتوانـى فيمـن ينازعـه ملكـه؟!

أذنـت للحجـاج بالحصـار، وأرسـلت لطـارق بـن عمـرو أن يخـرج للحجـاج فـي خمسـة آلاف جنـدي وليكـن تحـت إمرتـه ويُطيعـه فيمـا يأمـره بـه الحجـاج حتـى لـو أمـره بهـدم الكعبـة.

توالـت الأيـام فـي حصـار مكـة، وتوالـت الرسـائل بينـي وبيـن الحجـاج، يُطلعنـي أولاً بـأول علـى تطـورات الأوضـاع كأنـي أراهـا مـن علـى كرسـي الحكـم بدمشـق، راسـلني بالظواهـر التـي حدثـت تزامنًـا مـع رمـي الكعبـة بالمنجنيـق، حدثنـي عـن رهبـة الجنـود مـن الصواعـق، حدثنـي عـن الصواعـق التـي ضربـت رجـال ابـن الزبيـر، حدثنـي عـن الوفـود التـي أتتـه تطالـب بالهدنـة ريثمـا ينتهـي موسـم الحـج، حدثنـي عـن بغيتـه فـي إيصـال رسـائل للأقطـار عـدة يتناقلهـا الحجـاج كل إلـى وطنـه بـأن الخلافـة لا تتـرك مـن ينازعهـا شـبرًا مـن كان ومتـى كان وأيـن كان.

مـا هـي إلا شـهورٌ وفتـح اللـه علينـا بالنصـر، وسـقط ابـن الزبيـر وجُمعـت لـي خلافـة المسـلمين قاطبـة، فكنـتُ أول خليفـة أمـوي يسـيطر علـى كل تلـك المسـاحات الشاسـعة مـن أراضـي المسـلمين، وبـدأ الحجـاج فـي أخـذ البيعـة لنـا ثـم

بدأت خطابات المبايعة تأتيني رأسًا من كبار رجال الحجاز وكان على رأسهم محمد بن الحنفية الذي اعتزل الفتنة ولم يُبايع لأحدٍ حتى أخيه الحُسين!

كافأت الحجاج بأن كتبت له على ولاية مكة، فأخذ يصلح فيها كراعٍ يهتم لشئون رعيته! فعجبًا لهذا الرجل! ما وليته أمرًا قط إلا قام به مقام الخبير المُجرب! أنَّى للخلافة برجال مثل الحجاج؟!

أخذ الحجاج في إصلاحاته في الحجاز كوالٍ مُتمرسٍ، ثم راسلني في إعادة بناء الكعبة بعدما كان ابن الزبير قد عدل فيها فأذنت له، وتوالت أخباره التي تصلني منه أو من عيوني عليه تسرني وتزيد من اقتناعي به حتى موقفه من زواج خالد بن يزيد من رملة بنت الزبير قد وصلني عنه.

بعدما ضبط الحجاج أمر مكة، لم أجد للمدينة أكفأ منه ولم أجد مكافأةً تليق به إلا بالجمع له على ولاية مكة والمدينة، فسار إليها وصنع بها مثلما صنع بمكة وأقام فيها من الإصلاحات والعمارة ما كانت مفتقدةً له طوال مدة الحرب مع ابن الزبير فاطمأننت لأمر الحجاز ما دام عليه رجلٌ مثل الحجاج، فليت لي على كل مِصْرٍ رجلاً مثله.

هكذا أصبحتُ الخليفة الأوحد ولم يعد يشغلني شاغلٌ من منازعٍ، إلا بعض المنازعات المُعتادة من العراق وخوارجها في الشرق وكأنهم أقسموا منذ ولادتهم على ألا يُطيعوا قط! وكأن السيف لا بد أن يظل مشهورًا لهم حتى تظل أعناقهم خاضعة، لكن على كل حالٍ فالمهلب بن أبي صفرة على الشرق يكفيني إياهم، والحجاج على الحجاز، وأخي عبد العزيز على مصر وإفريقية، ومسلمة ولدي على جبهات الروم، وكل من أبلى لنا قد أخذ جزاءه وأكثر، فما لي أنا من عطاء؟!

دخل عليَّ أبو يوسف الحاجب، يستأذن لخالد بن يزيد في الدخول عليَّ، فقد أتي من الحجاز في أمرٍ مهم وعاجلٍ! فمنذ متى ولخالد أمورٌ مهمة أو عاجلة؟! ألم يكتفِ بالخيمياء والنساء ويدع لنا شئون الحكم حتى نتفرغ لها! أذنت له فدخل وعلى وجهه الفزع:

- هل بلغك أمر الحجاج؟!

ظننتُ أنه سيُحدثني عن أفعال الحجاج التي يراها البعض إجرامية، وأراها أنا إصلاحية، أو سيشفع لأحد سجناء الحجاج، أو يشتكي لي من نظرة نظرها الحجاج له.

- وما أمر الحجاج؟!

- لقد خطب بنت عبد الله بن جعفر، أتترك الحجاج يتزوج بنت عبد الله بن جعفر؟!

ما كنتُ أحسب أن مجلس الخلافة هان لهذا الحد، حتى نتحدث فيه عن النساء ومن خطب ومن بنى ومن طلق! لكن تمالكت نفسي حفظًا للصلة التي تربطنا، فلو حدثني في هذا غيره لضربتُ عنقه:

- وما بأس بذلك؟

- أشد البأس والله يا أمير المؤمنين.

- وكيف ذلك يا ابن يزيد، وصهر آل الزبير؟!

- والله يا أمير المؤمنين، لقد ذهب ما في صدري على آل الزبير منذ تزوجت رملة، ولئن تزوج الحجاج من آل أبي طالب ليذهبن هواه فينا إليهم دوننا، يا أمير المؤمنين إنما خفتُ أن يميل الحجاج إليهم فيسعى لمحل سلطانه، فإنه لم يكن بين أهل بيتين شحناء ما كان بيننا وبين آل الزبير، فلما تزوجتُ ابنتهم انقلب ذلك البُغض إلى محبةٍ حتى إني ما أحب أكثر منهم حتى قرضت فيهم شعرًا:

تجول خلاخيل النساء ولا أرى خلخالاً يجول ولا قلبا

فلا تكثروا فيها الملام فإنني تخيرتها منهم زبيرية قلبا

أحب بني العوام من أجل حبها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

لقد جاءت الساعة التي رأيت فيها خالدًا يهتم بأمر بني أمية ويخشى على ضياع الخلافة منها! وهذا ما لم أعهده منه قط، فلو كان يعي ما يفعل ما تقدم إلى مصاهرة ألد أعدائنا لنا والذين نازعونا الخلافة، لكنه وإن كانت نية خالد في غير ما يُظهر فإنه سعي محمود ورأي مرشود ونصيحة لا بد أن يُؤخذ بها.

أمرتُ بالكاتب فحضر وأمليت عليه رسالة عاجلة للحجاج:

«من خليفة المسلمين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف:

قد بلغنا ما تقدمت عليه من مصاهرة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ونحن لا نرى لك حاجة في تلك الزيجة ولا نباركها، فإن وصلك كتابي هذا فعزمت عليك أن تطلقها وأكرمها وأكرم أباها، وعهدي بك رجل السمع والطاعة.

والسلام»

ثم أمرتُ بكتابٍ آخر:

«من خليفة المسلمين عبد الملك بن مروان إلى ولاينا على الحجاز الحجاج بن يوسف.. وبعد:

قد رأينا أنك كفيت الحجاز وضبطت أمره، وهناك من هم أشد حاجة إلى عزمك وحزمك وسيفك وسوطك، فإنا نعزلك عن الحجاز ونوليك أمر العراق فاذهب إليها من ساعتك.

والسلام».

الشهادة الثانية لـ: ليلى الأخيلية

في ليلة الوداع، كان قد عادا لسابق مجدهما، وتذكرا أيامهما الأولى، حيث كان كأس العشق يُشرب على مهلٍ وبتأنٍّ مع الكثير من المُقبلات قبله وأثناءه، ليس كما أصبح في الأيام الأخيرة يعبه الحجاج عبًّا، دفعة واحدة كأنه شرابٌ مريرٌ لا يريد استطعامه!

ما كادا يفرغان من الكأس الأولى حتى سلبهما الرضيع لذته ببكائه الذي أتى في غير ميعادٍ، فقامت إليه بنت النعمان وماؤها يقطر على فخذها حتى أسكتته وعادت، لتكمل ما بدأته، لكن كأس الغرام إذا تُرك لا يُستكمل ولا يُعاد إليه ولا بد من صبِّ كأسٍ جديدةٍ، فاستمهلت بنت النعمان حتى دارت راح النشوة فصبت كأسًا من جديدٍ ودخلا في نوبة احتساء حتى سكرا من النشوة فغفلا حتى الإفاقة.

بعدما ذهب جنون الشبق، وغفلة النشوة، عادت به بالحديث إلى ما أخبرها عنه، فتعارضا، ولأنه كان قد فرغ منها لتوه فسرعان ما كان الفراق أسبق من الحلم، فطلقها! يا لغبائك يا بنت النعمان، كنت أظنك امرأة تُجيد استخدام الفراش وتعلم قوانينه! ألم تخبرك إحداهن أن الرجل تتم مساومته قبل اللقاء وليس بعده؟! ألم يخبروك أن عليك أن تأخذي قبل أن تمنحي؟! ألم تعلمي أن الرجل قد يقبل قبل ما يرفضه بعد؟! وهل يسترد سهم فارق منزعه يا خرقاء؟!

لله در عاتكة بنت يزيد، حين خطفت قلب عبد الملك بن مروان وجعلته يلح الطلب في خطبتها، الكل يدَّعي أن عبد الملك هو من سعى إليها لكن القليل من يعلم أن هوى الفتاة قد هوى بها فيه حين رأته قبل أن يراها، فهو كان يراها في سن أبنائه وهي الفتاة المُغرمة بالرجل الذي خالط الشيب لحيته!

كثيرًا ما سمعت جدها معاوية يحكي عنه، ويتمنى لو كان يزيد ابنه مثله! ألم يولد عبد الملك ويزيد في عام واحد؟! لكن البوْن بينهما واسعٌ، فهذا يزيد المُدلل، الذي لم يرث من معاوية إلا الاسم والبيعة، وهذا عبد الملك فتى قريش وفارسها، سيف الخلافة في الحرب، وفقيه المدينة وحمامة المسجد في السلم، حليم الرأي إذا استشير، مفوه اللسان إذا نطق، إن وعد أوفى، وإن حدَّث صدق، وإن أعطى أجزل، وإن عاقب بتر.

هامت به حبًّا، رغم كل المعوقات التي تعتلي طريق وصوله، فهو متزوج من امرأة لو وزع جمالها الثلاثيني على صبايا دمشق أجمع لظلت أجملهن، فكانت كما اسمها «ولادة» فهي ولادة الجمال متجددة الطلة وولادة للرجال فقد أنجب منها عبد الملك ثلاثة أبناء أكبرهم يكبرها بثلاثة أعوام! فأنَّى لها برجلٍ تحته امرأة كتلك؟! وإن وصلت فهل ستتركها ولادة في حالها وهي المرأة الخبيرة العالمة؟! فإذا كنتِ يا عاتكة تمتلكين نضارة الشباب فولادة تمتلك ثقل الخبرة!

عاتكة كانت تمتلك سنًّا صغيرة حقًّا، لكن لديها حظًا وافرًا من الدهاء الأنثوي الذي صادت به فريستها، فبعدما انتقل آل مروان لدمشق أصبحت رؤيته متاحة والاحتكاك به محتومًا، وإذا كان تعامله معها في غاية الضيق ويعاملها كابنته إلا إنها تمكنت من الإيقاع به في شباكها! فمرة تشتكي له من الوليد الذي كاد أن يصيبها بالسهم وهو يتمرن، ومرة تشتكي له من سليمان وقد كاد أن يصدمها بجواده وهو يركض، ومرة تُحَكمه في أمر بينها وبين أم البنين بنت أخيه عبد العزيز! مرة أهدته منديلاً من حرير طرزته بيديها ليمسح به سيل فمه ويهش به الذباب! كانت تتعمد أن تنعته بلقب «عماه» لكن يخرج من بين شفتيها بوقعٍ آخر على قلبه، كانت تتعمد أن تنطقه ببطءٍ ودلالٍ وتخرج الكثير من نفسها فيه، فكانت تنطق العين أقرب إلى الحاء وكانت تسكن الهاء فتبدو كأنها تتأوه! ويا ويل رجل تأوهت له أنثى!

سقط عبد الملك في الشِّراك وأرسل إلى والدها في خطبتها، لم يجد يزيد ما يمانع به، حتى فارق السن ما أن لمح به حتى لمَّح له عبد الملك بمكانته في الخلافة وحاجة يزيد إلى آل مروان، لكن الحرب كانت استعرت في خدور النساء، فولادة أرسلت جواريها لعاتكة يحذرنها من الموافقة على الزواج وإن زفت لعبد الملك فقد زفت نفسها للهلاك، لكن عاتكة ردت برسالةٍ أنثويةٍ شديدة اللهجة: «لو كفته مَن تحته ما رفع عينيه إلى غيرها»، فرأت ولادة أن المراسلة لن تُجدي في هذا التراشق ولا بد من لقاء ترى وتسمع فيه تلك الفتاة التي من عمر أبنائها وتحدثها في أمور الرجال.

- ألا ترين أن الوليد ابنه يكبرك يا صبية؟!

- الرجل بحاجةٍ إلى امرأةٍ تصغره ليصغر معها، صبية يرتوي من شبابها، صبية تذكره بفتوة الصبى، بكرًا تعيد له شبابه الذي سلبته إياه امرأة في سنه قد سلبها الحمل والرضاعة مفاتن النساء!

- أي امرأة تلك التي تتحدثين عنها، أنا كما ترين، قد أتيت له بالرجال وما زلتُ بكامل فتنتي وما زال فيه شبق لي يا صغيرة.

- قلتها وأكررها: لو كفته مَن تحته ما رفع عينيه إلى غيرها.

كادت ولادة أن تمزق شَعرها، أن تصفعها، أن تغرز أظفارها في عنقها، أن تفعل بها ما تفعله أي امرأة في امرأة ستشاركها زوجها، لكن تصرفت بما يليق بسنها ومكانتها وتركتها ورحلت، بعدما علمت أن القادم أسوأ، والمنافسة أشرس.

ما هي إلا أيامٌ وزُفت عاتكة لعبد الملك، في نفس الليلة التي زفت فيها أم البنين بنت عبد العزيز لابنه الوليد! أيبني الرجل وابنه في ليلةٍ واحدةٍ؟!

دخل عبد الملك مخدع العروس فوجد عاتكة متبرقعة بثياب عرسها، فرفعه عنها، فوجد الحياء يكسو ملامح وجهها، كانت لديه خبرة السباح الذي يمرن حديث عهد ببحر، سحبها من يدها فانصاعت له حتى وقف بها في وسط الغرفة، دار حولها بتريث

أسدٍ أحكم سيطرته على فريسته وعلم أنها له، حدثها عن جمالها الأخاذ، عن عينيها اللتين سلبتاه عقله، شفتيها حين نطقتا اسمه، عن دلالها وهي تُحادثه.

كان يُحادثها ويقترب، يدورُ حولها ويقتربُ أكثر حتى مد يده وفك وثاق سترها فسقط أرضًا فبدت أمامه كما ولدتها أمها، إلا مما يستر النهدين والكامن ما بين الفخذين، بنظرة تاجر متمرسٍ يُعاين بضاعته نظر إليها.

الشَّعر كميت اللون مموج كسطح البحر تفوح منه رائحة الندى، يُحيط بوجهٍ دقيق الملامح الذي يشبه في تمام استدارته نصف يقطينة، محمول على عنق كأنها حقٌّ من العاج موصول بجسدٍ- أنا الأخيلية رغم بلاغتي أعجز عن وصفه!- ما كاد عبد الملك يملي عينيه من حسنها حتى رمى نفسه فيها فأغرقها فيه وعاد منها بشبابه المسلوب.

الآن تنتهي شهادتي الثانية، وبقيت لي شهاداتٌ سأقر بها تباعًا وسأخوض في أمورٍ لا يقوى على الخوض فيها إلا امرأة مثلي، وسأحدثك بأسرار هؤلاء الرجال التي لا يعرفها عنهم سوى نسائهم.

***

جرير

-16-

رحل الراعي من البصرة ورحل فخرُ بني نُمير من الأرجاء فبعدما كانوا يتشدقون بأنهم إحدى جمرات العرب وأنهم لم يتحالفوا مع أحدٍ ولم يُدخلوا بينهم دخيلاً أصبحوا يتحاشون الانتساب إلى نُمير وينتسبون إلى عامر بن صعصعة.. وطويت صفحتهم وعُدت لسابق عهدي للتهاجي بيني وبين الفرزدق وحضور مجلس ابن سيرين الذي أصبح مقصدًا لكل من أراد تأويل رؤياه فضلاً عن الفتوى وطلب الفقه، فما رأيتُ في حياتي أجبن من ابن سيرين في الفتوى، وما رأيتُ أجرأ منه في تأويل الرؤيا، وقد كان له تأويلٌ تعجَّب منه الأنام؛ فذات مرةٍ سأله رجلٌ عن رؤياه وأنه يرى فيما يرى النائم أن على سطح بيته حبات شعير وجاء ديك فالتقطها! فقال له ابن سيرين اذهب وإن سُرق من بيتك شيء في هذه الأيام فائتني! وبعد مجلسيْن رأيتُ

الرجل قد عاد يُخبره أن نساءه غسلن بساطًا لهن ونشرنه فوق السطح ليجف وحين صعدن ليجلبنه لم يجدنه ولا يشك أنه سرق.. فقال له ابن سيرين اذهب إلى مؤذن المسجد المُجاور لدارك فبساطك عنده!

كانت هذه الأحداثُ مفردات أيامي.. ففي الصباح أجلس في سوق المربد حيث الشعر والشعراء وتناقل الأخبار والأحداث، والعصر في مجلس ابن سيرين والليل للسَّمر والشعر حتى مللت الحياة وملتني، حتى أتتني فاجعة موت سوادة ابني، فقد أصابته الحُمى، فمات صغيري وتقطع فؤادي من ورائه، وللمرة الأولى في حياتي أجرِّب نفسي في الرثاء فما كنتُ رثيتُ أحدًا قبله، حتى قلتُ فيه:

قالوا:

نَصيبَكَ من أجرٍ، فقُلتُ لهم — منْ للعرينِ إذا فارقتُ أشبالي

لكنْ سوادة يجلو مقلتيْ لحم — باز يصرصرُ فوقَ المرقبِ العالي

قدْ كنتُ أعرفهُ مني إذا غلقتْ — رُهْنُ الجِيادِ وَمَدَّ الغايَةَ الغَالي

إلاَّ تكنْ لكَ بالديرينِ باكية — فربَّ باكيةٍ بالرملِ معوالِ

كَأُمِّ بوٍّ عَجُولٍ، عندَ مَعهَدِهِ — حنتْ إلى جلدٍ منهْ وأوصالِ

تَرْتَعُ ما نَسِيَت حتى إذا ذَكَرَتْ — رَدَّتْ هَماهِمَ حرَّى الجوْفِ مثكالِ

زدنا على وجدها وجدًا وإن رجعتَ — في القلبِ منها خطوبٌ ذاتُ بلبال

فارَقْتَني حينَ كَفَّ الدَّهرُ من بَصرِي وحينَ صرتُ كعظمْ الر مةِ البالي

إنَّ الثَّوِيَّ بذي الزَّيْتونِ، فاحتَسبي قَدْ أسرَعَ اليَوْمَ في عَقلي وَفي حالي

ومن بعد فاجعتي انقطعتُ عن الناس وأهملني الناسُ فأهملتهم، ولازمتُ مجلس ابن سيرين والمسجد حتى أتت فاجعةٌ أخرى حين عقد ابن سيرين صفقة زيت بأربعين ألف درهم مؤجلة إلى الحوْل وأخذ الزيت ووضعه في المخزن، ثم بعد ذلك فتح أحد الأزقة فوجد فيها جزءًا من جسم فأر! ففتح الأخرى فوجد فيها جزءًا آخر من جسم الفأر، فعلم أن الفأر مات في الزيت أثناء ما كان في المعصرة فجزم بنجاسة صفقة الزيت كلها وسكبها في الصحراء مخافة أن يردها لصاحب المعصرة فيبيعها للناس على أنها زيت طُهر ولا يستطيع هو بيع باقي الزيت لريبته فيه.

وحين حال الحوْل طالبه صاحبُ المعصرة بما عليه من ديْن فلم يستطع سداده فرفع أمره إلى الحجاج فقضى بسجنه حتى يقضي ديْنه.

لم يعد بالبصرة ما يسرني ويكفني ما بها من أحداثٍ جاريةٍ ويكفي فقداني لولدي فيها، وحتى مجلس ابن سيرين الذي كنتُ أعزي نفسي بالجلوس فيه والمؤانسة بقربه قد انفضَّ بدخول صاحبه السجن فشددتُ رحالي وعُدت أدراجي إلى مسقط رأسي.

***

الحجَّاج
-17-

جاءني استدعاءُ الخليفة لي وأنا بفلسطين فركبتُ جواد السرعة وطرتُ نحو دمشق! لا سيما أن الرسول لم يبح بالسبب وكذلك الكتاب الذي كان يحمله! فلم أجد من نفسي بدًّا سوى سرعة طاعة الخليفة والتوجه نحوه.

ما أن وصلتُ قصر الخلافة حتى دخلت على الخليفة فقابلني بوجهٍ مضطربٍ يُذكرني بذات الوجه الذي رأيته عليه حين استدعاني أول مرة! فعلمتُ أن الخطب جللٌ، والأمرُ ليس بالهيِّن:

- ليتني لم أبعدك عني يا أبا محمد!

- أنا رهنُ إشارتك يا أمير المؤمنين، ولو كنتُ في أنأى أطراف الأرض لطويتها من أجلك.

- لقد قررتُ الخروج لقتال مصعب بن الزبير، وحين استنفرتُ أهل الشام لم ينفروا معي، وكأنهم اعتادوا السَّكن والدِّعة ومؤانسة النساء وملاعبة الأطفال.

- سلطني عليهم يا أمير المؤمنين، وإن لم تنفر معك جدران البيوت قبل سكانها حلت لك عنقي!

- وما استدعيتك إلا لهذا، فانظر ماذا ترى!

آه يا عبد الملك! لو أخذت بنصيحتي لما طلبتني مذعورًا كهذا، فقد أخبرتك أن أبقى بجوارك فليس لرجالك المتخاذلين، المتكاسلين، سوى رجلٍ مثلي، يشير لهم بالسوط بيد وبالسيف باليد الأخرى حتى لا يركنوا للراحة أو تراودهم أنفسهم على العصيان.

جمعتُ رجالي الذين اصطفيتهم على مدار سنوات خدمتي وعلمتُ فيهم السمع والطاعة وحُسن التصرف وطلقتهم في شوارع دمشق وطرقاتها يُنادون في الناس أن من سيتأخر عن النفير ليس له عندنا سوى أن نحرق داره على من فيها.. وبالطبع أهل دمشق يذكرون ما فعلته بهم منذ سنواتٍ، فما فرغت المناداة حتى نضحت البيوتُ بمن فيها من رجالٍ واجتمعوا في المعسكرات التي أعددتها لهم.

أعددتُ الجيش كأفضل ما يكون، فالخروج هذه المرة ليس كسابقتها.. فإذا كان زفر بن الحارث الذي لا يملك سوى بضعة آلاف من الجند قد أرهقنا حتى انتهى الأمر بالتفاوض والمصالحة، فإن

هـذه المـرة الخـروج إلـى نفـر مـن أشـجع شـجعان العـرب، ولا أظـن أن الحـرب سـتنتهي إلا بإراقـة الدمـاء والكثيـر مـن المكائـد والدهـاء.

خـرج الجيـشُ عرمرمًـا قاصـدًا العـراق وخـرج علـى رأسـه الخليفـة وعلى مقدمتـه محمـد بن مـروان أخـو الخليفـة.. وانتظـم المسـير حتـى وصلنـا إلـى مسـكن فنزلنـا بهـا وأتـت المراصـد بنبأ قـدوم مصعـب إلينـا فـي جيـشٍ جـرارٍ مـن أهـل العـراق وهنـا كانـت للخليفـة تحـركاتٌ خفيـةٌ يريـد بهـا تلاشـي القتـال مـع مصعـب! مدعيًـا أن بينهـم مـن الصداقـة مـا يحـرم ذلـك عليـه! فمنـذ متـى والخليفـة يراعـي حرمـة للـدم إذا اشـرأبت عنـق نحـو عرشـه؟!

بعدمـا مكثنـا أسـبوعًا فـي مناوشـاتٍ يسـيرةٍ مـع جيـش مصعـب كان لا بـد مـن احتـدام القتـال، فلـم نُحـرك جيشـنا ونزحـف كل هـذه المسـافة ونـنـزل فـي موضعنـا هـذا لنظـل كل يـوم نجـرح جنديًّـا أو اثنيـن مـن جنـود مصعـب وكذلـك يجرحـون فينـا! لعمـري أن لعبـي مـع الصبيـان علـى أنقـاض سـور الطائـف كان أخشـن مـن هـذا وأكثـر دمويـة! لكـن كيـف للقتـال أن يحتـدم والخليفـة يفعـل مـا يفعلـه هـذا ويدلـي بمثـل تلـك التصريحـات؟!

إن لم ترد قتال مصعب فلمَ أتيت بنا؟!

يبـدو أن مسـاعي الخليفـة للسـلم لـم تـؤتِ ثمارهـا ولـم يجـد بـدًّ- مثلمـا توقعـت- مـن الخـوض فـي الحـرب ولتطـرِ الأعنـاق أيًّـا كان

صاحبها، فاندلعت الحرب الحقيقية وتنازل الطرفان وقد كانت عنق إبراهيم بن الأشتر أكبر قادة جيش مصعب أول الأعناق، ولم تطل الحياة بمصعب كثيرًا من بعده فما لبث أن طارت عنقه هو الآخر، ودخل عبد الملك الكوفة معلنًا عودة العراق لحظيرة خلافة بني أمية.

بعدما قعد الخليفة على كرسي حكم العراق، أفرغ نظره إلى الحجاز، فهي آخر ما بقي من الخلافة الإسلامية خارج حظيرة بني أمية، فبعدما- بكل ما أوتي من حنكة وحكمة- استرد مصر وقريقسياء والعراق لم يعد يوجد خرق في ثوب الخلافة سوى خرق الحجاز، فمن له ليرتقه؟!

تشاور الخليفة مع رجاله وقادته في سرعة الانقضاض على الحجاز الآن، لا سيما أن حصار المال والرجال قد فُرض حولها، فمن بعد مصر لم يعد لها مصدرٌ للأموال أو الغلال، ومن بعد العراق انقطع عنها مددُ الرجال، لكنه وجد في نفوسهم هيبة من القتال في البلد الحرام!

انفض مجلسُ المشاورة ولم يجد الخليفة مَن يُسانده في رأيه ورأى في عيون أهل الشورى الصبر على ابن الزبير حتى تهلكه المجاعة أو يخضع للسلام، لكني رأيتُ في عين الخليفة شغف الحرب وكأنه مستبطئ الصبر ويريد الخروج إلى الحجاز الأمس قبل اليوم!

نمتُ ليلتي هذه أفكر في الأمر، فإذا كان أهل الشورى يخشون الحرب على ابن الزبير خشية حرمة مكة؛ فقد انتهكوها بالأمس القريب ورموها بالمنجنيق حتى أصابوا قلب الحرم! وإذا كانوا يريدون أن يقاتلوا ابن الزبير بالصبر لا بالسيف، فمنذ متى والخلافة تصبر على من شاركها كرسي الحكم؟! أنا لا أرى إلا أن حاشية الخليفة قد ملت من كثرة حروبه وألفوا الراحة ودعة القصور ومداعبة الجواري ولا يهمهم همٌّ ولا يشغلهم شاغل إلا إيرهم وأين يدسونه!

«أنا لها يا أمير المؤمنين»

«إني رأيتُ في المنام أني قتلته وسلخته، فابعثني إليه وولني قتاله!»..

كانت هذه صيحتي في مجلس الخليفة في اليوم التالي بعدما نمت ليلتي ورأيت فيما يرى النائم أن أمر الجيش سار لي وأطلق يدي الخليفة في المسير نحو الحجاز فخرجت إليها بجيشٍ لا أرى آخره، وما أن وصلت مكة حتى طوقتها برجالي فلا يدخلها غريبٌ ولا يخرج منها أهلها حتى أحكمت الحصار على ابن الزبير ومن معه وما طقت الانتظار على هلاكهم من الجوع والقفر فزحفت إليهم حتى التقى الجيشان فأصبت ابن الزبير بسيفي حتى شققت رأسه وسقط من على جواده ونادى الناس أن سقط الخارج ففر مَن بايعوه على الخروج فأعدتُ مكة إلى الخلافة وأمرتُ بابن الزبير أن يُصلب ويُسلخ على مرأى كل من بايعه ليعلم كل من راودته نفسه بالخروج على الحاكم أي منقلب سيؤول إليه حاله في حياته وبعد مماته.

استبشرتُ بهذه البشرى خيرًا وانتظرتُ ملولاً حتى انعقد مجلس الخليفة ودخلت عليه ورجوته أن يوليني تخليص الحجاز من ابن الزبير لتكتمل مسبحة الخلافة في يديْ أمير المؤمنين.

بعد مفاوضاتٍ وأخذٍ وردٍّ لم يجد الخليفة بدًّا من أن يوليني أمر الحجاز فكتب لي بالخروج إليها في ثلاثة آلاف من الجند ووكل لي أمر القيادة والخطة والتصرف!

للحرم حُرمةٌ في نفوس المسلمين، فحتى لو به هذا المنافق يبقى للحرم ما له من حُرمة! فأنَّى لي بتليين عقول هؤلاء الجند وترسيخ فؤادهم على قتال ابن الزبير حتى لو كان القتال في جوف الكعبة نفسها وليس في ربوع الحرم؟!

خرجتُ بالجيش من الكوفة ولا يشغلني شاغلٌ سوى تهيئة نفوس الجنود ليُقبلوا على القتال بنفوسٍ مطمئنةٍ وقلوبٍ راسخةٍ؛ أما أمرُ الحرب والسيف والرمح فلا أظن لقريحة ابن الزبير أن تجود بأفكارٍ خارقةٍ فهو بخيلُ الفكر واليد.

مضى البعثُ حتى وصلنا إلى المدينة وقد كانت حديثة العهد بعودتها لحظيرة خلافة بني أمية وعليها طارق بن عمرو عاملاً لخليفتنا فمررتُ بها مرور الخطفى وزودت الجيش بما نقص أثناء الرحلة من الكوفة إليها، ثم أعملت رأيي في التوجه إلى مكة مباشرة أم التريث في الأمر؟!

كانت الرحلة شاقة من الكوفة إلى المدينة، وستكون أكثر مشقة إن استمرت إلى مكة وخرج إلينا ابن الزبير لقتالنا، فلا أظنه- رغم ضيق أفقه- سيفوت فرصة الانقضاض على جيشٍ أضناه السفر وأثقله الترحال مثل جيشي، وحينها لن نكون سوى شاةٍ ناضجةٍ يلتهمها ابن الزبير وفرسانه! والأخطر في الأمر هو نفوس الجند المقدِّسة للحرم وحرمته فإذا لم تخنهم قواهم وبقي فيهم من رمقٍ بعد طول الرحلة ستخونهم نفوسهم المقدِّسة لحُرمة البيت، ولا أظنهم على الطاعة مثلي.

بعدما خرج ركبُ الجيش من المدينة لم أكن حقًّا مدركًا لوجهتي الحقيقية، هل أمضي في اتجاه مكة ويكون ما يكون أم أعرج على بلدٍ قريبٍ حتى أعيد تعبئة الجند لما هم قادمون عليه؟! حتى جاءتني فكرة العروج على موطني ومسقط رأسي «الطائف» فهي قريبة من مكة وجوها قريبٌ من جو الشام سيعتاده الجنود ويألفونه سريعًا والأهم أنها آخر ما تبقى من منابع الخير لابن الزبير فلو أغلقتها عنه لأتممتُ محاصرته اقتصاديًّا ولم يعد له منفسٌ أو منفذ! كما بها الصحابة الفارون من ابن الزبير والواقفون على الحياد من البيعة فإن رآهم الجنود سيضعف أمر ابن الزبير في نظرهم ولن يجدوا في نفوسهم حاجةً من قتاله.

هذا ما رأيتُ وهذا ما فعلتُ، وسرتُ بالجيش نحو الطائف فدخلتها بلا قتالٍ ولا نزالٍ وأمرتُ الجند بالاستراحة مع الحذر فيما ذهبتُ أنا ألملم حنين الماضي من ثنايا نفسي، ذهبت إلى أمي.

شاخت الفارعة وضربها الكبر، فبدت كشجرةٍ عجوزٍ لم تُرو منذ أمدٍ، فتبدل وجهها النضر بوجهٍ يابسٍ لم تعد تهتم به مثلما اعتدت عليها طفلاً لكنها لم تتخل عن حُليها حتى الآن، ولن تتخلى عن لقب أكثر نساء الطائف حُليًّا ما بقي فيها رمق، وهل تتخلى عنه الآن بعدما لم تتخلَ عنه عام عسرتنا؟!

- أبعد كل هذه الجفوة تعود لي على رأس جيش سيغزو الحرم؟! بئسها من نطفةٍ وضعها أبوك فيَّ فأنجبتك.

- أهكذا يكون لقاء الأحبة يا أم الحجاج؟!

- أحبة؟! وهل الأحبة يهجرون كما هجرت، وينسون كما نسيت، وحين يعودون يعودون بمصيبةٍ كما عُدت؟!

- أما عن الهجر فأنت خير من يعلم أن الطائف والحجاز كله هو من طردني بعدما ضيَّق عليَّ في رزقي وتجارتي حتى خرجتُ للقتال مع ابن الحكم كالمرتزقة! وأما عن النسيان فقسمًا بمن أحلَّ القسم ما طلعت شمس من مشرقها ولا غابت في مغربها إلا ذكرتك.

- لماذا لم تعد بعد يوم الربذة مثلما عاد والدك؟

- أعودُ إلى هنا بعار الفرار الذي لحق بي؟! لكن هناك أخفيتُ عاري وسط آلاف المُعيرين مثلي، حتى اجتهدت وغسلت هذا العار وأصبحت كما ترين الآن، رجل الخلافة الأول الذي يوكلون له ما لا يقدر عليه الخليفة نفسه.

- يوكلـون لـه المصائـب التـي سـتلحق باسـمه لأبـد الآبديـن، فأنـت تقتحـم الحـرم، وتهتـك أسـتار الكعبـة، وتنفـر طيرهـا، وتدنـس حرمتهـا، وتُحـارب ابـن ذات النطاقيـن، وتُعيـد الحجـاز إلـى الخلافـة، لينفـرد عبـد الملـك بالكرسـي وتنفـرد أنـت بالعـار.

- عبد الملك الخليفة وعليَّ طاعته، لا سيما أن رجاله خذلوه.

- تتحـدث كأنـك فـارس الخلافـة الأوحـد وليـس هنـاك مـن يُبلـي أفضـل منـك، لا تُخـفِ مـا فـي نفسـك مـن كـرهٍ وحقـدٍ لابـن الزبيـر لمـا فعلـه لـك فـي الماضـي يـا حجـاج! أنـت أتيـت إلـى هنـا لتثـأر لنفسـك.

ربمـا مـا قالتـه لـي أمـي يجانبـه الصـواب، ربمـا فـي نفسـي شـيء مـن ابـن الزبيـر لكنهـا لا تعلـم مـا أبليـت بـه مـن الطاعـة، ومـا أنـا علـى استعدادٍ لتقديمـه مـن أجـل طاعـة ولـي الأمـر، ولأجـل طاعـة ولـي الأمـر أتيـتُ إلـى هنـا، ولأجلـه سـأخوض الحـرب أيًّـا كانـت نتائجهـا ومتاعبهـا، ولـن أعـود إلـى الشـام إلا بـرأس ابـن الزبيـر.

هـدأت نفـسُ الجنـود واسـتراحوا مـن عـبء السـفر وتغيـر الأرض، فبـدأتُ أرسـل بعـض السـرايا الراكبـة إلـى عرفـات ليستكشـفوا الأرض ويعتـادوا علـى النـزال، فكانـت أحيانًـا تخـرج لهـم بعـض سـرايا ابـن الزبيـر فيقتتلـوا ويعـودوا لـي غالبيـن، وبعدمـا تكـررت المناوشـات وكانـت لفرسـاني الغلبـة المُطلقـة، أرسـلت إلـى الخليفـة أسـتأذنه فـي دخـول الحـرم لمـا رأيـتُ مـن ضعـف جنـد ابـن الزبيـر وتفـرق أصحابـه عنـه فلـو

استمر بنا المكوث ها هنا دون حربٍ حاسمةٍ ربما استعد لنا ابن الزبير بما يُصعب علينا المهمة أو استعاد فلوله التي فارقته، وحينها ربما انقلبت علينا الأمور! والأخطرُ أننا في موسم الحج والحرم به وفود من شتى أقطار الخلافة التي عانينا حتى أعدناها لحكم بني أمية! فلو بث ابن الزبير دعاته بين الوفود يُحرضهم على الخروج على الطاعة ويحثهم على البيعة له لكان له ما أراد، لا سيما أنهم يرون الحرم بأكمله تحت حكمه وسلطانه! فماذا لو عادت كل تلك الوفود إلى بلادها وذاعت نبأ أن جند الخلافة لا تقوى على مهاجمة ابن الزبير؟! والله لو أذن لي لحرمتهم الحج هذا العام ونكدت عليهم فريضتهم.

جاءني الإذن بحصار مكة كما مدني بخمسة آلاف جندي على رأسهم طارق بن عمرو والي المدينة وجعله تحت إمرتي، فخرجتُ أنا بجيشي الذي جئتُ به من العراق حتى نزلت شرقي الحرم عند بئر ميمون على مقربة من جبل أبي قبيس، وأمرت طارق بن عمرو أن ينزل على جبل قعيقعان غربي الحرم. فأصبح الحرم بين فكيْ الجيش.

لا شك أن تحرك جيشنا أربك ابن الزبير وتناقلت الألسن خبر نزولنا على مقربةٍ من الحرم، لكن رغم هذا لم أجد نزولنا في هذين الموضعين ذا أثر مباشر على الحرم، فلم أجد مفرًّا من استخدام المنجنيق لرمي الحجارة والنار على الحرم إذا لزم الأمر.

أحكمت الحصار حتى يضطر ابن الزبير أن يترك الحرم ويخرج لقتالنا، لكنه ظل عائذًا بالحرم ظنًّا منه أن الحرم سيمنعني مما أتيتُ إليه، فبعدما طال الحصار أذنت في الجنود أن يعمروا المجانق وينتظروا إذني حتى أرسلت إلى ابن الزبير رسالةً أخيرةً فعاد الرسول بمثل ما ذهب.

فأمرتُ المُنادي أن يُنادي في الحجيج الذين يطوفون حول الكعبة أن ينصرفوا حتى لا يصيبهم أذى من حجارة المجانق وأمرتُ بالرمي.

بعد أول حجارة سقطت بجوار الكعبة أرعدت السماء وأبرقت حتى ظن الجنود أن هذا غضبٌ من الله علينا ورأيت في عيونهم الهلع والخوف والإعظام لحرمات الله حتى إنهم رفضوا أن يعمروا المنجنيق مجددًا كأنما شُلت أيديهم!

أخذت الحجارة بيدي ووضعتها في وعاء المنجنيق ورميتُ أنا أمامهم حتى أُبعد ما في نفوسهم من خوفٍ فعادوا للرمي مجددًا حتى رمينا في يومنا الأول اثنى عشر حجرًا حول الكعبة ولم نُصب من الكعبة ذاتها إلا بعض الزيادة التي زادها ابن الزبير لها!

تذكرتُ أيامي الأولى في مكة وخلوتي في الحرم بعد مجلس ابن عباس وحُلمي أن أعيد الكعبة إلى البناء الذي أراده الرسول ﷺ فلو نصرنا الله على هذا الخارج وعاد الأمر لي لأنظر في حُلمي القديم وأحققه.

في اليوم التالي حسبت أن ابن الزبير سيتحلى بالشجاعة ويخرج لقتالنا حتى لا نصيب الحرم أكثر من ذلك، لكنه ظل عائذًا به فلم أجد أمامي إلا معاودة رمي الكعبة بالمنجنيق!

لكن اليوم كان غائمًا ودلالاتُ المطر جلية، ولا شك أن جند الشام الذين معي لم يألفوا هذا الجو قط، فنحن الآن في فصل الصيف وأمطار الحجاز صيفية، رعدية، بارقة، مرعبة! فما أمرت الجنود بالرمي حتى أرعدت السماء وأبرقت ونزلت صاعقة على جيشنا حتى قتلت اثنى عشر رجلاً!

هكذا لم يعد أمام الجنود مفرٌّ من أن يروا أنفسهم عصاة، مذنبين، يفعلون أمرًا عظيمًا تضطرب له السماء بهذا الشكل وتقتل من الرجال عدد ما رمينا من الحجارة! ولا يدركون أن هذه عادة الصواعق ها هنا!

تراجع الجنودُ وتركوا المجانق وقلوبهم تكاد تقفز من أفواههم من فرط الخوف حتى ناديت فيهم:

- يا جند الشام، يا أهل الطاعة، أنا ابن تهامة وأدرى بجوها وصواعقها فلا تنكروا هذا، فوالله هذه صواعقها ومثلما أصابكم اليوم يصيبهم في الغد وأنتم على الطاعة وهم على الخروج والمعصية، وهذا الفتح قد حضر فأبشروا.

لا أنكر أن اضطراب نفوسهم كان جليًّا، والرعب في عيونهم مرسوم، والهلع ملازم لأنفاسهم. فرغم حديثي معهم وما حاولت أن أظهره لهم من ثباتٍ وثقةٍ فإن ما حدث كفيلٌ بأن يهز ثقتهم فليس كل الرعية لديهم ثقة في الطاعة مثل طاعتي.. فلم أشأ أن أحملهم فوق طاقتهم لهذا اليوم لا سيما أن بعد هذه الصاعقة واستشهاد زملائهم والمطر الذي انسال بعدها كان في المعسكر من أشغال أكبر من أن نلتفت لأمر ابن الزبير.

في اليوم التالي كان الجو كسابقه، لكن حالفني الحظ وضربت الصواعق الحرم حتى قتلت بعض جنود ابن الزبير فانتهزتُ الفرصة فخطبت في جنودي موقدًا الحماس في نفوسهم حتى يعاودوا الضرب مجددًا.

- أما قلتُ لكم إنهم يُصابون مثل ما تُصابون، وأنتم على طاعةٍ وهم على معصيةٍ! فشدُّوا عليهم يا جند الطاعة فهم مشغولون بما أصابهم.

انطلق الجنودُ بكل حماسٍ وثقةٍ يحشون وعاء المجانق بالحجارة واللهب ويقذفون في اتجاه الكعبة حتى خلا الحرم من أي طائف أو عابد أو ناسك، وقد بررت بقسمي أن أحرمهم الحج هذا العام وأنكد عليهم فريضتهم، حتى جاءني عدة رجال من وجهاء مكة وعلى رأسهم عبد الله بن عمر.

- يا حجاج اتق الله فإنك في شهر حرام وبلد حرام وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرًا.

- والله إني لكارهٌ لما ترون لكن ابن الزبير لجأ إلى البيت، والبيت لا يمنع خالع طاعة ولا عاصيًا، ولو أنه اتقى الله وخرج إلينا فأصحر لنا فإما أن يظفر وإما أن نظفر فيستريح الناس من هذا الحصر.

- دع الناس تطوف ويؤدوا فريضتهم ولا تمنع فريضة الله أن تقام.

- لهم الطواف والسعي لكنهم لن يقفوا.

- الحج عرفة.

- هذا ما لديَّ، وإلا المجانق موجودة وأحجار الجبل لم تنفد بعد.

***

انتهى موسم الحج ورجع كل وفد إلى قطره محملين بالرسالة التي أردتُ إيصالها لربوع أقطار الخلافة؛ فالخلافة لا تترك مَن نازعها كرسيها وتجيِّش الجيوش لحربه وقتاله في أي زمنٍ، وفوق أي أرض، وتحت أي سماء، حتى لو كانت مكة بما لها من حرمة؛ وفي أي مكانٍ حتى لو كان الحرم أو حتى جوف الكعبة؛ وفي أي زمانٍ حتى لو كان الشهر الحرام، وعلى مرأى ومسمع من الجميع حتى لو كانوا حجاج بيت الله وصحابة رسول الله ﷺ.

انفضَّ الناسُ من موسم الحج وخلت مكة من زوارها وعادت الحرب لمجرياتها، فقد أمرت بتضييق الحصار وإحكامه أكثر مما كان عليه، فالفترة التي سمحتُ فيها بدخول وخروج الحجيج قد استغلها ابن الزبير في إدخال المؤن والحبوب لمكة وتخزينها في بيته حتى رصدت عيوني في مكة أن داره مُلئت بالتمر والذرة والقمح ورغم كل ما لديه من مخزونٍ زاد بخله وشحه على رعيته! حتى غلت الأسعار في مكة وندرت المؤونة ولا تكاد توجد! فأنَّى له برجالٍ يُقاتلون معه وبطونهم خاوية؟!

بعث لي أميرُ المؤمنين يطمئن على الحال ويستطلع الأخبار فكتبت له أن النصر قد اقترب فكل من بمكة إن لم يمت من المجاعة سيموت بحجارة المجانق، وإن لم تصبه الحجارة سيخرج لنا فتصيبه سهامنا ورماحنا! فكتب لي أن أنادي فيهم بالأمان لمن ترك ابن الزبير وخرج مبايعًا لعبد الملك وحتى لو خرج ابن الزبير نفسه فله منا الأمان!

أي أمان لابن الزبير يا أمير المسلمين؟! أيظن أن ابن الزبير بعد كل هذا سيخرج مبايعًا له؟! أم هو أمان كأمان عمرو بن سعيد؟! لكن ليس عليَّ سوى السمع والطاعة! فأمرتُ المنادي أن يُنادي فيهم أن من خرج منهم تاركًا بيعة ابن الزبير، حانثًا بها، نادمًا عليها، مقبلاً على بيعة أمير المؤمنين الأوحد والخليفة الشرعي والأحق بكرسي الخلافة فله منا الأمان على نفسه وله منا حرمة ما حرمه الله

علينا.. ومن مكث مع ابن الزبير، خارجًا على الطاعة، مناديًا بشق عصاها، عائذًا بالحرم فله منا ما أحل الله لنا من قتال الخارجين على الطاعة، المفارقين للجماعة، العاصين لولي الأمر.

نادى المُنادي في الناس ونقلت لي عيوني ما يحدث داخل مكة من حديث الناس بعضهم لبعض، حتى نقلوا لي ما جرى في مجلس ابن الزبير ورفسه لأخيه عروة حتى طرحه أرضًا حين حدثه بأن يتأسى بالحسن بن عليٍّ حين خلع نفسه وبايع معاوية! أمن مثل هذا يا أمير المؤمنين تنتظر أن يقبل بالأمان؟!

ضاق بالناس الحالُ ولم يجدوا مفرًّا إلا الخروج إليَّ طلبًا للأمان وليس طلبًا للقتال، حتى خرج لي الآلاف من جماعة ابن الزبير حتى كان في من خرج إليَّ ابناه حمزة وخبيب، ولم يبق معه إلا قلة قليلة بقيت معه التزامًا ببيعةٍ أعطوها له ولا شك أنهم نادمون عليها الآن!

خرج من خرج وبقي من بقي مع ابن الزبير، ولا أظن أن نفرًا آخر سيخرج ولم أجد غير اقتحام الحرم حلاً لأقضي على ابن الزبير وأنهي هذا الأمر الذي طال وزاد عن الحد! فلم يعد في جعبتي ما أقدمه غير ما قدمت ولم تعد للكعبة حرمة لتنتهك أكثر مما انتهكت بسبب هذا الخارج، العائذ بها!

خطبتُ في جندي لألهب حماسهم ولأكسر الرهبة في نفوسهم وبينت لهم ما صارت إليه حال ابن الزبير وما هو فيه وما فعله

أصحابه به، فقويت نفوسهم وتكالبوا للقتال واقتحام الحرم حتى ملأوا من الحجون إلى الأبواء! لكم من الوقت سيتماسك ابن الزبير وحفنة من حوله أمام كل هذه الحشود؟!

رتبت جندي ووكلت لكل جماعة اقتحام باب من أبواب الحرم، وحرصًا مني على نقل المسئولية إليهم ومُحاسبة المُقصر فيهم فقد جعلت كل جماعة من جماعات الاقتحام من أهل نفس الجهة حتى يكونوا على معرفةٍ ببعضهم البعض ولا تحدث فتنة بينهم.

وكلت أهل الأردن باقتحام باب الصفا؛ ووكلتُ أهل حمص بالباب الذي يواجه الكعبة؛ ووكلت أهل دمشق باقتحام باب بني شيبة؛ ووكلت أهل فلسطين باقتحام باب بني جُمح؛ ووكلت أهل قنسرين باب بني سهم، وكنت أنا وطارق بن عمرو من ناحية الأبطح إلى المروة.

بدأت قواتي تطوق الحرم وتُحاصره من جميع الجهات في آنٍ واحدٍ؛ وكنت أنا متأخرًا عنهم لأتولى قيادتهم جميعًا، فكان ما تلبث فرقة من فرقي أن تقترب من باب من أبواب الحرم حتى يخرج عليها ابن الزبير وحده فيردها عنه فتكون فرقة غيرها قد اقتربت واقتحمت فيكر عليها ويخرجها حتى استعصى علينا الاقتحام ورأيتُ في جنودي التخاذل والتراجع!

نزلتُ من على جوادي وقبضتُ على سيفي بيدٍ وبالسوط باليد الأخرى أسوق به الجنود وأحثهم على الاقتحام حتى عادوا للتقدم

وتكالبوا على ابن الزبير وأصابوه في رأسه بحجرٍ! فتراخى ساعده وسقط سيفه من يده فشد عليه الرجال وقطعوا رأسه وأتوا به لي.

سجدتُ لله شكرًا حين سقط هذا الخارج ونصرني الله عليه وذهبت له في جوف الحرم ووقفت على جثمانه، وتبعني طارق بن عمرو الذي ما إن رآه حتى مدحه!

- ما ولدت الناس أذكر من هذا.

- أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟!

- نعم.. هو أعذر لنا ولولا هذا لما كان لنا عذرٌ إنا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جندٍ ولا حصنٍ ولا منعةٍ فينتصف منا بل يتفضل علينا.

***

أمرتُ بتنظيف الحرم من الدم والحجارة وأن يعود طاهرًا كما كان، وأمرتُ برأس ابن الزبير وأصحابه أن ترسل إلى الخليفة في دمشق ليعلم بلاء رجاله؛ كما أمرتُ بجثة ابن الزبير أن تُصلب على الثنية اليمنى بالحجون لتكون عبرةً لمن يعتبر أو لا يعتبر، فسيفُنا بتار على كل خارجٍ.

قبيل الغروب وقفت أمام جثة هذا الخارج أتأملها حتى رأيت عجوزًا تستند على صبية تسير تجاهي، ما قربت مني حتى علمت

أنهـا أمـه، أشـارت لهـا الصبيـة علـيَّ كأنهـا تصـف لهـا مـكان وقوفـي وأشـارت لهـا تجـاه ابنهـا المصلـوب:

- قاتلك الله، على ماذا صلبته؟!

كانـت هـذه جملتهـا التـي بخَّتهـا فـي وجهـي بـكل صبـرٍ وثبـاتٍ، فهـذه ليسـت كلمـات أم ثكلـى!

- استبقت أنا وهو إلى هذه الخشبة فكانت له.

أتظـن هـذه الهرشـفة أن ابنهـا إن ظفـر بـي كان سيغسـلني بالمـاء والثلـج والبـرد ويُصلـي علـيَّ فـي جـوف الكعبـة؟! واللـه لـو تبدلـت الأحـوالُ لصنـع بـي مثلمـا صنعـت!

- ائـذن لـي فـي تكفينـه ودفنـه، فإن لـم تكـن تعـرف قـدره فأهـل مكـة كلهـم يعرفـون قـدره، ولا يصح أن يبقـى مصلوبًا هكـذا كالشاة.

- لا.

رفضـتُ طلبهـا ورجاءهـا لـي أن تكرمـه وتدفنـه، فمثلـه لا يسـتحق الدفـن وليبقَ هكـذا حتـى يـرى كل مـن مرَّ بـه الـدود وهـو ينخـر جسـده وليشـتم كل مـن جـاور الحجـون رائحـة عفنـه.

فـي اليـوم الثالـث مـن صلبـه- الجمعـة الموافـق عشـرين مـن جمـادى الأولـى سـنة 73 هــ- بـدأت جيفتـه تنتـن لكـن لا تصـدر منهـا رائحـة نتـن

الجيف المعهود؛ بل رائحة مسك! وحين سألت أخبرني أحد عيوني الذين كنتُ دسستهم في مجلس ابن الزبير أنه في أيامه الأخيرة ولمَّا اشتد عليه الحصار وعلم أن القتال قادمٌ لا محالة وأمله في الانتصار علينا محال كان يُكثر من استعمال الطيب والصبر والمِسك! أكان يدري أني سأصلبه؟! ألم يتوقع تكريمي له وستر جثته والأمر بدفنه؟! والله لا أخذلك فيَّ يا ابن الزبير.

أمرتُ الرجال فأحضروا كلبًا وقتلوه وصلبوه جواره على ذات الخشبة المصلوب عليها حتى تختلط رائحة نتن الكلب على رائحة مسك جيفة ابن الزبير حتى لا يتناقل الناس هذا الأمر ويعظم أمره في نفوسهم.

وقع ما كنت أخشاه وظل الناس يتباكون على ابن الزبير بعدما رأوا نتن جيفته واشتموا مسك ريحته وعظم أمره في نفوسهم، فصعدت المنبر وخطبت فيهم أن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله، ولو كان شيء مانعًا للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة؛ لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم من حرمة الكعبة.

سكن الناس اقتناعًا بحديثي أو خوفًا من سيفي، لا يهمني لمَ سكنوا وسكتوا، الأهم أنهم سكنوا وسكتوا ولم يعودوا يذكرون ابن

الزبير بخير حتى جثته التى ظهرت عظامها والدود ينخر فيها ويتساقط منها والكلب إلى جوارها لم تعد تؤثر في نفوسهم ولم يجدوا في أنفسهم حرجًا من المرور بالقرب منها دون الالتفات لها ولا يشغلهم سوى سد أنوفهم حتى لا تصلهم رائحة النتن!

بعدما لم تعد لجثته فائدة عندي وقد حققت غرضي منها أمرت بإنزالها وإلقائها في مقابر اليهود، وبعثت إلى أمه لتأتيني فأبت كما توقعتُ فأرسلت لها محذرًا إن لم تأتني سأرسل لها من يسحبها من ضفائرها إن كانت لها ضفائر حتى يأتي بها إليَّ، فلما أبت القدوم عليَّ مجددًا، ذهبتُ إليها فوجدتها أكثر ثباتًا مما رأيتها عليه أول مرة:

- تقتل ابني وتدخل بيتي؟! أجئت تعزيني؟!

- كيف رأيتني صنعت بابنك؟

- رأيتك أفسدت على ابني دنياه وأفسد عليك آخرتك.

- ابنك من أفسد دنياه على نفسه، ولا أرجو إلا آخرتي التي عمرتها بطاعتي.

- إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا، فأما الكذاب فلا أظنه إلا المختار بن عبيد الله الثقفي، وأما المُبير فلا شك أنه أنت يا حجاج.

- أنا المبير ؟! فلمَ نصر الله المُبير ؟! أنا الحق.. أرأيتِ كيف نصر الله الحق؟ إن ابنك ألحد في الحرم! فالمُبير أم المُلحد؟!

***

دخلتُ دار الإمارة لأول مرة منذ قدومي مكة وأخذتُ البيعة للخليفة عبد الملك بن مروان، ثم تسلمت الدواوين والمخازن فلم أجد في بيت المال سوى عشرة آلاف درهم! فسألتُ عن عروة بن الزبير فلم أجده! أصبحت لا ريبة لدي أنه أخذ ما في بيت المال وهرب فشددت في طلبه حتى أخبروني أنه فر إلى بلاط الخليفة فأرسلتُ في طلبه من الخليفة موضحًا اتهامي له بسرقة مال المسلمين.

***

كان ابن الزبير قد تلاعب ببنيان الكعبة مدعيًا حديثًا عن الرسول بذلك، فما أن صار الأمر لي حتى حدثت الخليفة في ذلك فأمرني بهدم ما زاده ابن الزبير وإعادة الكعبة على ما كانت عليه! فانتهزتُ الفرصة وعدلتها مثلما كنت أحلم وأنا صبي نتيجة الروايات التي كان أبي يقصها عليَّ وكسوتها بالديباج.

تلك كانت أول أعمالي الإصلاحية بمكة التي تبعتها بحفر بئر الياقوتة بمِنى لسد العجز العسير في مياه الشرب والري، كما شكا لي أهل مكة أن السيل يضرب وادي مكة فأمرتُ رجالي ببناء سدٍّ

في جبل المزدلفة وليجعلوا مفيضه في سدرة خالد حتى يخزنوا تلك المياه التي كانت تذهب هباءً وتضرب مساكن الرعية! ألم يكن ابن الزبير يدَّعي الخلافة عليهم؟! فلمَ لم يفكر هذا الخليفة في إصلاح شأن رعيته بدلاً من النعق الكاذب بالخلافة؟! فالحاكم الحق هو من يرعى شئون رعيته ويبحث عن مصالحهم، وليس من يرعى شئون كرسي الحكم ويبحث عن مصلحته.

وصلت أخبارُ إصلاحاتي بلاط الخليفة وكأنه كان ينتظر بلائي حتى يكافئني! والله لو علم عبد الملك أن لابن الزبير غيري ما أرسلني له! ولو علم أني ضعيفُ الولاية ما ولاني مكة وبعث لي بكتابه الجديد على المدينة!

تركتُ مكة مخلفًا عليها أحد ثقات رجالي وهو نافع بن علقمة الكناني وتوجهتُ تلقاء المدينة لأباشر أعمالي فيها، وبينما موكبي على مشارف المدينة إذ لاقيت شيخًا خارجًا منها على بعيرٍ نافرٍ كأنه يفر منها! فأمرتُ حرسي أن يقتادوه لي وليخبروه أني تاجرٌ قادمٌ إلى المدينة وأريد أن أستخبر أمر الناس؛ ووضعت لثامي على وجهي حتى لا يعرفني فربما رآني قبل ذلك؛ ففعلوا وأتوا به إليَّ:

- كيف حال أهل المدينة يا شيخنا؟

- بشرِّ حالٍ! قُتل ابن حواري رسول الله ﷺ في مكة وأرسلوا رأسه إلينا في المدينة ثم أرسلوه إلى الشام، أبمثله يُمثل بجثته؟!

- أتدري مَن قتله؟

- الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله وتهلكته، إنه قليل المراقبة لله!

- أيها الشيخ، أتعرف هذا اللعين إذا رأيته؟

- نعم، فلا عرفه الله خيرًا ولا وقاه ضرًّا.

رفعتُ لثامي عن وجهي وأخبرته أني أنا ذلك الفاجرُ اللعينُ الذي يتحدث عنه، وسيرى مني ما يكره، فإذا به يرتعد وينتفض ويتشنج حتى تملكه الجنودُ وأسكنوا جسده، فادَّعى أنه مجنون ويُصرع كل يوم خمس مرات، وهذا الذي قال إنما من شطط جنونه! فخليتُ سبيله!

حين قدمتُ المدينة لقيني أهلها بالترحاب الذي لا أظنه ترحاب مُحبين، ولكنه ترحاب مرهوبين مرعوبين! فأردت أن أوطن قلوبهم لي، لكن لم تكن خزائني ملآنة فالأحداث والأعمال التي مررتُ بها قد حفت بيت المال، لكني نثرتُ عليهم ما جادت به الخزانة على أية حالٍ حتى نثرت عشرة آلاف درهم لكنها لم تكفِ بالطبع فوقفت فيهم خطيبًا معتذرًا.

- أتيناكم وقد غاض الماء لكثرة النوازل فاعذرونا!

فرأيتُ في وجوههم الاستنكار، حتى قال منهم قائلٌ:

- لا عذر الله من يعذر، أنت أمير المصريْن وابن عظيم القريتيْن.

آه يا أهل المدينة! أنا الآن ابن عظيم القريتيْن؟! ألم تنعتوني بعبد ثقيف ودابغ الجلد وبائع الزبيب؟! والله لا تغرني وجوهكم الضاحكة لي وقلوبكم الغادرة بي أبدًا، لكني سأجاريكم في مكركم هذا!

ذهبتُ إلى كبار تجار المدينة واقترضت منهم أموالاً أرد بها تلك الأيدي الممدودة تجاهي وأجَّلت التجار حتى يأتي عطاء أمير المؤمنين، فأقرضوني ما شئتُ وغمرتُ الناس بعطائي حتى كفيتهم رغم بُغضي لهم وكرهي لماضيهم، أليس هؤلاء هم من تخلوا عن الخليفة المظلوم عثمان بن عفان؟! أليس هؤلاء هم من قتلوه؟! أليس هؤلاء الذين عصوا معاوية وحرموه من نقل المنبر؟! أليس هؤلاء المتشدقون بما لديهم من مقدسات؟! ما تحدث أحدهم إلا يحدثك: هذا منبر رسول الله؛ هذا قبر رسول الله، وكأنهم اختصوا بالنبوة دون غيرهم!

أول ما دخلت المدينة ذهبت إلى مسجد رسول الله ﷺ فوجدتُ فيه ذلك الزيَّات الذي صحح لي صلاتي منذ خمسة وعشرين عامًا، لكنه الآن قد تفرَّغ للتحديث وأصبح له مجلس في المسجد يقصده كل من طلبه.

ذهبتُ إليه، وما أن رآني طلابه حتى فروا من حوله وتركوه وحده:

- أتذكر ذلك الغلام الذي وددتَ أن تضربه ليُصحح صلاته؟

تفرَّس في وجهي كأنه يتذكرني ويربط بين ما كنت عليه في الماضي وما أنا عليه الآن من جاهٍ وسلطانٍ:

- نعم أذكرك.

كانت هذه إجابته وشفعها بضرب يده على صدره تأكيدًا لرأيه:

- جزاك الله من معلمٍ ومؤدبٍ خيرًا، ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك.

ثم تركته وانصرفتُ إلى دار الإمارة؛ وبعد أن دخلت إلى دار الإمارة وفد عليَّ وجهاء المدينة وتجارها وعلماؤها، فوجدتُ فيهم جابر بن عبد الله، وسهل بن سعد! يعدون أنفسهم من العلماء وهم من باعوا الخليفة وتخلوا عنه!

استقبلتُ التجار والمُلاك واستبقيت هؤلاء النفر حتى أتفرغ لهم، فلهم عندي حديثٌ يطول، وما انفض الوفود من مجلسي حتى أذنت لهم فدخلوا تباعًا.. كان أول من دخل عليَّ منهم سهل بن سعد الساعدي فحاورته في تركه أمير المؤمنين عثمان والتخلي عن نصرته فكذب عليَّ مدعيًا نصرته، وطال بيننا الجدال حتى أمرتُ بأن يُختم في عنقه بختم «الكذاب» ليكون عبرة لغيره.

ثم تبعه في الدخول عليَّ جابر بن عبد الله، هذا المتأبه الذي رفض أن يمد يده ليسلم عليَّ فأمرتُ بأن يختم على يده بخاتم الرصاص ليظل يتذكرني كلما رأي الخاتم على يده وليعلم كل من شاهده جزاء التأبه على الحجاج.

كان هذا أول ما رآه مني أهلُ المدينة من الشدة والحزم، فهؤلاء الذين يرون أنفسهم علماء وأولي أمر، سيكونون بعد ما فعلتُ بهم آية لكل من سوَّلت له نفسه أن يشرئب بعنقه تجاهي، لكن ما فعلت سينالُ من سمعتي على أية حالٍ، فالحديث يتكاثر والكلمة تُصبح قصيدة في تلك البلاد، ولا بد أن ما فعلت بهم سيصل إلى أمير المؤمنين ولست في حاجة إلى خلافه في هذا الوقت! فرأيتُ أن أعمل عملاً يغب ما قدمت ففكرتُ في أحوال الرعية واحتياجاتهم فرأيت أن بني سلمة ليس لديهم مسجدٌ يصلون فيه وأنهم يقضون صلاة الجمعة تحت لهيب شمس المدينة الحارقة، فبنيتُ لهم مسجدًا وسميته باسمي ليرتبط بالأذهان خيرٌ فعلته في هذه البلاد، وليجد حاشيتي مكرمة يذكرونها لي وصنيع خير يوارون به مساوئي.

قضيتُ في المدينة ثلاثة أشهر ضبطت فيها الأمور وشددت على عمالي بالحزم ثم خرجت منها إلى مكة معتمرًا، وبعد عمرتي التي أرجو من الله أن تغسل عني ما قدمت، جاءني كتابُ الخليفة بأن أحج بالناس هذا العام وأن أقتدي بابن عمر في المناسك ففعلتُ مثلما أُمرت وكنتُ لا أتخذ أمرًا إلا شرتُ فيه ابن عمر حتى جاءني خبرٌ أنه مرض ولا يُفارق فراشه!

ذهبتُ إليه لأعوده فوجدته مستلقيًا على فراشه وعلى قدمه ضمادة تضمد جرحًا بين إصبعيه:

- يا أبا عبد الرحمن، لو علمت من أصابك لضربت عنقه.

- أنت من فعلت يا حجاج، فهل ستضرب عنق نفسك؟!

- غفر الله لك! لِمَ تقول هذا؟!

- حملت السلاح في يوم لا يُحمل فيه السلاح، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم، حتى أصابني رمحٌ مسمومٌ من رماحك.

كأن المصائب تنقصني حتى يتهمني ابن عمر بالتربص به وتعمد إصابته، ولا بد أن حديثه هذا قد تسرَّب إلى الناس، وإذا مات ابن عمر سأكون أنا القاتل رغم أن ما بيني وبين قتله بُعد المشرقيْن، فما لي وابن عمر حتى أقتله؟! فصحيح أنه اعتزلني أيام حربي لابن الزبير ولم يكن يُسلم عليَّ ولا يُصلي خلفي! لكنه لم يقف في جانب عدوي وهذا يكفيني! فلمَ أسعَ في قتله؟!

***

لم أكد أفرغ من إصابةِ ابن عمر والمُصيبة التي ستلحق بي جراءها حتى أخبرتني عيوني أن خالد بن يزيد، ذلك المخبول المُهتم بالعلم المُنصرف عن الخلافة والحكم، والذي جاء للحج هذا العام وحين لقيني كأنه لم يعرفني وكأني لم أفنِ شهورًا من عمري

في حراسة دار الحجارة التي يشغلها بهرائه في الكيمياء والخيمياء يعيش قصة حب في رملة بنت الزبير ويُراسل في خطبتها!

هل أفني عمري في محاربة الخارجين على الخلافة وأعرض حياتي للأخطار في الصحاري والجبال وهذا المخبول مُنعم في عيشه بدمشق وحين أثبت لهم ملكهم ويستطيع أن يأتي إلى هنا بعدما لم تكن قدمه تجرؤ على وطء أرض مكة ليعيش قصة حب؟! وفي من! في رملة!

حاولتُ بقدر جهدي أن أمنع تلك الزيجة، ولكن لا أستطيع أن أصرح بما في نفسي فاستدعيت حاجبي:

- أتعرفُ أين يُقيم خالد بن يزيد؟

- بعدما رجع وفدُ حجيج الشام تخلف هو عنهم واستأجر بيتًا في مُحيط الحرم بالقرب من منزل رملة بنت الزبير.

- هل بلغك ما بلغني يا ابن موهب؟!

- مكة كلها بلغها الخبرُ أيها الأمير.

- اذهب إلى خالد وانقل له رسالتي.

- وما هي أيها الأمير؟

من الحجاج بن يوسف إلى خالد بن يزيد:

«بلغني، كما بلغ كل مَن لديه أذنان في مكة أنك شغفت حبًّا برملة بنت الزبير! وما كنتُ أراك تخطب إلى آل الزبير حتى تشاورني! وكيف خطبت إلى قوم ليسوا لك بأكفاء؟! وكذلك قال جدك معاوية، وهم الذين قارعوا أباك على الخلافة ورموه بكل قبيحةٍ وشهدوا عليه وعلى جدك بالضلالة! فعد إلى رشدك وانصرف عما أنت مُقبل عليه وعُد كريمًا إلى الشام.

والسلام ».

في ذات اليوم عاد لي ابنُ موهب مكفهر الوجه من عند خالد! وكأنه لاقى ما لا يُحب..

- ما الأمر؟! كيف قابلك ذلك المخبولُ؟

- بعدما تلوتُ عليه رسالتك، تقبلها بالصمت ونظر لي مليًّا، ثم قال لي: لولا أنك رسولٌ، والرسول لا يُعاقب لقطعتك إربًا إربًا، ثم طرحتك على باب صاحبك.

- أما حملك بشيء لي؟

- أجل أيها الأمير، أخبرني أن أقول لك: ما كنتُ أرى أن الأمور بلغت بك إلى أن أشاورك في خطبة النساء!

كان هـذا رده علـيَّ الـذي جعلنـي أنصـرفُ عنـه ولا أقربـه حتـى أخباره أمرت ألا يصلني منها شيء فليس في عقلي مندوحة لأشغلها بهـذا المخبـول الـذي انصرف عـن الكيميـاء وأقبـل علـى النسـاء! لكنـه ذكرنـي بنفسـي وحالـي التـي آلـت إليـه، فأنـا الآنَ بـلا زوجـةٍ ولا سـكنٍ وقـد شـغلتني الحـربُ عـن نفسـي!

رد خالـد علـيَّ ألهـب فـؤادي وأغـاره عليـه وعلـى بنـي أميـة كلهـم، فأنـا أحـارب أعداءهـم ويلتصـق عـارُ الحـرب باسـمي وهـم يصاهرونهـم بعـد ذلـك، فوالله لأصاهـرن أعداءكم يا بنـي أميـة لتعرفـوا كيـف يكـون الحجـاج معكـم وكيـف يكـون عليكـم! لكـن أنَّـى لـي بامـرأةٍ مـن بيـت الزبيـر وحتـى لـو وجدتهـا فأنـا لهـا كارهٌ!

حدثـتُ حاجبي بما في صدري فأخبرني أن العـداوة بيـن آل الزبيـر وبنـي أميـة قـد اندملـت بمـوت عبـد الله بـن الزبيـر ومصاهـرة خالـد لهـم، لكن العـداوة باقيـةٌ مع آل أبـي طالـب.

- وهل يرضون بي؟

- عبـد الله بـن جعفـر أيهـا الأميـر يمـر بضائقـةٍ، وقـد تركـه بنـو أميـة ونسـوا أمـره، فلـو عزمـت عليـه بعطائـك وخطبـت إحـدى بناتـه مـا ردك قـط.

- اذهب إليه يا ابن موهب وأكرم عطائي له واخطب لي إحدى بناته.

سار ابن موهب إلى المدينة حيث عبد الله بن جعفر، محملاً بأموالٍ وهدايا وكتابٍ مني بمصاهرته، وعاد إلى بعد أسبوع بالموافقة وأنه أعطاني ابنته وتُدعى أم كلثوم؛ لكنه يستمهلني بعض الوقت حتى يسد ما عليه من ديونٍ ويُجهزها بجهاز يليق أن ترحل به إليَّ فأذنت له، فلستُ متعجلاً على مضاجعة النساء لكني أكثر عجلة على مقارعة ابن يزيد.

أمرتُ رجالي بإشهار الخبر في أنحاء مكة ليصل إلى ابن يزيد وليعلم ما أحل به، وما وصله الخبر حتى أخبرني رجالي أنه رحل على وجه السرعة إلى دمشق!

رحلتُ إلى المدينة وشرعتُ في تجهيز مسكن العروس وعمدتُ إلى جعله غاية في الأناقة، وما أن انتهيتُ منه حتى استعجلتُ أباها في قدومها فأرسلها لي وتزامن مع قدومها إليَّ قدوم البريد من الشام برسالتين من الخليفة الأولى يأمرني بطلاق أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر! وعلمتُ من البريد أن من سعى في التفريق بيني وبينها هو ذلك المخبولُ خالد بن يزيد!

ألهذا الحد وصل بنا التناطح يا ابن يزيد؟! لكني لم أجد في نفسي سوى السمع والطاعة وطلقتها؛ أما الرسالة الثانية فكانت عزلي عن ولاية الحجاز!

***

مكيدة خالد لي ألهبت عقلي، فلستُ أنا المُتيم بالنساء ولكني أردت أن أذل بهذه الزيجة بني أمية وليذوقوا مرارة أن يصاهر وليك عدوك، كما أردتُ بها إذلال بني أبي طالب وليعلموا أن ألد أعدائهم أصبح صهرهم!

أعملتُ عقلي لأرد لخالد الصاع صاعيْن، فإذا كان سعى بي إلى الخليفة وتكبد مشقة السفر من مكة إلى دمشق ليفرق بيني وبين أم كلثوم فليُرني كيف سيُفرق بيني وبين أم الجلاس الأموية؟!

***

عبد الملك

-18-

رحل الحجاجُ إلى العراق بعدما وصله خطابي، وما هي إلا أسابيع حتى وصلتني أخبار ضبطه للعراق وما فعل بهم، وكيف أطلق النفير العام من أجل دعم المُهلب بن أبي صُفرة في حربه على الخوارج الذين كانت قد قويت شوكتهم ويحتاجون لدهاء رجلٍ مثل المهلب وبطش رجلٍ مثل الحجاج.

استنفر الحجاجُ أهلَ العراق من أجل دعم المُهلب في حربه ضد الخوارج الأزارقة، لكن رغم توافر الجنود تحت يديْه لم يكن المُهلب بدهائه المعهود ينتهج سياسة النَّفس الطويل في قتالهم، فمما بعثه الحجاج لي من أخبار القتال أنه عندما استحث المُهلب في القتال ومنازلة الخوارج بعث له رسالة مضمونها: «إني منتظرٌ منهم ثلاث خصال: موت صاحبهم قطري بن الفُجاءة، أو فرقة وتشتيتًا، أو جوعًا قاتلاً»، وكان من دهائه أنه عمل على إحداثِ الفرقة بينهم والتسريع بها

فقد عرف بين الخوارج رجلاً يصنع السهام المسمومة فأرسل المُهلب أحد رجاله الذي تسلل لمعسكرهم ليلاً وألقى كتابًا موجهًا من المهلب إلى ذلك الصانع، كان مما كُتب فيه: «إن نصالك وصلت وقد أنفذتُ إليك ألف درهم»، فلما أصبح العساكر وعثروا على ذلك الخطاب عرضوه على قائدهم قطري بن الفجاءة الذي بحث عن ذلك الصانع واستجوبه فأنكر فقتله، فخالفه في ذلك أحدُ كبار قادته ونشب بينهم خلافٌ وفُرقة! ولم يكتفِ المُهلب بذلك بل جنَّد رجلاً نصرانيًّا وأمره أن يسجد لقطري بن الفجاءة أمام الخوارج، فلما رأوا الخوارج هذا الفعل أنكروه فقتلوا هذا النصراني واتهموا قطري بتأليه نفسه فاعترض قطري ودارت بينهم مشادةٌ سرعان من نشب على إثرها قتال!

حينها راسله الحجاج في الإسراع بقتالهم وهم مشغولون بقتال بعضهم بعضًا، فكان رأي المُهلب أن يتريث ويدعهم يُنهكون قوى بعض، وأرسل للحجاج: «إني لستُ أرى أن أقاتلهم ما دام يقتل بعضهم بعضًا، فإن أتموا على ذلك، فهو الذي تريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رمق بعضهم بعضًا، فأناهضهم حينئذ، وهم أهون ما كانوا وأضعف شوكة إن شاء الله تعالى».

فكانت تلك السياسة أنسب سياسة لقتالهم، فظفر بهم المُهلب وهزمهم هزيمةً منكرةً حتى قضى على عقبهم، فرأيتُ أن أكافئه على حُسن بلائه فوليته أمر خراسان.

***

نويتُ الحج لبيت الله الحرام، فطوال نزاع ابن الزبير وسيطرته على مكة لم يكن لنا أن نحج لبيت الله! فنادى الولاة في الأمصار أن الخليفة هو القائم على الحج هذا العام! ولعمري فتلك عين الحماقة! لم تجف سيوفنا من دماء من عادانا وما زال الناس حديثي عهد ببيعتنا ويُذاع خبر ذهابي للحج وكأن رجالي يُخبرون أن من كانت له نية في قتلي فليشحذ سيفه ويغمسه في السم وينتظرني في النسك!

استعد وفدُ حجيج الشام وخرجتُ على رأسه، ولشيء في نفسي أمرتُ الركب بأن يسير في اتجاه القبور، لأزورَ أبي وعمي معاوية فلعل اللقاء بهم قريب!

ارتأى قائدُ الحرس أن أذهب في خاصة حرسي ويبقى الوفد على رأس طريق الخروج نحو الحجاز فنزلت على رأيه، وسرنا حتى وصلتُ قبر أبي فسلمتُ عليه ودعوتُ له فعسى أن أكون ممن وصل عمل أبيه، ثم عرجتُ على قبر معاوية فوجدتني أهابه كما لو كان حيًّا! رحمك الله يا عمي مهابٌ حيًّا وميتًا، تاللّه إن كنت إلا كما علمت، يُنْطقك العِلم، ويُسْكِنك الحِلم.

وما الدَّهر والأيام إلاَّ كما ترى رَزِيَّة مالٍ أو فِراقُ حَبِيب

ثم عدتُ إلى الوفد وانطلقنا نحو الحجاز، وكانت فرصة الرحيل تلك هي الخلوة التي أفتقدها منذ أن توليت الأمر وشغلتني الدنيا بأمور الخلافة، فلمَّا فكرتُ في أمري لم أجدني قد أصبتُ الخليفة العادل ولا

العبد الزاهد! وما أضافت لي الخلافة إلا همًّا وغمًّا وتكالبًا على الدنيا وسفكًا في دماء المخالفين! حتى القرآن الذي كنتُ قد جمعته أصبح الآن يفر مني وكأنه لي كارهٌ! فالقرآن عزيزٌ يهجر من يهجره وينسى من ينساه، وإني والله قد هجرتُ صحبته حتى جفاني! أين أنا من عبد الملك الذي صُنف رابع أربعة من فقهاء المدينة؟! أين أنا حين كنتُ حمامة المسجد؟! أين مصحفي الذي تمزق من تكرار ختمتي له؟! شغلتنا الدنيا والمُلك والحُكم وجمعنا النساء وشغفنا بالأولاد وشربنا الطلاء وسفكنا الدماء! إلى أين تمضي بنفسك يا أبا ذباب؟!

ما كدنا نصلُ على مشارفِ المدينة حتى وصلتني رسالةٌ من الحجاج يُخبرني بأن عيونه رصدت تحرك أحد الخوارج قادمًا للحج عازمًا النية على اغتيالي! فإن شئت عدت لدمشق دون حج، وإن شئت لزمت الحيطة والحذر وأكثرت من مواكب التمويه وأقللت من التفرد والخلوة، وأن أخالف بين أبواب الحرم في الدخول والخروج، واذا أممت الناس فأناقل بين موضع الإمام في كل صلاة، وليأكل الطهاة من طعامي أمامي قبل أن يدخل فمي، وألا أخرج فردًا ليلاً أو نهارًا.. ما كل هذه التعليمات يا حجاج؟!

الأمرُ الآن تعلق بهيبة الخلافة، فكيف بعدما يُنادى في الناس أن الخليفة قائمٌ على الحج هذا العام يتراجع الخليفة بعدما أضحت المدينة على مرمى حجر! إذا كان الحجاج أصر على حصار ابن الزبير وقصف الكعبة في موسم الحج وعلى رؤوس الأشهاد حتى يبرهن للناس

على قوة الخلافة وحزمها، فكيف لي الآن أن أتراجع؟! إذا كان الخليفة يعجز عن تأمين نفسه فكيف له أن يصلح لتأمين الرعية؟!

أخذت حذري كما أشار عليَّ الحجاج وقادة حرسي، ومضيتُ حتى دخلت المدينة، فدخلت مسجدها الذي فارقته بعدما كنت فيه نزيلاً، وفيه لقيت سعيد بن المسيب فذهبت إليه:

- بلغني أنك شربت الطلاء من بعدي يا ابن مروان!

- ليته الطلاء فقط، والدماء أيضًا!

- إن لم تنهك نفسك فما لك من ناهٍ!

- نفسي! والله لقد صرتُ لا أفرح بالحسنة أعملها، ولا أحزن على السيئة أرتكبها!

- الآن تكامل موت قلبك.

وما علم أهلُ المدينة بتواجدي حتى احتشدوا حولي، ولا بد لهم من خطبةٍ! وقد جاءت على غير موعدها.. وكلمات ابن المسيب تتردد في أذني.

ارتقيتُ المنبر الذي ارتقاه من هم خيرٌ مني، وأردت الحديث فحُصرت! كأن لساني قد عُقد وحنجرتي نُزعت من عنقي، والعيون متربصة بي يروني أفتح فمي ولا يخرج لي صوت، فلما طال صمتي رغم وقوفي علت الهمهماتُ وتهامس الناس: الخليفة حُصر، الخليفة حُصر؛ حتى فك الله لساني فنطقت:

«إن اللسان بضعة من الإنسان، وإنا نسكت حصرًا ولا ننطق هذرًا، ونحن أمراء الكلام، فينا رسخت عروقه، وعلينا تدلت أغصانه، وبعد مقامنا هذا مقام، وبعد عينا هذا مقال، وبعد يومنا هذا أيام، يُعرف فيها فصل الخطاب وموضع الصواب».

وبعدما فكَّ الله لساني، لم أشأ أن أهبط المنبر دون خطبةٍ، فأكملت حديثي:

«أما بعد؛ فإن قبلي كان الخلفاء يأكلون من المال ويوكلون، وإني والله لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي، ولستُ بالخيفة المُستضعف، ولا الخليفة المُداهن، ولا الخليفة المأفون؛ أيها الناس، إنا نحتمل منكم كل الغرمة ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر ، هذا عمرو بن سعيد حقه حقه، قرابته وابنه، قال برأسه العرش قلنا بسيفنا البطش، وإن الجامعة التي خلعها من عنقه عندي، وقد أعطيتُ الله عهدًا أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء، فليبلغ الشاهد الغائب».

ثم مضيتُ إلى مكة وأتممتُ المناسك وسط حراسةٍ مشددةٍ، متبعًا ما نصحني به الحجاج حتى انقضى موسم الحج بسلام وعدتُ إلى دمشق بعدما أرسلتُ للحجاج بقائمة مَن تشاركوا في محاولة اغتيالي أطالبه بجمعهم.

***

شرع الحجاجُ في ضبط وإحضار من خطط لاغتيالي فخرج عليه الخوارج مجددًا بقيادة الرأس المُدبر لاغتيالي شبيب بن يزيد الشيباني، وأهل العراق كعادتهم لا يملون الخروج فما خرج شبيب حتى

تبعه الكثيرُ حتى خرج معه الناسُ وعلى رأسهم زوجته غزالة، وبين ليلةٍ وضحاها أصبح له أتباعٌ فجيَّش الفرقَ لنزالنا فدارت بينه وبين الحجاج معارك كثيرة، كان أبرز ما وصلني من أخبارها أن غزالة زوجة شبيب كانت على رأس فرقةٍ تُحارب الحجاج فانتصرت عليه وفرَّ الحجاجُ من أمامها رغم شدة بطشه ورباطة جأشه، وسرعان ما قرض شعراؤهم شعرًا في الحجاج تناقلته ألسنُ كل كارهي الحجاج الذين انتظروا فرصةً كهذه ليذلوه بها وأضحى الصغيرُ قبل الكبير يترنم بقول عمران بن حطان:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة   فتخاء تنفرُ من صفير الصافر

هلا كررتَ على غزالة في الوغى   بل كان قلبك بين جناحيْ طائر

قرعت غزالة قلبه بفوارس   تركت مناظره كأمس الغابر

فلما رأيتُ أن الكفة تميلُ في اتجاه الخوارج والحجاج مغلوب على أمره، لا سيما أن غزالة الشيبانية بعدما ألحقت به العار من فراره أمامها كانت قد نذرت أن تُصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران، ففعلت ووفت نذرها! حينها أصدرتُ النفير العام وسيَّرت خيرة جند الشام إلى العراق لمناصرة الحجاج حتى قضى الله أمرًا كان مفعولا وغرق شبيب في النهر وتفرقت جماعته من بعده.

***

حولتُ بصري من العراق الذي لا يكف عن الثورات، ونظرتُ نحو الغرب حيث مصر وإفريقية، وكان عليها أخي وولي عهدي عبد العزيز منذ أن ولاه أبي بعد فتحها وأقررته عليها فقام بها وكفاني أمرها وأخذ يتوسع في فتوحاته نحو المغرب حتى بعث رجاله حتى وصلوا قرطاجة.

بعدما استقر الأمر لأخي عبد العزيز في مصر وإفريقية، وتخطينا مرحلة استعادة رقعة الخلافة إلى مرحلة الفتوحات الإسلامية والتوسع الجغرافي لرقعة الإسلام، وبسطنا سيطرتنا التامة على شمال إفريقية من مصر حتى بلاد المغرب؛ كان لا بد من تطوير أوضاع الرعية بها فالإسلام الحق ليس شعاراتٍ جوفاء وتدينًا مُطلقًا، وأنا بصفتي خليفة للمسلمين أطمحُ في رعيةٍ من المسلمين المُصلحين وليس رعية من العباد الزهاد.

أمرتُ أخي عبد العزيز بإنشاء دار صناعة في قرطاجة تتخصص في صناعة السفن لا سيما الحربية منها، فأمر أخي قائده على إفريقية حسَّان بن النعمان الغساني بأن يختط مدينة تصلح لذلك، فاختار منطقةً على أنقاض قريةٍ قديمةٍ عُرفت باسم ترشيش، وأقام عليها المدينة الجديدة وسمَّاها «تونس» اشتقاقًا من الونس الذي كانت تأخذه سرايا المسلمين المرابطة في تلك المنطقة من صومعة راهبٍ كان يقطنها، فكانت الجنود تؤنس بصوته ليلاً.

بُنيت المدينة على أحدث أسس التشييد وعلى أفضل ما يكون، فقد أنشأ مدينةً كاملةً متخصصةً في هذا الغرض، وشق لها قناةً بطول

عشرة أميال لتربطها بالبحر، ونقل لها من دار الصناعة بمصر ألف عامل ليقوموا عليها وعلى تدريب أبناء الولاية على حرفة صناعة السفن، ولما كانت المواد الخام والأخشاب تستورد من إفريقية الداخلية أشرت على أخي بأن يجعل القائمين على هذا الأمر من البربر وهم أبناء تلك المناطق وأدرى الناس بالطرق والدروب، خشية أن يوكل الأمر لمن ليس له خبرة بفيافي إفريقية فيغرق في التيه.

ومن المغرب إلى الشمال حيث كانت جنودنا بقيادة ابني مسلمة، وأخي محمد على حدود القسطنطينية يحاولون فتحها أو بالأحرى حماية حدود دولة الخلافة من تقدم الروم، لا سيما أن الأوضاع بيننا مشتعلة منذ أن علموا بأمر الدراهم العربية التي أمرتُ بسكها، والدواوين التي نويتُ تعريبها وراسلت الحجاج في ذلك، فكيف لي بخلافةٍ إسلاميةٍ عربيةٍ وعُملتها رومية وفارسية، ودواوينها ليست عربية والقائمين عليها غير عربٍ وكأنها خلافة بلا هوية!

ومن الشمال إلى الشرق حيث الحجاج قد أخرج جيش الطواويس لقتال رتبيل بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث، الذي ما لبث أن خرج ومن معه على الحجاج ونادى بخلعه!

جيشٌ قوامه أربعون ألف مقاتل، يولون عليهم ابن الأشعث وينادون بخلع الحجاج! سهمًا قد نزعته على عدوك فأصاب صدرك! بالطبع لن أضحي بالحجاج، وهل في رجالي مثل الحجاج في ولائه وطاعته، وما مهده لي من بلدانٍ وما أخرس لي من رعية؟!

أرسلت له الكتيبة تلو الكتيبة، حتى توالت الأخبار بتقدم ابن الأشعث وتقهقر الحجاج، فأشار عليَّ أهل مشورتي أن أضحي بالحجاج وأعزله وأوليه إمارة أخرى، فخلع والٍ أهون من أربعين ألف سيف مشهرة عليَّ.

قمتُ في الناس خطيبًا أستحثهم للخروج للقتال:

«إن أهل العراق طال عليهم عمري فاستعجلوا قدري، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا سخطك».

ثم جهزتُ جيشًا بقيادة ابني عبد الله وأخي محمد، وأمرتهم أن يعرضوا على أهل العراق عزل الحجاج عنهم، وأن يجري عليهم العطاء، وأن أولي ابن الأشعث أي ولاية شاء من أرض العراق؛ فإن وافقوا عزلت الحجاج ووليت مكانه محمد بن مروان، وإن أبوا فالحجاج القائد وأمير الجميع والأمر له.

راسلني الحجاجُ معترضًا على عزله، ليس لنفسه وإنما حرصًا على الخلافة، فهو يرى إن وافقت أهل العراق على عزله سيطالبون بعدها بخلعي مثلما فعلوها من قبل مع الخليفة المظلوم! لكنني آثرت السلامة والتضحية بوالٍ من أجل خمد تلك الثورة، لكن سرعان ما تحقق رأي الحجاج ورفض أهلُ العراق ما عرضته عليهم ونادوا بخلعي! فوليت عليهم الحجاج ودعمته بكل ما أتيح لي من جيشٍ قد وصل من مصر ومن الحجاز ومن جبهة الروم حتى نصرنا الله عليهم بعد معارك طال أمدها وأهلكت الرجال والفرسان لكنها حفظت للخلافة هيبتها.

بعدها أخذ الحجاج في حملة تطهيرٍ لأهل العراق، دون رحمةٍ أو توانٍ، لكن ما أساءني هو ما فعله بأنس بن مالك خادم رسول الله، والختم الذي ختمه في عنقه، فراسلني أنس يشتكي لي الحجاج فراضيته وبعثت للحجاج أحذره أن يمسه بسوء فليت الرعية كلها مثل أنس وإن كان قد خرج علينا فأظنه قد خرج مُكرهًا فما لأنس والسياسة والحكم؟!

بعد عملية التطهير والقضاء على كوامن الخوارج أمرتُ الحجاج أن ينظر في أمور رعيته ويُصلح من حالهم، فالعراق أنهكته الثورات والحروب وبددت النزاعات خيراته وما كنا ننفقه للإصلاح أنفقناه للتجييش، فحان الوقتُ ليشرب سواد العراق الماء عوضًا عن الدم.

***

الحجّاج

-19-

عزلني أميرُ المؤمنين عن بلاد الحجاز بعدما ضبطت أمرها، وسكنت خارجيها جحورهم، وأعدتها طائعة لحظيرة الخلافة الأموية! ثم كتب لي بولاية ما عشت عمري أتمناه! كتب لي على بلاد العراق التي تعج بالثورات والخوارج لا سيما بعد موت أخيه بشر بن مروان الذي كان عاملاً له عليها.

أمرني بسرعة الخروج إليها، وترويض أهلها الآبقين، وإرسالهم إلى المُهلب بن أبي صفرة لحرب الخوارج فخرجتُ إليها من لحظتي ومعي اثنا عشر رجلاً من خاصة رجالي حتى وصلت قرب الكوفة قبيل صلاة الجمعة.

اغتسلتُ من بئر على الطريق الواصل بين المدينة والكوفة وكذلك فعل رجالي، ثم لبست ثيابي وتقلدت سيفي وتلثمت

بطرف عمامتي حتى لا يعرفني أحدٌ! ورحى ذاكرتي تدورُ بالخطبة البتراء التي ألقاها زياد بن سمية عليهم أول ما تولى أمرهم.

دخلتُ الكوفة فوجدتُ شوارعها خاليةً إلا من اليسير من الرجال، فقد كان أذن المؤذن الأول لصلاة الجمعة وحشر الناس إلى الصلاة، فتوجهت إلى دار الإمارة ووضعت رحالي بها واصطحبت الشرطة وذهبت إلى المسجد الكبير بالكوفة.

لم يكن خطيب المسجد قد ارتقى المنبر بعد، فدخلت المسجد قاصدًا المنبر مباشرةً حتى تعلقت الأنظار بي، وجلست على حجر المنبر حتى نظر إليَّ كل من بالمسجد ينتظرون حديثي.. لكني صمتُّ، فأحيانًا يكون الصمت أكثر لفتًا للانتباه! فلما طال صمتي رأيتُ بعض نفر منهم قد انتقى بعض حصوات من حصى المسجد أظنه يريد أن يحصبني كما هي عادتهم! ألا يذكرون ما صنعه ابن سمية بهم؟! ألم تكفهم ثلاثون كفًّا قُطعت ورُميت لكلاب العراق؟! ما بالهم لا يتعظون أبدًا!

قمتُ فيهم مقتديًا بابن سُمية فلم أحمد الله ولم أصلِّ على نبيه وأغلظت بحديثي إليهم حتى قلتُ لهم:

يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، والله إن كان أمركم ليهمني قبل أن آتي إليكم، ولقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بي، ولقد سقط مني البارحة سوطي الذي أؤدبكم به،

فاتخـذتُ هـذا مكانـه- وأشـرت إلـى سـيفي- واللـه لآخـذن صغيركـم بكبيركـم، وحركـم بعبدكـم، ثـم لأرصعنكـم رصـع الحـداد للحديـدة، والخبـاز للعجينـة.

فمـا أكملتُ حديثي لهـم حتـى رأيتُ الحصى يتساقط مـن أيـدي مـن حملـه! فعلمـت أنـي أصبـت كبـد مـا أردت فيهـم، حينهـا أرخيتُ لثامـي وكشـفت لهـم وجهـي متمثلاً بشـعرٍ حفظتـه قديمًـا:

أنـا ابـن جـلا وطـلاع الثنايـا متـى أضـع العمامـة تعرفونـي

رأيـتُ فـي عيونهـم الهلـع والخـوف، فقـد سـبقتني سـيرتي إليهـم فأجهـزتُ عليهـم بباقـي خطبتـي فيهـم:

أمـا واللـه إنـي لأحمـل الشـيء بحملـه، وأحـذوه بنعلـه، وأحزمـه بفتلـه، وإنـي لأرى رؤوسًـا قـد أينعـت وحـان قطافهـا، وإنـي لأنظـر إلـى الدمـاء تترقـرق بيـن العمائـم واللحـى، فواللـه لـو أمـرت الرجـل يخـرج مـن هـذا البـاب فخـرج مـن هـذا البـاب لضربـت عنقـه.

إنـي واللـه يـا أهـل العـراق مـا أغمـز بغمـاز ولا يقعقـع لـي بالشـنآن ولقـد فـررتُ عـن ذكاء وجربـت مـن الغايـة القصـوى، وإن أميـر المؤمنين عبـد الملك بـن مروان نثـر كنانته ثـم عجـم عيدانها عـودًا عـودًا فوجدنـي أمرَّهـا عـودًا وأصلبهـا مغمـزًا فوجهنـي إليكـم، فأنتـم طالمـا رتعتـم فـي أوديـة الفتـن، وسـلكتم سـبيل الغـي، واخترتـم جـدد الضلال، أما والله لألحونكم لحي العـود، ولأعصبنكم عصب السلمة،

ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أحلف إلا فريت، ولا أهم إلا أمضيت، فإياي وهذه الجماعات وقيل وقال، وكان وكان، وأخبرني فلان عن فلان؛ والله لتستقيمن على سبيل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده، ولأهبرنكم بالسيف هبرًا يدع النساء أيامى والأولاد يتامى، وأول تجربتي لكم وتجربتكم لي من وجدته بعد ثلاثة أيام من يومي هذا لم يخرج في بعث المُهلب بن أبي صُفرة ضربت عنقه ونهبتُ ماله وأحرقتُ داره وشردتُ عياله.

هذه كانت خطبتي فيهم وتوضيح منهجي لهم، وليعلموا أني بهم عليمٌ وعلى خصالهم مُطلع؛ ثم أمرتُ حاجبي أن يقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الموجه إليهم، فعمهم الصمتُ حتى يستمعوا لما فيه حتى إنهم لما قرأ عليهم الغلام سلام أمير المؤمنين عليهم لم يردوا السلام عليه، ويبدو أن هذا ما عوَّدهم عليه من سبقني لكني لستُ مثله فنهرتهم وأحسنتُ أدبهم حتى ما عاد عليهم القارئ السلام إلا رد السلام كل من بالمسجد.

كان هذا أول عهدي بهم وأوصلت لهم ما أردت أن يصلهم عني، فما بلغني عن أهل العراق أنهم لا يطيعون حتى يخافوا، ولا يخافون حتى تخضب لحاهم بدمائهم!

دخلت دار الإمارة مجددًا وشرعتُ في ترتيب المناصب وتنظيم الأمور، فاخترت قائدًا للشرطة غير ذلك المُتراخي الذي كان عليها،

وأقررت شُريحًا على القضاء، وتابعتُ خروج البعث إلى المُهلب فأخبرني رجالي أنهم يرون استبطاء من أهل الكوفة كأنهم لا يريدون الخروج فأمهلتهم حتى اليوم الثالث كما وعدتهم.

سألتُ عن أهل أمير العراق الراحل بشر بن مروان فأخبروني أنه مات وترك طفلين لزوجته هند بنت أسماء بن خارجة الفزاري! فكيف للأميرين الصغيرين أن ينشآ خارج قصر الإمارة؟!

أرسلتُ أبا بردة بن أبي موسى الأشعري إلى هند حيث كانت مقيمةً في بيت والدها استأذنها في القدوم إليَّ مع صغيريها للعيش في دار الإمارة مع ابني محمد فمثلها ومثل نجليها لا يليق بهما العيش إلا في بيوت الحكم ودور الإمارة.

عاد إليَّ الرسولُ يطلب إليهم مندوحة من الوقت للشورى وأخبرني أنها تجدُ حرجًا في الإقامة معي في دار الإمارة وفي ثنايا حديثه تعمد أن يصف لي حسنها وجمالها وما عليه من خصالٍ حتى وقعت في نفسي فأرسلته مجددًا ليخطبها لي!

في اليوم الثالث سمعتُ تكبيرات في سوق الكوفة وكأن الناس تتجمع مع بعضها البعض لتعصي أمري، فخرجتُ إليهم وارتقيتُ المنبر وناديتُ فيهم:

يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، إني سمعتُ تكبيرًا في السوق ليس بالتكبير الذي يُراد به الترغيب، ولكنه التكبير

الـذي يُراد بـه الترهيـب! يا بنـي اللكيعـة وعبيـد العصا وأبنـاء الإمـاء والأيامـى، ألا يربـع كل رجـل منكـم علـى ظلعـه ويُحسـن حقـن دمـه، ويبصر موضع قدمـه، فأقسـم باللـه لأوشـك أن أوقـع بكم وقعـةً تكـون نـكالاً لمـا قبلهـا وأدبًـا لمـا بعدهـا.

مـا فرغـتُ مـن كلماتـي حتـى أصابهـم الخـرسُ وانشـغل كل امـرء بنفسـه ليرحـل إلـى المهلـب، حتـى جاءنـي شـيخٌ كبيـرٌ لا يقـوى علـى السـير ويسـتند علـى شـاب أظـن مـن ملامحـه أنـه ابنـه..

- أصلح الله الأمير، إنا في هـذا البعـث وأنـا شـيخ كبيـر وعليـل وهـذا ابنـي هـو أشـب منـي، فاعفنـي مـن البعـث لمـا تـرى مـن حالتـي.

- أسمعت كلامنا بالأمس؟

همس لي أحدُ رجالي أن محدثي هذا هو عمير بن ضابئ الـذي جاء الخليفة المظلوم بعدما قُتل فلطم وجهه!

- ألست من لطم عثمان؟!

- تلك أيامٌ قد مضت أيها الأمير!

- إنـي لأحسـب فـي قتلك صلاح المصريْـن وتقربًـا إلـى اللـه بالثـأر للمظلـوم منـك.

أمرتُ حرسي بضرب عنقه ولينادي منادٍ في أنحاء الكوفة أن هذا الشيخ تأخر بعد سماع النداء فأمر الأميرُ بقتله.. ما فرغ المنادي من بلوغ كل الكوفة حتى خرج رجالها عن بكرة أبيهم وعبروا الجسر في ساعةٍ واحدةٍ من النهار نحو أربعة آلاف مقاتل فأخرجت معهم رجالي ليصلوهم إلى المهلب وليأتوني بكتابٍ منه بوصولهم وليصف لي جبهة القتال كأني أراها من مكاني هنا.

***

جاء موكبُ أم الجلاس لي من المدينة، فقد خرجت من المدينة إلى الكوفة بعدما خطبتها مباشرة ولم أدخل بها، وأمرتُ بأن تلحق بي إلى العراق وتزامن وصولها مع وصول موكب هند بنت أسماء! فأصبح لديَّ زوجتان في يومٍ واحدٍ بعدما لم أطأ امرأة منذ بنت النعمان.

بدأتُ بهند بنت أسماء، تلك الثيب الخبيرة بأحوال الفراش وأسراره ومضاجعة الرجال، فوجدتها كما ظننت بها وإن كان بها بعض نفور مني! ثم انتقلت إلى أم الجلاس الأموية التي أردتُ بها إرغام أنف ابن يزيد فوجدتها بكرًا!

بعدما ضبطت أمر الكوفة، ركبتُ إلى البصرة وخطبتُ في أهلها مثلما خطبتُ في أهل الكوفة؛ وأمهلتهم ثلاثة أيام أيضًا ليخرجوا إلى المُهلب ليُقاتلوا تحت إمرته وكأنهم يقلدون أهل الكوفة، فما

مرت ثلاثة أيام حتى تباطأوا في الخروج وبدأ أهل العذر يطرقون باب دار الإمارة، فكان أول من طرق باب الدار رجلاً يدَّعي أنه به فتقًا وأنه معذورٌ من الله وقد عذره الأمراء من قبلي فرأيتُ لو أني قبلت عذره لتكالب عليَّ كل ذي علة سواء كانت حقيقية أم مصطنعة ولست في سعة من أمري حتى أحقق في كل حالة! فاعتبرته عاصيًا ومتأخرًا عن البعث وأمرتُ بقتله.

حين بلغ أهل البصرة خبر قتلي لهذا العاصي نهضوا من ساعتهم قاصدين الخروج إلى البعث، لكن يبدو أنهم حين غرتهم كثرتهم تلاعب الشيطان بأحلامهم فاختاروا لهم من أنفسهم أميرًا عليهم يُدعى عبد الله بن الجارود.. وخرجوا عليَّ منادين برحيلي عنهم واستقلالهم عن الخلافة!

جهزتُ جيشًا من شرطة البصرة وجنودها وخرجت إليهم حتى التقينا عند قنطرة رامهرمز ودارت رحى الحرب على أولئك الخارجين عليَّ وتقاتلنا قتالاً شديدًا حتى أصبتُ في ساعدي الأيسر بجرحٍ طولي من المرفق إلى الرسغ لكني تحاملتُ على ألمي حتى قُتل ابن الجارود وانتصرنا.

أمرتُ بحزِّ رأس ابن الجارود ورؤوس كبار القبائل الذين كانوا معه وأرسلتها إلى المُهلب مع بعث أهل البصرة بعدما أخضعتهم لكلمتي؛ وأرسلتُ معهم رسالة إلى المُهلب بأن يُناهض الخوارج ولا يكِن في قتالهم حتى يبيدهم عن آخرهم.

فما وصله بعثُ أهل البصرة وكتابي معهم ورؤوس الخارجين على أسنة رماح عرفائي حتى قويت عزيمة المُهلب وناهض الخوارج هو ونائبه عبد الرحمن بن مخنف؛ فقاتلوهم حتى أجلوهم إلى أرض كازرون من إقليم سابور؛ تلك كانت أخبار النصر التي وصلتني.

تبعتها بعدها أنباء الشؤم التي تلتها من أن الخوارج أغاروا على معسكر المُهلب ليلاً فوجدوه متحصنًا بخندقٍ حول معسكره فأغاروا على معسكر ابن مخنف فلم يكن أخذ بنصيحة المُهلب له ولم يتخذ خندقًا حول معسكره؛ فدخل الخوارج المعسكر وقاتلوا جند ابن مخنف على حين غفلةٍ منهم حتى أصابوا منهم مقتلةً عظيمةً وقتلوا ابن مخنف نفسه!

***

نُعي لي عبد الرحمن بن مخنف فأرسلتُ بنعيه إلى عبد الملك، وكان حينها قائمًا على الناس بالحج فنعاه إلى الناس؛ ثم وردتني أخبارٌ أن الخليفة مُستهدفٌ وهو في موسم الحج فأرسلتُ له ليحتاط وليأخذ حذره فعاد إليَّ الرسول بكتابه يُسمي لي أشخاص من تربصوا به ويطلب مني ملاحقتهم! ويأمرني بضرب عُملةٍ عربيةٍ خالصةٍ بعيدًا عن تلك الدراهم الرومية والفارسية، فوكلت أمر سكِّها إلى رجلٍ يهودي من رجالي يُدعى سمير.

- كيف تريد نقشها أيها الأمير؟

- اكتب على أحد وجهيها «بسم الله» وعلى الوجه الآخر «الحجاج».

وما أن طُرحت العُملة الجديدة للتعامل في الأسواق حتى قُوبلت بالرفض والاستهجان لأنها عرضة لأن يمسها الجُنب والحائض! فلماذا هذه النزعة لم تظهر على الدراهم الرومية التي نقش عليها «الآب والابن والروح القدس»؟ ألا يُصلون وهي في سررهم؟! ألا يتعاملون بها؟! ولكنها المُعارضة من باب المعارضة حتى أخرسهم سيدُ التابعين ابن المُسيب وتعامل بها في تجارة الزيت خاصته.

كان في من سمى لي الخليفة رجلان يُدعى أحدهما صالح بن مسرح، ويتبعه رجلٌ آخر يُدعى شبيب بن يزيد وهما من الخوارج الصفرية!

رجلنا في الشرق المُهلب قد كفاني أمر الأزارقة، فتوجهتُ أنا إلى الصفرية الذين هربوا من محمد بن مروان والي الجزيرة وفروا إلى العراق حتى دخلوا الموصل، فتوجهت لهم في ثلاثة آلاف مقاتلٍ فلقيت صالح بن مسرح وليس معه سوى تسعين رجلاً قسمهم إلى ثلاث فرق؛ هو على رأس ثلاثين رجلاً، وشبيب بن يزيد على رأس ثلاثين رجلاً، وسويد بن سليمان على رأس الثلاثين الباقية.

التقى جيشي مع هذه الشرذمة في قتالٍ شديدٍ رغم قلتهم، فما كنتُ أحسب أن الخوارج لديهم كل هذا البأس! حتى بعدما قُتل

قائدهم ابن مسرح تجمَّعوا خلف تابعه شبيب، وأمَّروه عليهم ففر من أمام جيشي بعدما أصاب من جنودي الكثير!

منذ وطئتُ أرض العراق وهي فائرة بالثورات، ما أُخمد واحدة حتى تخرج عليَّ أخرى، كأن أهلها رضعوا الخروج بدلاً من الحليب! ورأيتُ نفسي منشغلاً بالحروب التي شغلوني بها عن إصلاح العراق نفسها؛ فكما بها عصاة وخارجون بها رعية طائعة تضرب في الأرض بحثًا عن العيش!

كان أول ما فكرتُ فيه المزارعين، فانشغال كل من سبقني من ولاة العراق بالحروب والثورات قد أبعدهم عن الاهتمام بالزراعة وبأمر الفلاحين، فنظرت في أمرهم بعينٍ وبالعين الأخرى نظرت على الخارجين عليَّ.

شققتُ لهم القنوات، وطهَّرت لهم الأنهار حتى بلغني أن هناك مشروع نهر لم يستكمل منذ عهد سعد بن أبي وقاص! وحين سألتُ عن السبب أخبروني أن سعد بن أبي وقاص أوكل أمر الحفر إلى رجلٍ من رجاله يُدعى ابن حرام، فجمع ابن حرام هذا الرجال والفعلة وابتدوا في العمل حتى اعترضهم جبلٌ في مجرى النهر المُراد حفره فلم يقدروا عليه وتوقف العمل من حينها!

حين عاينتُ الموقع وجدت أن الجبل من الصخر الصلد وليس من اليسير اختراقه، فأمرتُ رجالي بجمع الحفارين والفعلة من

أنحاء السواد وليمهلوهم في العمل فإذا كان مقدار ما يحفر الرجل في يومه وزن ما يأكل من الطعام فليستمروا في العمل إلى أن يخترقوا هذا الجبل ويكملوا شق النهر، وإذا أتم الله هذا الأمر لكل رجلٍ منهم ألف درهم من دراهمي السميرية.

تركتُ الرجال يشقون النهر وعُدت أشق طرقات الكوفة أتتبع شبيب بن يزيد الذي أرهق رجالي بفرِّه وكرِّه عليهم حتى شاع اسمه في البلاد واجتمعت عليه الخوارج، وإن لم أقضِ عليه فسيكون خطرًا عظيمًا على الخلافة بأسرها، حتى نصرني الله عليه وحرنت به فرسه وهو يعبر الفرات فسقط غارقًا.. وكفاني الله أمره.

***

استقر بي الحال بعدما هدأت الأوضاع نسبيًّا بعد فتنة شبيب وما لحقني بها من عار بعد فراري من أمام غزالة زوجته، لكن موته وموتها أمات الذكرى وسيفي وسوطي جلوها من على ألسن الناس! وبدأت أفكر في أمور الناس مجددًا فبلغني رجالي أنهم شقوا الجبل وأجروا النهر وسمُّوه نهر ابن حرام وسموا الجبل جبل الحجاج!

ما أقلق منامي هو ما نقله إليَّ رجالي من أن حديثي العهد بالإسلام يلحنون بالقرآن لما فيه من تشابه بعض الأحرف لا سيما أن مصحف الخليفة المظلوم لم يكن منقوطًا! ودلوني على رجلٍ

يُدعى عامر الشعبي كان قد ولاه الخليفة القضاء، وأنه حري به أن يضبط هذا الأمر فأرسلت في طلبه حتى جاءني.

- كم عطاك؟

- ألفين!

أهذا المُلحن الذي يريدون منه ضبط القرآن!

- ويحك، كم عطاؤك؟

- ألفان.

- فلمَ لحنت فيما لا يلحن فيه مثلك؟

- لحن الأميرُ فلحنتُ، وأعرب الأميرُ فأعربتُ، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه، فأكون كالمُقرع له بلحنه، والمستطيلِ عليه بفضلِ القول قبله.

أعجبني ردُّه واستبشرت فيه ألمعية أستطيبها.

- أنت الذي شكا زياد بن سمية للخليفة معاوية؟

- هذا خبرٌ قد مات طرفه أيها الأمير.

- حدثني عنه، ولمَ شكوته؟

- لا أظن أن جرائمه قد غابت عنك، أصلحك الله.

حدثته بما وصلني من التصحيف والتحريف واللحن في القرآن، فأخبرني أن زياد بن سمية أول من ضرب في هذا المضرب، وقد كلف أبا الأسود الدؤلي بوضع علامات على الأحرف حتى يميزها غير القارئ للعربية فوضع نقطة أعلى الحرف وسماها فتحة، ووضع نقطة أسفله وسماها كسرة، ونقطة بجانب الحرف وسماها ضمة، وجعل للتنوين نقطتين لكنها لم تجدِ مع غير العرب لأن الحروف المتشابهة ظلت متشابهة.

- وكيف لنا بضبط هذا الأمر؟

- ألا أدلك على رجل يكفيك هذا الأمر؟!

- حسبتك تكفيني إياه!

- هو أفضل مني؛ عليك بنصر بن عاصم الليثي.

أرسلتُ في طلبه واجتمعت به في حضرة الشعبي، وشرحت له الأمر وطلبت منه أن يجد حلاً يصلح للعرب والعجم حتى نحفظ القرآن من اللحن، فاستمهلني شهرًا ليرى ما عليه فعله، فأمهلته.

***

قدم إليَّ المُهلب زائرًا بعدما فرغ من أمر الخوارج الأزارقة وأمن الشرق كله وتطلع إلى الفتوحات الإسلامية القادمة، فرحبتُ به وأجلسته على سرير الإمارة جواري وجعلته يستعرض عليَّ أهل البلاء من رجال جيشه فما كان يثني على أحدهم حتى أجزل له في

العطاء ليعرف كل من مسك سيفًا لنا أننا نقدر رجالنا حق قدرهم. وكان مما أعجبني مما قدم عليَّ المهلب به غير أخبار النصر وهدايا الشرق، أنه اصطحب طاهيًا معه وأمره بأن يعد نوعًا من الحلوى، مصنوعة من الدقيق واللبن وجوز الهند ومحلاه بالعسل الفارسي المعتق، فقد أخبرني المهلب أن هذا العسل لا يستخدم إلا بعد عامين من قطفه من جبال خراسان، فيكون قوامه أصفى ومذاقه أطيب، ولم ينس كعادته في التأبه أن يخبرني أن هذه الحلوى قد صنعت له خصيصًا وسميت على اسمه ((المهلبية)).

كان أميرُ المؤمنين قد أضاف لي إمرة سجستان مع العراقيْن فرأيتُ أحسن عطية للمهلب أن أوليه سجستان مع إقراره على ما هو عليه الآن، كما خطبتُ إليه ابنته هند لي لأجمع بين الهندين ولأضمن ولاء المهلب لي، فالمصاهرة تطفئ نار الخروج وبها يبقى لي واحدة لأتمم الأربعة نسوة في بيتي! أما إنه لا يجتمع لرجلٍ لذة حتى تجتمع أربع حرائر في منزله يتزوجهن!

وصلتني مع الهلال التالي لرحيل المُهلب عني في موكب عرسها محملة بألف ألف دينار قد ألزمت المهلب بها بعدما اعترض عليَّ حين عدلت له ولاية سجستان بولاية خراسان؛ ضممتها إلى نسائي وبنيتُ بها وأكرمتها لمكانة والدها عندي حتى قدمتها على هند بنت أسماء التي نغصت عليَّ عيشي بتعاليها عليَّ ونفورها مني!

***

كنتُ قد نسيت أمر نصر بن عاصم الليثي حتى مرَّ عليه أكثر من شهر، ولم أرسل في طلبه لانشغالي ببعث جيش إلى الشمال حيث رتبيل ملك الترك، وما خرج الجيشُ وفرغتُ لشئون الإمارة الداخلية حتى تذكرته وأرسلت في طلبه فجاءني وعرض عليَّ ما وصل إليه.

ب ت ث ج خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ن؛ كانت هذه أشكال التعديلات التي رأى الليثي أنها ستضبط الحروف، فاستشرتُ فيها الشعبي فأقرها، فأمرتُ الخطاطين أن يكتبوا مصاحف بهذا التنقيط الجديد وليرسلوا نسخة إلى كل مِصر ليقتدوا بها في قراءاتهم ويرجعوا إليها حين الاختلاف.

جاءتني الأخبار بحصار جيشنا في الشمال في شعب الترك على مسافة ثمانية عشر فرسخًا من المدينة العظمى، فأرسلتُ إلى الخليفة أستشيره في الأمر، فأمرني أن أجهز جيشًا ضخمًا لننتقم من رتبيل وأتباعه فجهزتُ من البصرة عشرين ألفًا ومن الكوفة مثلهم واحترت في من أوليه عليهم حتى استقر أمري على عبد الرحمن بن الأشعث، رغم بغضي له فوالله ما رأيته قط حتى هممتُ بقتله! وأخرجتُ معه بعض ثقات رجالي ليُساندوه في الولاية وكان على رأسهم عامر الشعبي وسعيد بن جبير جعلته على نفقات الجند، وانطلق الجيش على بركة الله.

انطلق الجيشُ وعُدت لإصلاحاتي الداخلية في العراق، فقد أمرتُ بتجفيف وردم المستنقعات المنتشرة في سواد العراق

واستصلاحها للزراعة، كما اعتنيتُ ببناء الجسور والسدود.. ولمَّا كانت نفقة الحرب طاغيةً على ميزانية الدولة فقد أوكلت أمر صيانة وإصلاح هذه الجسور والسدود إلى الدهاقين المنتفعين بها وتخدم على أملاكهم وضياعهم، فالنهضة مشاركة بين الحكومة والرعية وليست مغالبة على الحكومة بمفردها!

جاءتني رسائل ابن الأشعث مبشرةً بكثرة توغله وفتوحاته في بلاد رتبيل، لكنه يسألني في التوقف حتى يتقووا إلى العام المقبل! فكتبت إليه أن يتوغل أكثر حتى يأتني برأس رتبيل نفسه.

وما لبثت رسائلي أن تصله حتى أوغر قلب الجيش عليَّ، ونادى بنفسه أميرًا فبايعه أهلُ العراق كعادتهم ونادوا بخلعي! وأقفلوا راجعين قاصدين البصرة ليستولوا عليها! فوالله لو خرج في العراق كل يوم رجلاً يطلب البيعة لنفسه لبايعوه!

أرسلتُ إلى الخليفة أخبره بالنبأ، فأرسل لي جيش أهل الشام وأمرني بالخروج ومناهضة ابن الاشعث هذا الخارج الجديد! وجاءتني رسالة من المهلب ينصحني فيها بالبقاء في العراق وترك جيش ابن الأشعث يدخلونها فهم أشداء في أول الأمر فما يأنسون بنسائهم ويشمون أولادهم حتى تتزعزع كلمتهم وحينها أنقض عليهم! كانت هذه خطة المُهلب، ولكنها غير خطتي فوالله لو دخل الجيش الخارج هذا البصرة ما سكّنهم إلا أن يضربوا عنقي فخرجتُ إليهم.

دارت الحرب بيني وبين ابن الأشعث فتارة أغلب عليه وتارة يغلب عليَّ حتى استقر به المقام في دير الجماجم ونزلت أنا دير قرة، وبدأت بيننا حرب متداولة طوال مائة يوم حتى جاء رسولان من الخليفة يعرضان على ابن الأشعث عزلي عنهم مقابل أن يعود لحظيرة الخلافة وله الإمارة على أي بلد شاء ما عاش وعاش الخليفة!

ولأن عادتهم الخروج فأبوا هذا العرض ولم يقبلوا إلا بخلع عبد الملك نفسه! فما كان من الرسولين إلا أن أقراني على ما أنا عليه وأمداني بالجنود التي كانت تحت إمرتهم فاستمر بيننا القتال مجددًا حتى نصرني الله على هؤلاء الخوارج وفر ابن الأشعث إلى رتبيل!

لم يكن خروجُ ابن الأشعث عليَّ غائبًا عن بالي فطالما رأيت الغدر في عينيه، لكن الأشد ألمًا لي هو خروج من كنت أحسبهم أوفياء للبيعة والعهد، فلماذا خرج عليَّ الشعبي؟! ولماذا خرج سعيد بن جبير؟! ولماذا خرج أنس بن مالك؟! ألم يكونوا رجالي وأهل ثقتي؟!

جاؤوني بأنس بن مالك وقد وصلتني أخبار أنه أصدر فتاوى ضدي وتحرض على الخروج عليَّ، فبعد التحقيق معه لم أستقر على شيء فختمت عنقه بختم «عتيق الحجاج» فشكاني إلى الخليفة الذي عاتبني فيه فاعتذرتُ له واسترضيته. بعدما أوصلت

رسالتي للرعية من خلاله، فالويل لكل من خرج علينا أيًّا كان، حتى لو كان ابن مالك.

طويتُ صفحة ابن الأشعث بعدما أرسلت في طلبه وطلب باقي رؤوس من كان معه وعدتُ لإصلاحاتي مجددًا، فقد أمرتُ بتعريب الديوان بعدما قتل زادان بن بيري الفارسي الذي كنت استكتبته على الديوان حين توليت العراق، فلما قُتل في فتنة ابن الأشعث وهو خارج من داره وليت مكانه صالح بن عبد الرحمن فأمرته بتعريب الديوان.. وما فرغتُ من تعريب الديوان حتى عدتُ لأمر المصحف مجددًا بعدما لم تفلح حيلة الليثي في ضبطه، فكوَّنت لجنة من الحسن البصري ويحيى بن يعمر لتشكيله وضبطه ومعرفة عدد حروفه وأن يحددوا نصفه وثلثه وربعه وسبعه.

تركت أمر الديوان والمصحف وعدتُ لأمر الزراعة مجددًا، فأثناء الفتنة قد رحل كل أهل الريف من القرى إلى المدن وتركوا الأراضي الزراعية حتى خربت وعمها التصحر ونفقت الأبقار في حظائرها، فأمرت جنودي برد كل مزارع إلى قريته وليختموا اسم قريته على يده، ومن وُجد مقيمًا خارج قريته فليقتلوه! وأصدرت قرارًا بعدم ذبح إناث الأبقار لمدة ثلاث سنوات حتى تتكاثر وتعوض ما نفق منها أثناء الفتنة.

ثم بدأتُ في حملة تطهير ومحاسبة لأهل العراق، وأقمتُ المقصلة لعقاب كل من خرج علينا، فلم أنس يومًا ابن الأشعث

ومن خرج معه عليَّ حتى جاؤوني بعامر الشعبي وهو مكبلٌ في قيوده!

- وأنت ممن ألب علينا مع ابن الأشعث؟ اشهد على نفسك بالكفر!

- أصلح الله الأمير، نبا بنا المنزل، وأحزن بنا الجانب، واستحلنا الخوف، واكتحلنا السهر، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء.

- لله أبوك، لقد صدقت، ما بررتم بخروجكم علينا ولا قويتم، خلوا سبيل الشيخ!

أمرتُ بإخلاء سبيله واستبقيته في مكانته التي كان عليها، لكني لا آمنه قط ولا آمن نفرًا من أهل العراق! وكان ممن أرسلتُ في طلبه سعيد بن جبير فبلغتني أخباره أنه مقيمٌ في مكة معتزلاً الناس فلم أرد أن أنكد عليه عيشه أو أصيب دمه!

بعد الانتهاء من الفتنة لم آمن أهل العراق، فأبقيتُ معي جند الشام وأنزلتهم في الكوفة وأنا كارهٌ لذلك حتى صباح ذلك اليوم الذي جاؤوني فيه بجندي من جند الشام مقتولاً في بيت من بيوت الكوفة بعدما انتهك حرمة نسائه فأمرت ببناء مدينة جديدة، خاصة لمعسكرات الجند وليكون بها مقرات الحكومة والدواوين وقصر الإمارة وقصور الأمراء وكبار القادة، وليكون بها

أكبر مسجد بالعراق وليكون سقفه ذا قبة كبيرة تتوسطه، حتى وقع الاختيار على كرش من الأرض يتوسط المسافة بين الكوفة والبصرة والأهواز فأمرت ببنائها وسميتها واسط، وفرضت عليها نظامًا أمنيًّا مشددًا، فما كانت تتحرك فيها نملة إلا وعلمت حركتها.

***

عبد الملك

-20-

هدأت الثوراتُ وتفرغ الحجاج كما أمرته للإصلاح، فأحدث نهضةً إصلاحيةً في العراق، فضلاً عن فتوحاته التوسعية في الشرق، فقد مهَّد الطرق وشقَّ الأنهار وحفر الآبار وبنى السدود ومهد الأرض وأكثر العطايا، وبنى مدينة جديدة لتكون عاصمة جديدة لكل العراق، نقل إليها الدواوين وبيت المال ومعسكرات الجند وقصر الإمارة وقصور الأمراء والقضاة وحصنها أفضل تحصين فكان لا يدخلها أحدٌ إلا بإذنه، سماها واسط.

وبقيتُ أنا في دمشق أستقبلُ الوفود التي تفد عليَّ من الأقطار وأستطلع منها الأخبار والأحوال وأتتبع أمر العمال والولاة، حتى افتقدت عامر الشعبي وحين استخبرت عنه

علمت أنه خرج في فتنة ابن الأشعث فبعثه الحجاج إلى خرسان فبعثت في طلبه فآتاني:

- كيف تركت العراق يا شعبي؟

- أصلح الله أمير المؤمنين، تركتها في عمارة ورخاء، فقد أصلح الحجاج أرضها، وعمر بيوتها، ونما خيرها، فنعم الوالي المُصلح للخليفة الصالح.

- هل دخلت واسط؟!

- واسط لا تُدخل إلا بإذن الحجاج، ومثلي لا يؤذن له.

- ألم تكن من جلسائه يومًا ما؟!

- تلك أيامٌ مضت يا أمير المؤمنين، الحجاج لبن إذا عُكر لا يصفى.

- وكيف كان أيام صفوته؟

- كان أسدًا إذا جلس على كرسي الإمارة، صقرًا إذا امتطى جواده، فارسًا إذا جرَّد سيفه.

- جائرًا إذا قضى!

- وعفوًا إذا قدر، أصلح الله أمير المؤمنين.

- الحجاج عفوًا، هل لأنه عفا عنك ولم يقتلك أو يجلدك أو حتى ختم عنقك مثلما فعل مع خادم رسول الله! يا شعبي أتذكر أول لقاء بيننا حين جهرت لي بأمر ابن الأشدق، لمَ الآنَ تُداهن الحجاج؟!

- أصلح الله أمير المؤمنين، هل تقبل شهادتي بما رأيته في مجلس الحجاج من سعة عفوه وطول حِلمه وإدانة نفسه ونصرة مخاصمه؟!

- كأنك تحدثني عن رجلٍ لا أعرفه، هاتِ ما عندك يا شعبي!

- بعدما نصرك الله على ابن الأشعث وشرع الحجاج في حملات التطهير، وكنت فيمن قبض عليهم للخروج، وذهبت لمجلس القضاء ليقضي فينا الحجاج، لم أكن وحدي بالطبع وكان هناك الكثير غيري، وكان ممن حضرت محاكمتهم أسيران ممن خرجوا عليه وحين شرع في الحكم عليهما قال له أحدهما: إن لي عندك يدًا، فسأله الحجاج عنها، فأخبره أن ابن الأشعث خاض في سيرة أم الحجاج فرد عليه ذلك الرجل، فطلب منه الحجاج شاهدًا على موقفه هذا فشهد له الأسير الآخر! فسأل الحجاج الأسير الشاهد لماذا لم يرد ابن الأشعث مثلما فعل صاحبه؟! فلم يجد بدًّا من المُداهنة وهو على عتبة المقصلة فأخبره صراحة أنه يبغضه! فعفا الحجاج

عن الأسيرين أحدهما لرده السوء عن أم الحجاج والآخر لأنه صدق الحجاج في موضع كان حريًّا به الكذب.

- هذا عن عفوه، فماذا عن حِلمه؟

- خطبنا الحجاج يومًا فكان مما قال في خطبته: «أيها الناس، الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله»؛ فقام رجلٌ من الحضور وقال: «ويحك يا حجاج، ما أصفق وجهك وأقل حياءك، تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام؟! خبت وضل سعيك»، فأشار الحجاج لحرسه فقبضوا عليه حتى نزل من على المنبر وسأله:

- ما الذي جرأك عليَّ وأنت تعلم أن سيفي أسبق للساني؟!

- ويحك يا حجاج، أنت تجترئ على الله ولا أجترئ أنا عليك، ومن أنت حتى لا أجترئ عليك وأنت تجترئ على الله رب العالمين.

فخلى الحجاج سبيله وما مسَّه بسوء.

- هذا عن حِلمه، فماذا عن إدانة نفسه؟!

- عفا الله عن أمير المؤمنين، بينما أنتظر عرضي عليه جاء رجلٌ يستغيث فمنعه الحاجب، فظل يُنادي حتى وصل صوته إلى مجلس الحجاج فأذن له ودخل، فبتُّ أسترق السمع وأنا

بالباب فسمعتُ الرجل يقول: إن أخي خرج مع ابن الأشعث فبعدما نصرك الله عليه طلبتموه فلم تجدوه، فهدم عسكركم عليَّ داري، ومُنعت عطائي، وحلق حول اسمي لأعدَّ من الخوارج ولست منهم وما خرجتُ عليكم! فرد عليه الحجاج متمثلاً بشِعر يقول:

حنانيك من تجني عليك قد.. تُعدي الصحاح مبارك الجرب

ولرب مأخوذٍ بذنب قريبه.. ونجى المقارف صاحب الذنب

فرد عليه الرجلُ بثباتٍ يُحسد عليه: أيها الأمير، إني سمعت الله يقول غير هذا، وقول الله أصدق! فسأله الحجاج عن حُجته فتلا قول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾، فما فرغ من التلاوة حتى أمر له الحجاج أن تُبنى داره ويُرد عطاؤه ويُزال اسمه من قوائم الخوارج، بل والأدهى يا أمير المؤمنين، أمر بمنادٍ يجوبُ الشوارع وينادي في الناس: صدق الله وكذب الشاعر!

- كأنك تُفتش في بحرٍ لتأتي بما يؤيد قولك يا شعبي، فماذا عن نصرة مخاصمه؟!

- سمر الحجاج يومًا مع العلماء والشعراء حتى سيقت سيرة

الحسين بن علي، فأنكر الحجاج حينها أن يكون الحسين من ذرية رسول الله لأنه ابن بنته، وكان من الحضور يحيى بن يعمر الذي عارض الحجاج في ذلك، حينها غضب الحجاج حتى انتفخت أوداجه وخيَّره بين أن يأتي ببينةٍ على نسب الحسين لرسول الله، أو يضرب عنقه! فقرأ ابن يعمر قول الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلاًّ هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، وعلل حجته أن عيسى من ذرية إبراهيم رغم أن عيسى ابن مريم؛ حينها أقر له الحجاج بصواب رأيه ونزل عليه.

***

راودتني الرؤيا التي أوَّلها لي ابنُ المُسيب، وأن لي ولدًا سيملك عشرين سنة، وتذكرتُ حين قدم عليَّ عمر بن حبيب بن قليع وبشرني وقصَّ عليَّ أنه كان في مجلس سعيد بن المسيب فجاءه رجلٌ فقال: رأيتُ كأني أخذتُ عبد الملك بن مروان، فأضجعته إلى الأرض، وبطحته فأنفذت في ظهره أربعة أوتاد.. فقال له ابنُ المُسيب: ما أنت الذي رأيت هذا، ولن أخبرك حتى تُخبرني صاحبها؛ فأخبره الرجل أن عبد الله بن الزبير هو مَن رآها، وهو مَن بعثه إليه ليؤولها له؛ فأوَّلها سعيد

بن المسيب أني سأقتل ابن الزبير وسيخرج من صلبي أربعة كلهم يكون خليفة؛ ثم تذكرتُ ما نقل لي إسماعيل بن أبي حكيم، من رؤية رجلٍ رآني في منامه وكأني أبول في قبلة مسجد الرسول ﷺ أربع مرات، فأوَّلها ابن المسيب أنه سيقومُ من صلبي في هذا المحراب أربعة خلفاء.

ما كدتُ أفرغ من تواتر ذكرياتي تلك حتى أتى الرسولُ بخطابٍ من قِبل الحجاج بن يوسف يقول فيه:

«أما بعد: فقد مات أبو بكر وترك لنا عمر، ومات عمر وترك لنا عثمان، فمات عثمان فأخذها معاوية بالحِلم والسيف، فمات معاوية فترك لنا يزيد، فمات يزيد وترك معاوية، ومات معاوية وما خلف أحدًا بعده حتى كادت الخلافة تذهب لمن ليسو أهلاً لها، حتى حفظها الله في مروان، فمات مروان وترك لنا خليفة المسلمين عبد الملك أطال الله عمره، فلينظر أميرُ المؤمنين مَن للمسلمين مِن بعده، ولا يترك أمرهم لشيخٍ قد دنا أجله، ولينظر في شباب أبنائه فهم خيرُ خلفٍ لخير سلف؛ والأمر ما يرى أمير المؤمنين.

والسلام».

لله درُّك يا حجاج، وكأنك تعلم ما في نفسي، لكن كيف لي أن أخلع أخي عبد العزيز من ولاية العهد؟!

راسلتُ أخي عبد العزيز أستعفيه من ولاية العهد فأبى، وحين مارستُ عليه ضغوطي أرسل يستعطفني معللاً أن ما مضى من العمر أكثر مما بقي وليترك الأجل يفرض كلمته، فارتضيتها له ولم أشأ أن أغثث عليه حياته وكلانا أصبح كهلاً ولا ندري أينا يسبق الآخر!

ما مرَّت شهورٌ حتى نفد أجلُ أخي وولي عهدي، وبعدها كتبتُ بالبيعة لابنيَّ الوليد وسليمان من بعده مثلما فعل أبي لي ولعبد العزيز أخي، وبعدها جاءني مرضُ الموت الذي رقدت فيه حتى منع الطبيبُ زواري عني فسمعتُ الوليد بالباب يسأل عني وكأنه يستعجلُ أمري:

وكم سائلٍ عنا يريد لنا الردى وكم سائلات والدموع ذوارفُ

فأمرتُ به فدخل عليَّ، وهو يتباكى!

- ما هذا؟! أتحن حنين الجارية والأمَة؟ إذا متُّ فشمِّر واتَّزر، والبس جلد النمر، وضع الأمور عند أقرانها، وانظر إلى الحجاج فأكرمه، فهو من مهَّد لك البلاد، ووطأ لك المنابر، وقهر الأعداء، وخلص لك الملك وشتت الخوارج، وصدق جرير حين قال:

إذا سعر الخليفة نار حرب رأى الحجاجَ أثقبها شهابا

وإذا وضعتني في حُفرتي فاصعد المنبر وادع الناس إلى البيعة فمن أبى فبالسيف، وكان آخر ما تلوته من القرآن: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.. وإلى الله تُرجع الأمور.

***

جرير

-21-

بقيتُ في اليمامة مدةً منقطعًا عن الحضر، لكني عُدت إلى شعري وأشعاري وهجوتُ وعاديتُ الكثيرين ولم يسلم من لساني أحد، لكن ضاق بنا الحالُ وقلَّ المالُ وكثرت العيال فلم أجد بدًّا من مداهنة الولاة والحُكام، فأعطيات القبائل التي تستنفرني على بعضها لم تعد تكفي. وقد علمتُ أن الحجاج يُقدر الشعر ويسخو بالعطاء حتى سمعتُ أنه أعطى الأخيلية خمسمائة ناقة! فشددتُ رحالي إليه.

ما أن وصلتُ البصرة حتى علمتُ أنه ابتنى لنفسه مدينةً جديدةً بين البصرة والكوفة جعلها مركزًا للحُكم ويُقيم بها ولا يدخلها أحدٌ إلا بإذنه! فاحتلتُ حتى دخلتها ونزلت على قريبٍ لي بها يُدعى عنبسة بن سعيد:

- ويحك! لقد غرَّرتَ بنفسك! فما حملك على ما فعلت؟

- شِعر قلتُه اعتلج في صدري، وجاشت به نفسي وأحببتُ أن أُسمعه الأمير.

فعنَّفني أشد تعنيف وأدخلني داره وخبأني بها حتى لا يراني أحدٌ من الشرط أو أحد الجيران فيشي بي. وبعد مدة من مكثي مسجونًا في دار عنبسة ذهب إلى الحجاج ليستأذن لي وما لبث أن ذهب حتى وجدت الشرط يُحيطون بالدار ويُفتشونها حتى قادوني إلى الحجاج ورموني تحت قدميْه.

- هيه ؟ما أقدمك علينا بغير إذننا؟ لا أمَّ لك!

- أصلح الله الأمير! قُلتُ في الأمير شعرًا لم يقل مثله أحدٌ؛ فجاش به صدري، وأحببتُ أن يسمعه منِّي الأمير؛ فأقبلتُ به إليه.

فوجدتُ الحجاج هدأت نفسُه وطابت لسماعي فأذن لي في الإنشاد، فأنشدته مما نظمته فيه وكان منه:

إني لمرتقبٌ لِمَا خوفتني ولفضل سيبك يا ابن يوسف راجي
ولقد كسرتَ سنان كل منافق ولقد منعت حقائب الحجاج

فاستوقفني الحجاج بعدما بدت على ملامحة علامة الرضا بإنشادي ونادى في الغلمان أن يأتوه بالجارية التي أرسلها له عامل اليمامة، فإذا بهم يأتون بجاريةٍ باهرة الحُسن، بيضاء البشرة، طويلة القامة لم أر مثلها في حياتي.

- إن أصبت صفتها فهي لك.

- ليس لي أن أقول فيها وهي جارية الأمير!

- بلى.

فتأمَّلتها وسألتها عن اسمها فأبت أن ترد عليَّ؛ فأمرها الحجاج أن تُجيبني فأخبرتني بألطف اسم سمعته في حياتي: أُمامة.. فدرتُ حولها أتأملها مستجديًا شيطان شعري أن يحضر، وبعد مدةٍ نطقتُ:

ودِّع أُمامةَ حان منك رحيلُ　　إن الوداعَ لمن تُحِبُّ قليلُ

مثلُ الكثِيبِ تمايلتْ أعطافُه　　فالريحُ تجْبُر متنه وتهيلُ

هذِي القلوب صوادياً تَيَّمْتِهَا　　وأرى الشفاءُ وما إليه سبيلُ

فضحك الحجاج لما رميت به في شعري وقال لي: لقد جعل الله لك إليها سبيلاً فخذها، فهي لك! فمددتُ يدي نحوها فتمنعت عني فارتجلت لها:

«إن كانَ طِبُّعكم الدلالُ فإنّهُ حُسْنُ دلالك يا أُمام جميل»

وأمر الحجاجُ بتجهيزنا وبجائزتي وعدتُ بأمامة إلى اليمامة، وبينما نحن في الطريق إذ لحقني إخوتها وكانوا أحرارًا يطلبونها مني حتى عرضوا عليَّ عشرين ألفًا فأبيتُ، وعدتُ بها إلى ديارنا فأم حرزة قد ضربها الشيب وأنا بحاجةٍ لجاريةٍ يانعةٍ تبث الشباب فيَّ.

***

عدتُ بأمامة إلى اليمامة واستقررت بها، فجائزة الحجاج تكفي شهورًا، لكن ما لبثت أن استقر بي المقام وقارب الحوْل أن ينقضي حتى جاءت القوافل ورسل البريد بما يقول الفرزدق فيَّ، والجديد أن شاعر بلاط الخليفة قد أقحم نفسه في هجائي رغم أني ما ابتديته قط! لكن ما دام هجاني سأهجوه حتى أؤرق مضجعه وأحط من موضعه، وكان قد نمى إلى علمي أنه أنشد قصيدةً يمدحُ فيها أمير المؤمنين عبد الملك ويحط فيها من قدر قبيلتي. فهجوتُ الأخطل بما يستحق بأشعارٍ مرتجلةٍ وأمعنتُ الفكر في نظم قصيدةٍ لمدح عبد الملك نفسه فما كسبت من الهجاء إلا ضياع عمري ومجدي الأدبي فظللت حياتي ككلبٍ ينبح على كل مَن مرَّ أمامه فلا أطعموني طعامًا يفي نباحي ولا عاد عليَّ نباحي بشيء.

نظمتُ قصيدةً في عبد الملك وسعيتُ في الوصول إليه لكن أعدائي منعوني ذلك، فكيف إليه وصولٌ والأخطل شاعرُ البلاط! فعلمتُ أن طريقي للخليفة سيكون عن طريق ولاة الخليفة وما جربت منهم سوى الحجاج، فلمَ لا أرحل إليه ثانية؟!

رحلتُ إلى واسط مجددًا واستأذنت في دخولها فأذن لي، ثم استأذنتُ في الدخول على الحجاج فأذن لي بعدما لبثت ثلاثة أيام في انتظار الإذن، وما أن دخلت القبة الخضراء حتى وجدتُ الفرزدق هناك يُجالس الحجاج.

- هل تعرف مَن هذا يا جرير؟!

- أصلحك الله أيها الأمير.. هذا أبو فراس.

- ألن ينتهي الهجاء بينكما؟

- الهجاء يذكي العطاء، ويؤجج القريحة، ويُلهب الإبداع أيها الأمير، لو ما تهاجينا ما تنافسنا، ولو ما تنافسنا ما أخرجنا أجود شعرنا، فإذا كنت لا أرجو أن أتفوق على الفرزدق، والفرزدق لا يرجو التفوق عليَّ فأنَّى للناس بشعرٍ نُبدع فيه طلبًا للتميز وبحثًا عن التفرد.

- لكما هذا في مجلسي الآن، فمن مدحني منكما الآن بشعر يوجز فيه ويُحسن صفتي له مني جائزة تفوق خياله.

انتظرت حتى يجودَ الفرزدق بقريحته فهو أول من سبقني إلى ها هنا.. فتمهل الفرزدق ثم قال:

فمن يأمن الحجاج والطير تتَّقى عقوبته إلاَّ ضعيف العزائم

فنظر إليَّ الحجاج: هاتِ ما عندك يا أبا حرزة.

ففكرتُ هنيهة، ثم قلتُ:

فمن يأمن الحجَّاج أمَّا عقابه فمرٌّ وأمَّا عقده فوثيق
يسرُّ لك البغضاء كلُّ منافق كما كلُّ ذى دين عليك شفيق

فقال الحجاج: أما أنت يا فرزدق ما صنعت شيئًا.. فالطير تتقي توافه الرجال حتى الصبي! والله إن الجبال لتوضع للطير فتتنحى عنه! أما ما قلته أنت يا جرير فأحسن وأوفى والجائزة لك.

***

الحجَّاج

-22-

أما وقد قُلتُ يومًا إنه لا تجتمع لرجلٍ لذةٌ حتى تجتمع أربع حرائر في منزله يتزوجهن؟! قد سعيتُ في جمعهن في منزلي حتى جمعتُ أربعة تحتي وقلت فيهن: عندي أربع نسوة، هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، وأم الجلاس بنت عبد الرحمن بن أسيد، وأمة الله بنت عبد الرحمن بن جرير بن عبد الله البجلي.. فأما ليلتي عند

هند بنت المُهلب فليلة فتى بين فتيان، يلعب ويلعبون.. وأما ليلتي عند هند بنت أسماء، فليلة ملك بين الملوك، وأما ليلتي عند أم الجلاس فليلة أعرابي مع أعراب في حديثهم وأشعارهم.. وأما ليلتي عند أمة الله بنت عبد الرحمن بن جرير، فليلة عالمٍ بين العلماء والفقهاء! فيبدو أن عين الحسد قد أصابتني ورحلن عني جميعًا!

فهند بنت أسماء طلقتها حين تأكدت أنها تُبغضني وسمعتها تُشعر في بُغضي! وبعدما كنتُ عندها ملكًا من الملوك أصبحتُ في نظرها بغلاً من البغال!

وهند بنت المُهلب طلقتها حين حبستُ أخاها يزيد فملأت عليَّ المنزل صراخًا وعويلاً فنكدت أيامي! وبعدما كنت عندها فتى ألهو وألعب أصبحت ناكد العيش حزينًا!

وأما أم الجلاس وأمة الله فقد تركتاني وتركتا الحياة كلها! وأصبحتُ وحيدًا بلا

زوجـةٍ بعدمـا نكحـتُ خمـس نسـاء.

***

جرير

-23-

لبلاط الخلافة هيبة وحضور يُجبر كل من خطاه على الخضوع للخليفة، يجعل النفس تصدق على بنات لسان الخليفة أيًّا كان صحتها، فإذا قال الخليفة ماء المطر يبرئ من الجرب لوقف الجُرب عرايا تحت المطر! وإن قال إن نهيق الحمار يُطرب، لتبارى الشعراء في مدح النهيق! وإن قال إن أبسل الفرسان الجبان لأنشد الأخطل قصيدة أطول من شهور صيامه- إن كان يصوم- في حمد الجبن وتقريظ الجبناء.

فللسلطة رهبةٌ تجعل الحاشية تُفلسف أقوال السلطان، وتُبرر أفعاله، وتُصوب أقواله، وتُحسن الظن بأخطائه! إليَّ بأي أبله وضمُّوا له حاشية تجمله وسيذكر التاريخ أن هذا الأبله كان عبقريًّا لا يُشق له غبار.. وأنا شاعر ألتمس العطايا

والجوائز فهل لي بقصيدةٍ أذم فيها أمير المؤمنين؟! والله إن كتبتها ما جرى لي قلمٌ على قرطاس بعدها، ولا انتظمت لي قافية تحت أخرى.

اليوم وفودي الأول على عبد الملك بن مروان، وعليَّ أن أمدحه بمدح لم يمدحه السابقون ولن يمدحه اللاحقون، فبعدما مدحت الحجاج- وإن كان مثل الحجاج يُمدح- أرسلني بكتابه هذا إلى بلاط الخلافة ليكافئني على مدحي له! هل المكافأة أن أكون ساعي بريد بين الخليفة وولاته؟! وإن كان فما لك يا أبا حزرة تكره الوفود على الخليفة ولو ممتهنًا السعي، أليس هذا عبد الملك الذي سُقت له العرب والعجم حتى يسمع لك؟ ها قد حانت الفرصةُ ولن تتكرر، فإما أو.... ليس هناك أو، فليهدي الله شيطان شعري وإن كنت مدحت الحجاج فلا عسر عليَّ أن أمدح عبد الملك.

في طريقي من واسط إلى دمشق عدَّلت على قصيدةٍ كنتُ نظمتها فيه من قبل متحينًا الفرصة للقائه حتى ملأتني بها الخيلاء وآملت ألا ينظم أحد مثلها.. وبعدما وصلنا لعاصمة الخلافة قررنا بدار الأضياف حتى يأذن لنا، كانت دار الأضياف تعج بالوفود فرجوتُ الله أن ينشر صيتي في ربوع أرض الخلافة على لسان كل تلك الوفود. وبعدما استرحنا من عناء السفر أذن لنا بالدخول على الخليفة، فدخل الرجال تباعًا حتى حان دوري.

حين نُودي اسمي من داخل بلاط الخليفة ثم ردده الحاجب بالباب دخلت على الخليفة فوجدته متكئًا على سرير المُلك، وكانت أول مرة أراه فيها؛ فكان أبيض الوجه مليحه خلا فمه الأفوه، مخضب اللحية ليس بالنحيف ولا البدين، في يديه صحاف من فضة يقرعها بقضيب في يده. ورأيت محمد أخو الحجاج عند رجل السرير وكنا قد التقينا من قبل في حضرة الحجاج.. لكن ما لفت ناظريَّ أن أعناق الناس مشرئبة نحوي!

- يا أمير المؤمنين، دخلتُ فاشرأب الناس نحوي، ودخل قوم فلم يشرئب الناس إليهم، فقدرت أن ذلك لذكر جميل ذكرني بِه أمير المؤمنين.

- حري بالناس أن ينظروا لقاذف المُحصنات، لما ذُكرت لي، قلتُ: لا حيا اللّه القاذف المحصنات، العاض لأعراض الناس.

- والله يا أمير المؤمنين ما هجوتُ أحدًا حتى أخبره غرَضي سنةً، فإن أمسك أمسكتُ، وإن أقام استعنت عَلَيْهِ وهجوته.

وبعدما سمع مني ما لم يبلغه أعدائي له عني وأخذ كتاب الحجاج سألني عن أحوال البلاد والعباد التي تركتها ورائي:

- كيف العراق من خلفك يا جرير؟

- أصلح الله أمير المؤمنين، تركتهم في أمن ورغد عيش، لو ترك أحدهم داره وفيها كل ماله وانصرف ما تجرأ على دخولها لص ولا نقص منها درهمٌ، ولا يصبح ولا يمسي فيهم جائعٌ أو عريانٌ فالحجاج يضع لهم ألف مائدة في الصباح ومثلها في المساء.

- أسيف الحجاج أم عطاؤه، الذي يجعلكم تشهدون بذلك؟! أليس هذا الحجاج الذي يُقال عنه المُبير، مخلف الأمهات ثكالى والأطفال يتامى، الذى تولى العراق وهي خضراء يانعة، فحولها صحراء جرداء!

- ما يقول هذا إلا خارجي يا أمير المؤمنين، والله لقد سكنتُ في العراق قبل أن يدخلها الحجاج ورأيتُ حالها، ورأيتها الآن وما هي الآن إلا درة عقد الخلافة، أما الحجاج فما وجدته إلا رجل عزم وحزم، علم أن شياهه شارداتٌ فأقام عليها بالعصا!

- ما بقي لك إلا أن تدَّعي أنه فاق زهد ابن يسار!

- والله يا أمير المؤمنين، إني سمعت الحجاج يقول في خطبته كلامًا ما قاله ابن يسار ولا ابن سيرين رغم ملازمتي لهما.

- وما قال يا جرير ؟!

- وقف الحجاج على المنبر مرةً وكان مما قاله وعلق في ذاكرتي: «أن امرءًا أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه، ويستغفر من ذنبه ويفكر في ميعاده لجدير أن يطول حزنه ويتضاعف أسفه، إن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء، ولا قضاء لما كتب عليه البقاء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا الأمل بقِصر الأجل.

وحين عرضت تلك الكلمات على ابن يسار قال إنها تستحق أن تُدون بماء الذهب!

- وماذا أيضًا مما لا يُذاع من صالح أخباره يا جرير؟

- دهاؤه يا أمير المؤمنين، كان مما نقله لي يزيد الثقفي أنه كان معه في ثورة ابن الجارود وكانت الحرب في صالح ابن الجارود حتى أرسل للحجاج بالأمان مقابل أن يسلم ما تحته من بلدان، فصاح الحجاج: يبعث لي بالأمان! والله لا أؤمنهم أبدًا، وصار يرفع صوته بها حتى ظن أنصاره أن ابن الجارود هو من يطلب الأمان لنفسه! لكن أنَّى لهذا أن يُنشر وموقف غزالة يتناقله الصغار والكبار؟!

بعدما سمع مني الخليفة أمرني بالانصراف! أي انصراف أنصرفه وقد قطعت كل هذه المسافة وصبرت كل تلك السنوات

لأنشده وأنال عطاياه وجوائزه! يا ويل أمك يا جرير! تنشد الحجاج فيرى أن أعظم مكافأة لي هي وفودي على عبد الملك وحين آتي لعبد الملك يرميني بالباطل ولا يسمع شعري!

حمدًا لله أن محمدًا أخو الحجاج كان حاضرًا بجسمه وذهنه، فاستنبط أن ما أرسلني الحجاج إلى هنا إلا لأنشد أمير المؤمنين، فطلب من أمير المؤمنين أن يسمح لي بالإنشاد، فسمح وهو لي كارهٌ..

بدأتُ قصيدتي أقول في مطلعها:

أتصحو أم فؤادك غيرُ صاح   عشيةَ همَّ صحبكَ بالرواحِ

فاستهزأ بي عبد الملك قاصدًا حرجي ورماني باللحن، لكني تغاضيتُ عنه، وأكملت قصيدتي من البداية حسبما أراد لي أن أنطق!

أتصحو أم فؤادك غيرُ صاح   عشية همَّ صحبكَ بالرواحِ

حتى وصلتُ إلى قولي:

فبعضُ الماءِ ماء ربابِ مزنٍ   وبَعْضُ الماءِ مِنْ سَبَخٍ مِلاح

فقال عبد الملك: صدقت يا أبا حزرة.

فسعدتُ لأن أمير المؤمنين يعرف كنيتي واسم ابني، ثم آذنني في الاستكمال، فقلتُ:

سيَكْفِيكَ العَواذلَ أرْحَبِيٌّ هجانُ اللونِ كالفردِ اللياح
يعز على الطريق بمنكبيهِ كما ابتَرَكَ الخَليعُ على القِداح
تعزتْ أمُّ حزرة ثمَّ قالتْ رَأيتُ الوَارِدِينَ ذَوي امْتِناحِ
تُعَلّلُ، وَهْيَ ساغِبَةٌ بَنِيها بأنْفاسٍ مِنَ الشَّبِمِ القَرَاحِ
سَأمْتاحُ البُحُورَ فجَنّبِيني أذاة اللّوْمِ وانْتظِرِي امْتِياحي
ثِقي بالله لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ ومنِ عندِ الخليفة بالنجاحِ
أغثني يا فداكَ أبي وأمي بسيبٍ منكَ إنكَ ذو ارتباح
فَإنِّي قدْ رَأيتُ عَليَّ حَقًّا زِيَارَتِيَ الخَليفَة وامْتِداحي
سأشكرُ أنْ رددتَ عليَّ ريشي وَأثْبَتَّ القَوادِمَ في جَنَاحي
ألَسْتُمْ خيرَ مَن رَكِبَ المَطَايا وأندى العالمينَ بطونَ راحِ

وما أن وصلتُ لهذا البيت حتى اعتدل أميرُ المؤمنين من اتكائه وعلى قسمات وجهه علاماتُ الرضا على ما مدحته به، حتى قال في جلسائه: مَن مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت.

طار فؤادي من صدري فرحًا، فقد رميتُ فأصبتُ، وأنشدتُ فنلتُ استحسان أمير المؤمنين حتى وضع مدحي له مقياسًا ومرجعًا لمن أراد أن يمدحه بعدي، أيظن أن هناك من يمدحه مثلي؟! انتبهتُ لنفسي حين أمرني أن أعيدها عليه وأمر كُتاب الديوان أن يكتبوها عني، فأعدتها متمهلاً ليتمكنوا من مجاراتي في التدوين وما أن انتهيتُ حتى سألني:

- يا أبا حزرة، أترى أم حزرة ترويها مائة ناقة من نَعم كلب؟

يا خالقي! مائة ناقة في قصيدة، والله إني مدحت رجالاً بالمشارق والمغارب ما جزاني أحدٌ مثلما جزاني أمير المؤمنين، فقلتُ يا أمير المؤمنين إن لم تروها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله.

فسمعته يأمرُ رئيس الديوان بأن يصرفوا لي مائة ناقة من نَعم كلب كلها سود الحدقة! يا لحسرتي ما لي أنا وتلك النياق الآبقات الشاردات! فكيف لي برعايتها وحصرها؟! فقلتُ له: يا أمير المؤمنين، إنها أباقٍ ونحن مشايخ، وليس بأحدنا فضلٌ

عن راحلته؛ فلو أمرت بالرعاء يرعونها لنا؟ فكان سخيًّا كريمًا وأمر لي بثمانية رعاة ليقوموا على شأنها، ولكني طمَّاع ولا آمل في نفحةٍ مثل هذه مجددًا فأشرتُ إلى صحاف الفضة التي في يديْه فضجر مني ورماها لي داعيًا ألا يُبارك الله لي فيها، فخرجتُ مادحًا له مدحًا فوق المدح:

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية   ما في عطائهم مَنٌّ ولا شرف

أخذتُ جائزتي الوفيرة وعُدت إلى اليمامة لكي تقرَّ أم حزرة عينها بها فهي أعظم جائزة نلتها في حياتي حتى الآن. لكن تأبى الأيام أن تضحك لي فما أن وصلت على مشارف اليمامة حتى نعوا لي زوجتي ورفيقة دربي! فلا أنا فرحتُ بالجائزة ولا لحظتها خالدة.

كان المالُ وفيرًا فكفنتها كأحسن ما يكون وأجود ما يليق وتصدقت على روحها بأسخى ما تصدقتُ على نفس من مال، وجادت قريحتي في رثائها حيث قلتُ فيها:

لَولا الحَياءُ لَعادَني اِستِعبار   وَلَزُرتُ قَبرَكِ وَالحَبيبُ يُزارُ

وَلَقَد نَظَرتُ وَما تَمَتُّعُ نَظرَة   في اللَحدِ حَيثُ تَمَكَّنَ المِحفارُ

فَجَزاكِ رَبُّكِ في عَشيرِكِ نَظرَة   وَسَقى صَداكِ مُجَلجِلٌ مِدرارُ

وَلَّهتِ قَلبي إِذ عَلَتني كَبرَة   وَذَوُو التَمائِمِ مِن بَنيكِ صِغارُ

أَرعى النُجومَ وَقَد مَضَت غورِيَّة	عُصَبُ النُجومِ كَأَنَّهُنَّ صِوارُ

نِعمَ القَرينُ وَكُنتِ عِلقَ مَضِنَّة	وارى بِنَعفِ بُلَيَّةَ الأَحجارُ

عَمِرَت مُكَرَّمَةَ المَساكِ وَفارَقَت	ما مَسَّها صَلَفٌ وَلا إِقتارُ

فَسَقى صَدى جَدَثٍ بِبُرقَةِ ضاحِك	هَزِمٌ أَجَشُّ وَديمَةٌ مِدرارُ

هَزِمٌ أَجَشُّ إِذا اِستَحارَ بِبَلدَة	فَكَأَنَّما بِجِوائِها الأَنهارُ

مُتَراكِبٌ زَجِلٌ يُضيءُ وَميضُه	كَالبُلقِ تَحتَ بُطونِها الأَمهارُ

كانَت مُكَرَّمَةَ العَشيرِ وَلَم يَكُن	يُخشى غَوائِلَ أُمِّ حَزرَةَ جارُ

وَلَقَد أَراكِ كُسيتِ أَجمَلَ مَنظَر	وَمَعَ الجَمالِ سَكينَةٌ وَوَقارُ

وَالريحُ طَيِّبَةٌ إِذا اِستَقبَلتِها	وَالعِرضُ لا دَنِسٌ وَلا خَوّارُ

وَإِذا سَرَيتُ رَأَيتُ نارَكِ نَوَّرَت	وَجهاً أَغَرَّ يَزينُهُ الإِسفارُ

صَلّى المَلائِكَةُ الَّذينَ تُخُيِّروا	وَالصالِحونَ عَلَيكِ وَالأَبرارُ

وَعَلَيكِ مِن صَلَواتِ رَبِّكِ كُلَّما	نَصِبَ الحَجيجُ مُلَبِّدينَ وَغاروا

***

دار الحوْل وحان وقتُ خروجي إلى الشام، فشددتُ الرِّحال

إلـى حاضـرة الخلافـةِ فتصـادف وصولـي مـع وصـول العديـد مـن شـعراء ربـوع الخلافـة، ومجلـس الشـعر مُقـام، فاسـتأذنت فـي الدخـول فـأُذن لـي.

حيـن دخلـت وجـدتُ المجلـس مكتظًّـا بالشـعراء والخليفـة علـى سريره قـد ضربـه الهـرم، والفـرزدق حاضـرًا ويبـدو أنـه قـد أنشـد الخليفـة منـذ دخولـه، فاسـتأذنت الخليفـة فـي الإنشـاد فـأذن لـي، فأنشـدته جديـد مـا مدحتـه بـه فشـكرني وأشـار إلـيَّ بالجلـوس ليسـتمع لباقـي الشـعراء، فتوالـت عليـه الشـعراءُ فـي المديـح حتـى آخرهـم وكان للحـق والشـهادة عـذب اللفـظ يسـير التعبير سهل العبـارة لا شك لـديَّ أنـه مـن بنـي عُـذرة ممـا لفـت لـه الأنظـار حتـى عبـد الملـك نفسـه:

- ممن أنت؟

- يا أمير المؤمنين، أنا من قومٍ إذا أحبُّوا ماتوا.

بشَّ الخليفة لهذه الإجابة الفطنة: ألا تجلدون؟!

- أصلح الله الخليفة، إنا لننظر إلى محاجر أعينٍ لا تنظرون إليها.

- هل لك علمٌ بالشعر وأهله يا أهل العشق والهوى؟!

- فليجربني الخليفة وليرى!

- هل تعرف أهجا بيتٍ قالته العرب في الإسلام؟

- نعم، قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغتَ ولا كلابا

- أحسنت! فهل تعرف أمدح بيتٍ قيل في الإسلام؟

- نعم، قول جرير:

ألستُم خيرَ من ركب المطايا وأنْدَى العالمين بطونَ راح

- أصبتَ وأحسنتَ! فهل تعرفُ أرقَّ بيتٍ قيل في الإسلام؟

- نعم، قول جرير:

إن العيونَ التي في طرْفها حَوَرٌ قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهنَّ أضعفُ خلق الله أركانا

- أحسنت! فهل تعرف جريرًا؟

- لا والله، وإني إلى رؤيته لمشتاقٌ.

فأشار الخليفة إليَّ وقال له: هذا جرير.. ثم أشار إلى

الفرزدق وعرَّفه به، وكذلك الأخطل، فقمت إليه وقبلتُ ما بين عينيْه بعدما علا شأني وسط المجلس كله وتنازلتُ له عن جائزتي.

***

الحجّاج

-24-

توالت السنواتُ ومات عبد الملك بن مروان وخلف من بعده الوليدُ ابنه على خلافة المسلمين مثلما تمنيت، ومضيتُ أنا في بعث رجالي إلى مشارق الأرض ليفتحوها وينشروا الإسلام فيها.

***

شغلتني الحروبُ والفتنُ فلم أحج لبيت الله منذ أن أتيتُ العراق فقررت الحج هذا العام وخلفت ابني محمد مكاني على حُكم العراق وخطبتهم قبل رحيلي:

يا أهل العِراق، إنِّي أردتُ الحج، وقد استخلفتُ عليكم ابني محمدًا، وما كنتم له بأهلٍ، وأوْصيتُه فِيكم بخلاف ما أوصى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الأنْصار؛ فإنه أوْصى أنْ يَقْبل من مُحسنهم ويتجاوز عن مُسيئهم؟ وأنا أوْصيتُه أن لا يَقْبل من مُحسنكم ولا يَتجاوز عن مُسيئكم.. ألاَ وإنكم قائلون بعدي مَقالةً لا يَمْنعكم من إظهارها إلا خَوْفي، تَقولون: لا أحْسن الله له الصحابةَ.. وإنِّي أعجِل لكم الجواب: فلا أحْسن الله عليكم الخِلاَفة.

ثم نزلتُ من على المنبر وشددتُ الرِّحال إلى الحجاز فما برحتُ واسط حتى جاءني نعي محمد ابني! فعدتُ من مكاني إلى واسط فما وصلتُ حتى جاءني نعي محمد أخي! ففرح فيَّ أهل العراق لما قدمت فيهم فخرجت عليهم وخطبت فيهم: أيها الناس، محمَّدان في يومٍ واحدٍ، أما الله لقد كنتُ أحِبُّ أنهما معي فِي الدنيا، مع ما أرجو لهما من ثواب اللّه بالآخرة، وايم اللَّه، ليُوشكنَّ الباقي منَّا ومنكم أن يَفْنى، والجديدُ منَّا ومنكم أن يَبلى، والحيُّ منَّا ومنكم أن يموت، وأن تُدال الأرضُ منَّا كما أدِلنا منها؛ فتأكل من لحومنا، وتَشْرب من دمائنا، كما مَشَينا على ظَهرها، وأكلْنا من ثمارها، وشربنا من مائها،

ثـم يكـون كمـا قـال اللّـه: «ونُفِـخ فـي الصُّـور فـإذا هـم مِـن الأجـداث إلـى ربهـم يَنْسِـلون»، ثـم تَمثلـتُ بهذيـن البيتيـن:

عَزَائي نبي اللّه مِنْ كُل مَيتٍ وحَسْبي ثوابُ الله مِن كُلِّ هالِكِ
إذا ما لقيتُ الله عنِّيَ راضِيًا فإن سرُورَ النَّفس فيما هُنالِك

***

قصـم ظهـري بمـوت ابنـي وأخـي ومـن قبلهمـا أبـي، فكرهـتُ الدنيـا ومـا بهـا ولـولا مـا بلانـي اللـه مـن الطاعـة لاعتزلـت الإمـارة ولزمـتُ بيتـي، ولكـن الوليـد أقسـم علـيَّ ألا أتركها فبقيتُ معـه نقلـب الأيام بالأيام حتـى أرسل إلـيَّ والـي مكـة سـعيد بـن جبيـر مكبلاً فـي قيـوده! ألا لعنـة اللـه علـى ابـن النصرانيـة فمـا لـي ولسـعيد وإن كان خـرج علـيَّ فقـد عـاد وسـكن واسـتكان ولا مخافـة منـه! فلـمَ أرسـله لـي الآن؟!

دخـل علـيَّ سـعيد وأنـا أرجـو اللـه أن يعتـذر لنفسـه لأعفيـه مـن الحد.

- يا سعيد ألم أشركك في أمانتي؟!

- نعم.

- فما حملك على الخروج عليَّ وخلعت بيعة أمير المؤمنين؟!

- إن ابن الأشعث أخذ مني البيعة على ذلك وعزم عليَّ.

- ويحك! ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك؟!

- بلى.

- ثم قدمت الكوفة واليًا على العراق فجددتَ بيعتك لأمير المؤمنين ثانية؟!

- بلى.

- فتنكث بيعتين لأمير المؤمنين وتفي بواحدةٍ للحائك ابن الحائك.

أمرتُ الحرس بضرب عنقه فكان آخر ما دعا به ألا أقتل

بعـده أحـدًا أبـدًا وظنـي أن اللـه اسـتجاب لـه، فمـا مكثـت بعـده إلا عشرة لا أفـارق فيهـا فراشـي حتـى لحقـت بـه وإلـى اللـه تُرجـع الأمـور...

***

جرير

-25-

كثر مالي وعظمت نفقتي وفاضت عن حاجتي، فتذكرتُ شدة ابن سيرين واشتقتُ إلى مجلسه فرحلتُ إلى العراق وبحثتُ عن صاحب معصرة الزيت ووفيته ديْن ابن سيرين حتى يُخلي سبيله ففعل، وخرج ابن سيرين من الحبس وجاءه كل رجال العراق يهنئونه على خروجه حتى ازدحمت داره بالزوار فخرج إلى المسجد واجتمعنا حوله.

كانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها الشعبي وابن سيرين والحسن البصري في مسجدٍ واحدٍ ومجلسٍ

واحدٍ وكان هذا على شرف خروج ابن سيرين، وأراد الله أن يُضاعف فرحتنا، فبينما نحن بالمسجد إذ جاءنا خبر وفاة الحجاج!

ما أن سمع الحسن البصري الخبر حتى خرج ساجدًا شكرًا لله، فصاح مُعظم من بالمسجد: مات الكافر، مات الكافر؛ مات الملعون، مات الطاغية، مات المُبير! حتى صاح أحدهم: كيف ترمون الرجل بالكفر وقد شهد بالإيمان على منبركم؟! فقام إليه الشعبي مستنكرًا مقالة الرجل: الحجاج مؤمن! الحجَّاج مؤمنٌ بالجبت والطاغوت كافرٌ بالله العظيم؛ فردَّ عليه الحسن البصري: يا شعبي قد مضى الحجاج إلى ربه، وإنك حين تقدم على الله ستجد أن أحقر ذنب ارتكبته في الدنيا أشد على نفسك من أعظم ذنب اجترحه الحجاج، ولكل منكما يؤمئذ شأن يُغنيه، وأعلم أن الله سوف يقتص من الحجاج لمن ظلمهم، كما سيقتص للحجاج ممن ظلموه فلا تشغلن نفسك بعد اليوم بسبِّ أحدٍ.

سرقت فرحة موت الحجاج فرحة خروج ابن سيرين ولم يلتفت إليه أحد بعدما كان محور المجلس ومقصده،

فذهبتُ إليه مستفهمًا عن موقفه تجاه الحجاج فقال لي: مسكينٌ أبو محمد إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه وإن يغفر له فهنيئًا له.

***

خطاب الإحالة

كاتبنا العزيز،

تحية طيبة من نخلات العراق إلى مآذن القاهرة،

لم تسبق لنا المراسلة من قبل، لكن ما لديَّ يستحق المراسلة، وأرجو أن يتسع وقتك لقراءة كامل قصتي دون أن تنعتني بالجنون، ولتطالع المرفقات بكل حرصٍ ولترَ فيها رأيك، وإليك تفاصيل الأمر:

بغدادي أنا، العراقُ موطني، من عائلةٍ متوسطة المعيشة، ثرية الثقافة، ولدت لأبٍ يهوى القراءة ويمتهن الصحافة، وأظنك تعلم ما معنى أن تكون صحافيًّا في العراق، وهواية أبي ورثها عن أبيه، وكذلك أنا وأخواي التوءم ورثناها عن أبي، وكانت في بيتنا أضخم مكتبات العراق الخاصة، خصصنا لها طابقًا كاملاً في بيتنا، فقد عشنا للكتب وأدمنت عيوننا السطور.

كان هذا قبل الغزو، فمات جدي كمدًا، ومات أبي حزنًا، ومات أخواي غدرًا، وبقيتُ وحدي أتجرعُ فراق الأهل والأرض، ولم أجد عزائي إلا في انعزالي، ولم أجد في انعزالي رفيقًا غير الكتب، خاصة التي قرأها أهلي قبلي، فكنتُ أقرؤها متفقدًا أثر عيونهم التي مرَّت على تلك السطور يومًا ما، وآثار أفكارهم التي دوَّنوها يومًا ما على

هوامش الصفحات، ولطبيعة الصمت والانعزال والوحدة في القبو بدأت الهلاوس تزورني!

بدأتُ بسماع أصوات؛ كصوت جدي وجلبته المتعمدة أثناء وضوئه للفجر، صياحه على أمي وقد تأخرت قهوته، ضجره وهو يبحث عن عيوناته؛ ثم تطوَّر الأمرُ وسمعتُ صوت أبي وهو يستمع إلى نشرات الأخبار، نقاشه مع جدي حول أوضاع البلاد بعد الغزو! تمزيقه لمقالاتٍ كتبها ومُنع من نشرها، صراخه المنذر في أخويَّ وقد احتد نقاشهما! حين حكيتُ لأمي عوَّلت الأمر على تعلقي بهم وكثرة سهري في القبو وحدي، وحاولتُ مراجعة طبيبٍ نفسي لكن خجلت وأنا في انتظار الفحص حين رأيتُ مرضى دمرهم الغزو نفسيًّا وجسديًّا، فقد رأيتُ مريضًا لا يكف عن الصراخ، يشتكي ألمًا في القدم رغم أن ساقه مبتورة! وفتاة زائغة العينين تضع ساعدها على نهديْها ويدها الأخرى على فرجها! أخبرتني الممرضة أنها تعرضت للاغتصاب، تناوب عليها خمسة غزاة وتركوها عارية، غائبة العقل، ومنذ استفاقتها بعد الحادثة لا تشعر بأن ثيابها تسترها وتُحاول ستر نفسها! وقبل أن تسألني الممرضة عن مرضي، رحلت، فأنا مترفٌ مقارنة بهؤلاء، وللحق وددتُ لو لم أشفَ من مرضي المزعوم هذا، فمن ذا يكره أن يسمع صوت أهله؟!

عدتُ أستجلب سماع أصواتهم، وأقتفي أثره، فطلقت النهار، ورافقت الليل، وأحكمت منافذ القبو لألتمس أصواتهم، حتى بدأوا

يحدثونني! في البدء كان أبي يسألني عن حالي فأجد نفسي أجيب، ثم تطور الأمر لمساعدتهم لي في العثور على ما غاب عني من الكتب ويدلني جدي على موضعه بالتحديد، رغم أنه لم يحضر معي صف المكتبة في مكانها الجديد! ثم بدأ أخواي في إبداء رأيهما الساخر المشاكس كعادتهما في رسماتي البسيطة، حتى طلب مني جدي أن أرسم له لوحة شخصية وكذلك طلب أبي، وبدون طلب من أخوي قررتُ أن أرسمهما كمسخيْن لأسخر منهما مثلما سخرا مني.

رسمتُ صورةً لجدي ضعف صورته الوحيدة المتواجدة لديَّ، كان فيها يرتدي شملته الصوفية، ويلف عنقه بكوفية سقطت عليها عيوناته الطبية؛ أما رسمة أبي فقد أخذتها من ذات صورته التي كان يُفضلها في النشر مع مقالاته، تلك الصورة التي تلتقط لأغلب المثقفين ومن خلفهم ترسانتهم من الكتب؛ أما أخواي فقد حار فكري لرسمة أسخر بها منهما حتى حط بناني على رسم رأسيهما بجسدٍ واحدٍ.

ثبتُّ الرسمات الثلاثة في مواجهة مقعدي الذي أجلس عليه في المكتبة، ومن كثرة التأمل في وجوههم وجدت أصواتهم تأتيني مصاحبة لتحركات في وجوههم وكأن صورهم دبت فيها الحياة! وما لبث المرضُ أن تمادى في تطوره حتى رأيتهم يخرجون من رسماتهم ويأتون إليَّ!

جدي يخرج من رسمته ويمد يده ليأخذ عويناته من على صدره ويثبتها أمام عينيْه ويأتي يجلس جواري على مقعده المُفضل! أبي ينهضُ من أمام كتبه ويأتي يجلسُ في مقابلة أبي! أخواي ينفصلان ويأتي كل منهما بجسده وهما يتوعداني بأشد العقاب قبل أن ينهرهما أبي بنظرةٍ تُخرسهما!

لم أقوَ على سرد ما أراه لأمي، فلا يصح بعدما فقدت والدها الروحي، وترملت، وثكلت ولديها، أن ترى ابنها الباقي الوحيد مجنونًا! يتوهم رؤية الأموات ويُحدثهم! فحدثتُ في الأمر سيدي عزوز فنصحني بالاستعاذة من الشيطان ولأتفل عن يساري ثلاثًا كلما توهمتُ ما أراه! لو كان الأمر بتلك البساطة فليجلس علماء الطب النفسي في بيوتهم! فراجعت- بصفةٍ وديةٍ- زميلاً لي تخرج في كلية الطب فأخبرني أن الأمر خطيرٌ وحالتي في طريقها للتفاقم ودلني مشكورًا على أحد أباطرة الطب لأراجعه، ولمح لي بالتكلفة الفاحشة لاستشارة الطبيب والعلاج، فلما نبهته لضيق ذات اليد سألني بنفاد صبر:

- هل تُعاني ضررًا جراء تلك الخيالات؟

- بالطبع لا، إني لأجد فيها الونس، وأطرد بها الوحشة.

- خلاص، استمتع!

الاستعاذة من الشيطان كان رأي سيدي عزوز، والاستمتاع بالهلاوس كان رأي صديقي الطبيب، رغم أنه حل غير طبي! كأن

تخبر مريض سرطان: أبشر! شيء ما ينمو داخلك! لكنه كان أفضل من سيدي عزوز الذي أفشى سري لإحدى زوجاته- إن لم يكن أفشاه لكلهن- وبالطبع تكفلت إحداهن بنقل الخبر لأمي وللحارة من بعدها، فأضحت حالتي تتصدر أخبار حارتنا مثلما تتصدرها أخبار السياسة. وسعى بعضُ البسطاء في تنصيبي وليًّا من الأولياء، واعتبار مرضي كرامة من كراماتي، واستدلوا بنجاتي يوم قصف بيتنا ولم يصبني أذى رغم وجودي في الطابق المُصاب، ويوم تفجيرات المتنبي رغم إغمائي فإن جسدي لم يمس ولو بشظيةٍ، ومنذ الغزو حتى الآن لم تقطر لي نقطة دم؛ وحِيكت أساطير خرافية حول ولادتي بعدما ظن الجميع أن منيَّ أبي قد جفَّ في ظهره، وعن هدوئي صغيرًا وقلة بكائي، وعن حفظي للقرآن صغيرًا وتعلقي بالمساجد وعن أشياء تفاجأتُ مثلهم أنني صاحبها، كقرط جارتنا الذي ضاع منها وأنا من دللتها عن مكانه! وأصبحتُ فجأةً الشيخ كاظم! واحتشد بيتنا بالزوار للتبرك بي! لكن جمودي معهم وعدم انسياقي خلف خرفهم المزعوم، وقلة ظهوري لهم بالنهار أو اختلاطي معهم بالليل قد صرفهم عني، وكما أن سيدي عزوز هو منبت الإشاعة فقد تعرَّض في خطبته لأمرى ومحا عني ما لحق بي وحذف لقب شيخًا من قبل اسمي، وتناسى الناس أمري، وفي حالتي لم يعد النسيان آفة، بل شميلة.

أخذتُ بنصيحة زميلي، واستمتعتُ بالأمر وتماديتُ فيه حد الجنون، وصرتُ لا أشعر بفقدهم، ولا بوحدتي وانعزالي، فمن ذا الذي

يشعر بالوحدة وسط أغلى الغالين؟! كنا نلتقي في المكتبة وتدور معظم نقاشاتنا مثلما كانت في حيواتهم، جدي وأبي يتجاذبان أطراف حديث فينتهي بنقاشٍ نجلسُ فيه كأن على رؤوسنا الطير لنستمع إليهم، وذات جلسةٍ نقاشيةٍ حول الشعر الشعبي العراقي احتد النقاش بين جدي وأبي حتى سمعته يصرخ مناديًا وهو ينظر تجاه دولاب الدواوين في المكتبة.

- يا كاظم.

كنتُ على مبعدةٍ منهما..

رأيتُ جدي يُحاور الفراغ! وكذلك يفعل أبي! يتحدث كل منهما بدوره ثم يصمتان كأنهما يستعمان لصوتٍ لا أسمعه وشخصٍ لا أراه! ثم ينهض أبي ليجلب كتابًا من المكتبة ويعبر صفحاته بعصبيةٍ حتى يصل لصفحةٍ يُعلمها فيضع الكتاب على الطاولة ويشير بيده نحو الفراغ بإيماءةٍ تُوحي كأنه يطلب منه أن ينظر في الصفحة! فينهض جدي ويأتي بكتابٍ آخر ويفعل مثلما فعل أبي كما لو كان يعرض حجته ويطلب من الفراغ أن ينظر ثم يصمتان للاستماع للفراغ وبعدها لاحت من ثغر جدي إبتسامة الانتصار وكأن من أتى من الفراغ نصفه وجنح لرأيه!

طغت الدهشة عليَّ فلم أتبين الكلماتِ التي كان يتفوه بها جدي وأبي، حتى حينما سألتُ أخويَّ إن كانا يريان ما لا أراه أجابا بالنفي،

لكن ملامح وجهيهما كانت هادئة وكأن الأمر معتادٌ وجرباه من قبل، بل إنهما صرحا لي بأن أحيانًا لا يرى أيٌّ منهما الآخر، وقد لا يرى أبي جدي وقد لا يرى جدي حفيديْه، وأحيانًا أخرى يرى الفردُ الجميع بمن حضر من الأغراب!

كنتُ أظن الأمر مجرد هلاوس، أو وساوس شيطانية، أو اضطرابات عقلية، لفرط حبي لأهلي وتعلقي بهم، ولدورهم البارز في تشكيل وعيي وفكري، لذلك لم أكن أستغرب أن لقاءاتي بهم أغلبها نقاشاتٌ ثقافيةٌ لكن الأمر أضحى أصعب مما أستطيع استيعابه، ويبدو أن خيالي بدأ ينسج واقعًا افتراضيًّا متكامل الشخوص والأحداث، ولِمَ لا وأنا قد قرأتُ ما يقربُ من سبعمائة روايةٍ كنتُ أتوقع أغلب الأحداث فيها! وانتبه بحذر للفخاخ والكمائن التي ينصبها المؤلفُ طوال خط الرواية ليُفاجئني بنهايةٍ لا أتوقعها فأفاجئه أنا بتوقع نهايته!

حين سألتُ جدي عن تفسير ما حدث، حاول جاهدًا أن يبسط لي الأمر فأنا في نظره طفلٌ على ذات السن التي تركني عندها عند موته الحقيقي، فأخبرني أن لكل شخصية إكسيرها، والكاتب حين يؤلف كتابًا يضع بعضًا من إكسير شخصيته فيه، وحين يقرأ القارئ الكتاب ويتفهم معانيه ويتشرب أفكاره فإنه يتشرب ذات إكسير شخصية الكاتب، وكل بمقدار.. فكلما أخلص المؤلف وحذق، وبرع في التأليف، كلما ازداد مقدار الإكسير في العمل؛ وكلما تمعَّن

القـارئ وتـروى، وتفكـر فيمـا يقـرأ كلمـا تشـرب مـن إكسـير شـخصية المؤلـف وامتـزج بشـخصيته؛ بعضهـم يراهـا كأحـلام، بعضهـم يلتمسـها كهواجـس، بعضهـم يحسـها كخواطـر، بعضهـم يُدركها كأفـكار، بعضهـم يسـمعها كأصـواتٍ، لكـن قمـة انتقـال الإكسـير وتمـام امتزاجـه يكـون فـي تجـلٍّ مـن الشـفافية، يـراه كل مـن تشـرب الإكسـير بـذات المقـدار. فالإكسـير لا يفنـى وإن ظـل محفوظًـا آلاف السـنين، ولا ينفـد ولـو تشـربه أهـلُ الأرض جميعًـا.

حاولـتُ أن أسـتوعب مـا يقـول، وفشـلت، حتـى حيـن سـألته كيـف أراه الآن وكذلـك والـدي وأخـوي، رغـم أنهـم ليسـوا بمؤلفيـن ولـم أمتـزج بإكسيرهم المزعـوم؟ أخبرنـي أن هـذا إكسـير الـدم الـذي يربطنـا برابطتـه، وقـد تتضبـب الرؤيـة وتفنـى فـي حـالات الانشـغال أو عدم التهيؤ للتجلي! ولكـي يغلـق البـاب أمـا تسـاؤلاتي أضـاف باقتضـابٍ: قوانيـن الأحيـاء لا تسـري علـى الموتـى، كـذا قوانيـن الملمـوس لا تسـري علـى المحسـوس.

صراحـة لـم أنشـغل كثيـرًا بالتفسـيرات، فهـل انتهيـت مـن تفسـيراتِ حياتـي الطبيعيـة حتـى أعكـر صفـو حياتـي الخياليـة وأنشـغل بتفسـيراتٍ ربمـا أدَّت لتضبـب رؤيتـي وتلاشـيهم مـن حياتـي! وعلـى نصيحـة زميلـي: اسـتمتع، فقـد اسـتمتعت حتـى بلـغ الاسـتمتاع حـده، وبـدأتُ فـي اسـتخلاص الأكاسـير مـن المؤلفـات.

فـي البـدء كانـت تراودنـي أحـلام مـع المؤلفيـن أو أبطـال الروايـات، وكان هـذا أمـرًا عاديًّـا لـديَّ، جربتـه قبلمـا يُخبرنـي جـدي بالأمـر، وسـرعان

ما تبدلت الأحلام بهواجس ثم خواطر ما لبثت أن تحولت لأفكارٍ تُجادلني في أفكاري حتى احتد الجدال ذات مرةٍ فسمعت صرخةً: أن اصمت.

كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها صوت المؤلف رغم أني لم أعاصره، ولم أعرف لصوته نبرةً! فكل علاقتي به كانت من خلال كتبه ومقالاته؛ تحولت من أخذة الارتباك، إلى نشوة الاندهاش، ثم إلى فرحة الاكتشاف؛ فطرتُ إلى جدي لأخبره أمري، فوجدتُ الكاتب سبقني وأخبره!

بعدها نصحني جدي وأبي بأن أبحث عن المؤلفات الحاوية أعلى كمية إكسير حتى أصل إلى التجلي، فإمعاني وتفكري في القراءة ليس شرطًا لوصولي للتجلي، فربما يكون الكاتبُ لم يضع الإكسير الكافي لذلك وكتب الكتاب بيده وليس بعقله! وحينها سأكونُ كمن يبحث عن قبلة مؤخرته.

من حينها وبدأت القراءة لعباقرة المفكرين والحكماء والكُتاب والشعراء والمؤلفين على مرِّ العصور، وبالتجربة كلما عدتُ بالزمن للخلف زاد الإكسير وسهل الحصول عليه لكن لم يحن وقت التجلي بعد! وكأني عليَّ أن أمضي شوطًا في الاستماع حتى تُتاح لي الرؤية، فبدأتُ أستمع لمحاضرات هيباتيا، ومجادلات سقراط، وتفسيرات ابن خلدون، وخطب العز بن عبد السلام، وأشعار المتنبي.

ومضيتُ سنواتٍ على هذا المنوال حتى كان التجلي الأول، في حضرة جدي وأبي.

ومن بعدها تكرر الأمرُ حتى اعتدته، وملكتُ زمامه، وأصبحت آمر من حصلت على إكسيره بالحضور والانصراف متى وأين شئت، وغدا باستطاعتي دعوة من أريد لحضرتي، وأجري بينهم ما أردتُ من نقاش حتى تلك الليلة التي كنتُ فيها مستضيفًا لمطارحةٍ شعريةٍ انتهيتُ منها لتدق في رأسي نواقيس الحجاج، منذ أن نعته الفقيه بالملعون، وتشبه به سيدي عزوز، وجلس نزار على مقهى يحمل اسمه الأصلي، ورواية جرجي زيدان التي تحمل اسمه، واحتج به رجل الشابندر، واستشهد به سيدي عزوز في خطبته، وتذكرته عند القبور! كل هذا في يومٍ واحدٍ!

أخبرتُ جدي بأمر النواقيس، فأخبرني أن كل دقة من تلك النواقيس هي إشارة لي لأبحثَ عن إكسير الحجاج، لأن الحجاج لديه ما يُدلي به! فحاججته معترضًا:

- لكنه لم يكن حكيمًا ولا مؤلفًا ولا مفكرًا فهل له إكسير؟

- يا كاظم، لقد أخبرتك سابقًا، لكل شخصية إكسيرها.

- حتى ولم يترك أثرًا معروفًا يؤخذ منه إكسيره؟!

- من قال إنه لم يترك؟! الإكسير من الشخصية، والشخصية

تُنقل بالسيرة، والسيرة مُبعثرة في الكتب فابحث عن السيرة، تجمع الشخصية، تحصل على الإكسير.

- يا جدي، حتى لو بحثت عن السيرة، ووجدت الإكسير، وسمعتُ الحجاج، ما فائدة كل ذلك؟

- ربما فيه ما لم يصلنا، أو وصل بالخطأ، يا ولدي إذا كان الحاضر يُزيف ويُحرف أمام عينيك، فما ظنك بماضٍ لم تعشه؟! فإن سمعت من الحجاج ما يستحق النشر، فانشر عنه قوله:

- أنا! ومَن يعرفني ليسمع مني؟! وحتى إن وجدت من يسمع فلا أملك جرأة أن أتحدث، وإن تحدثت مَن سيصدق حديثي؟

- لا تسبق الأحداث يا كاظم، اجمع أولاً السيرة المُبعثرة، واستعد الشخصية واحصل على الإكسير، وإذا رأيتَ في قول الحجاج ما يستحق النشر، فابحث عن من ينشره عنك، وإذا لم تجد فظني أنها رحلةٌ لن تندم يومًا أنك خضتها.

ومن هنا بدأت رحلتي في البحث المُضني عن سيرة الحجاج المُبعثرة في بطون المراجع، والمُنتشرة بين سطور الكتب، بكل ما تحمل من صدقٍ، وزيفٍ، وصحةٍ ووضعٍ، وحقيقةٍ وخيالٍ، وبيد كل من كتبها كمؤيدٍ أو معارضٍ أو مدَّعي الحياد؛ ولأني غير متخصصٍ كان شاغلي الشاغل الحصول على أوسع قدرٍ من السيرة ليتسنى لي توفير القدر الكافي من الإكسير لتجلي صاحب السيرة، وبعد ثمانية عشر شهرًا من

البحث تجلى لي، وكان أول ما طلبه أن يحضر عبد الملك بن مروان بصفته ولي أمره، وليرافقنا اثنان من الشعراء، فهم أعلام العصر وشهودٌ عليه، واختار هو جرير الخطفي بصفته أكثر الشعراء ملازمة له، فيما اخترتُ أنا ليلى الأخيلية ومكثت تسعة شهور أخرى أبحثُ عن إكسير عبد الملك وجرير والأخيلية، وما أن تجمعنا حتى جلسنا على المائدة المُستديرة؛ لكن لسببٍ غير معلومٍ لم يتجل كل منهم للآخر، فكنتُ أرى الجميع ولا يرى الجميع سواي، وبدأ كل منهم يروي ما بدا له لمدة خمس أسمار، حرصتُ على تسجيلها صوتيًا فالشفافية لا ترى في التصوير المرئي، وأرسلتُ لك التسجيلات برفقة رسماتٍ رسمتها بيدي محدودة الموهبة لأشكالهم مثلما تجلوا لي، وبالمرفقات أيضًا محاولاتي الشخصية في كتابة رواية لكن قدرتي الفنية لم تُسعفني لكتابة أكثر من فصلٍ سمَّيته «النواقيس»، فقدرتي محدودة في الكتابة مثلما في الرسم.

الآن الحقيقة بين يديك، إن رأيتها تستحق النشر فهي عملٌ أصيلٌ لك، بتنازلٍ كاملٍ مني، وحق تصرف غير مشروطٍ، ويحق لك التعديل فيها بما يحفظ المتن ولا يخل بالأصل ولا يضيع الحق؛ ولعلنا نعيد الزمن القديم، حيث كانت الكتبُ تُكتب في القاهرة، وتُطبع في بيروت، وتُقرأ في بغداد.. وإن رأيتها غير ذلك فعلى قول جدي: فظني أنها رحلةٌ لن تندم يومًا أنك خُضتها.

كاظم

بغداد